

عصر إسماعيل

بقلم

عبد الرحمن الرافعي

الجزء الأول

يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل

الطبعة الرابعة

مقدمة الطبعة الرابعة

نشكره سبحانه وتعالى - وها هي دارالمعارف
بنشاط أبنائها تعيد طبع هذا الكتاب بعد أن أقبل عليه
الباحثون والمتقنون واقه ولى التوفيق.

كريمات المؤلف
عبدالرحمن الراجعي

سنة ١٩٨٧

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله . فهذا الكتاب سبق طبعه الطبعة الأولى
سنة ١٩٣٢ والطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ وهو يتناول عهد
عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل .
والله ولى التوفيق

كريمات المؤلف
عبد الرحمن الراجعي

سنة ١٩٨١

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في ديسمبر سنة ١٩٣٢. وشغلت بعدها بإخراج الحلقات التالية من هذه المجموعة ، وقد أفدت من الانتظار هذه السنين قبل إخراج الطبعة الثانية ، إذ تسمى لي أن أطلع على ما ظهر خلالها من كتب وتراجم ، ومؤلفات ووثائق عن عصر إسماعيل ، يتفق بعضها مع وجهة نظري في الكتابة عنه ، وبعضها يعارضها ، وقد يكون رداً عليها ، ثم أمعنت النظر أيضاً في البحوث والمقالات والخطب التي أقيمت سنة ١٩٤٥ في دار الأوبرا الملكية . وفي غيرها من المحافل والمعاهد ، لمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاة الخديو إسماعيل ، وأعدت النظر فيما كتبت عنه سنة ١٩٣٢ ، لعل أكون قد أخطأت في موضع من المواضع ، فأصحح خطئي ، أو انحرفت عن الرأي الصواب ، فأعدل عن رأبي ، ولا غصاصة على الإنسان في أن يعدل عن رأيه إذا تبين له خطؤه فالحقيقة بنت البحث ، والعصمة لله وحده ، على أني بعد أن استكملت هذه الدراسة ازدادت اطمئناناً إلى صحة ما كتبت ودوت عن عصر إسماعيل ، واعتقدت أكثر مما كنت أعتقد أني لم أتجاوز فيها ذكرت له أو عليه ، وهذا هو واجب المؤرخ في التراجم ، فعليه أن يذكر ما للمترجم وما عليه ، أما أن يذكر الحسنات دون السيئات ، أو يقتصر على هذه ويفعل الحسنات ، فهذا ليس من التاريخ الصحيح ، وما لا ينبغي أن يكون أساس البحث والتدوين ، والتاريخ الصحيح يقتضي ذكر الحقائق بأكملها ، لتكون الصور التي يعرضها المؤرخ عن الحوادث والشخصيات صوراً صحيحة . لا تشويه فيها ولا إبهام .

وعلى ذلك فإني أعيد طبع هذا الكتاب ، دون أن أغير أو أنقص منه شيئاً .

فالتبعية الثانية هي ذات الطبعة الأولى . لا تغيير فيها ولا تبديل ، ولم أزد عليها سوى إضافات يسيرة بالجزء الثاني ، لا تتجاوز ثلاثاً ، وقد حرصت على أن أجعلها في هامش الكتاب ، لكي يبقى الأصل كما أخرجته أول مرة ، وأضفت إلى الوثائق التاريخية النص الكامل لللائحة تأسيس مجلس شوري النواب ولائحة النظامية ، وكنت قد لحصت أحكامها في الطبعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

بهذا الكتاب ندخل في غمار العصر الحديث من تاريخ الحركة القومية . إذ كان عهد الخديو إسماعيل أكثر العهود صلةً بعصرنا الحاضر ، وأقربها منا أثرًا .
أخرجنا قبل الآن ثلاثة أجزاء من هذا التاريخ . بسطنا في الأول منها مشأ الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث . وكشفنا عن الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التي أفرزتها الحملة الفرنسية في مصر ، واشتمل الثاني على تمة المقاومة الشعبية ووقائعها إلى انتهاء الحملة الفرنسية ، وتطور الحياة القومية من بعد ذلك إلى ارتقاء محمد علي أريكة مصر بإرادة الشعب ، ثم أوردنا الجزء الثالث لعصر محمد علي ، وفصلنا الكلام فيه عن ظهور الدولة المصرية الحديثة . وتحقيق استقلالها ، وتأليف وحدتها القومية بفتح السودان وضمه إلى حظيرة الوطن ، وماتم في ذلك من جلال الأعمال .
وكتابنا اليوم يتضمن الحديث عن خلفاء محمد علي وه عصر إسماعيل ، ، وقد جعلناه في جزأين ، كتابا مستقلا ، لإشتماله على صفحة قاعة بدأتها في تاريخ مصر القومي ، وسنحظو هذا الحدو فيما نخرجه بمناسبة الله من سلسلة تاريخ الحركة القومية فنجعل لكل عهد منا كتابا مجتمعا ، فالكتاب الآتي في (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي) . والذي يليه عن (مصطفى كامل) ، وهلم جراً .

إن الحقيقة من الزمن التي نولي الحكم فيها عباس الأول . ثم سعيد . ثم إسماعيل ، هي صفحة هامة من تاريخ مصر القومي ، لأنها بمثابة دور الانتقال من عصر محمد علي إلى الثورة العرابية .
انقضى عصر محمد علي وإبراهيم بعد أن توطدت دعائم الدولة المصرية المستقلة وتأسس

الأولى ، فأقيمت التلخيص كما هو ، وأضفت إليه نصوص اللاتحين ، وأردت من نشرها استكمال الوثائق التاريخية الهامة عن هذا العصر ، ولم أزد على ذلك شيئاً .
والله أسأل أن يلهمنا قول الحق ، ويحبنا مواطن الزلل ، ويهدينا سواء السبيل .

أكتوبر سنة ١٩٤٨

عبد الرحمن الوائلي

حيش المصرى . والأسطول المصرى ، والثقافة المصرية ، ووضعت قواعد النهضة العلمية واقتصافية في البلاد .

ثم جاء عهد عباس الأول ، ويصح إعتبره عهد الرجعية والنكسة ، لأن فيه وقفت حركة التقدم وفترت النهضة التي ظهرت على عهد محمد على .

ثم كان عهد سعيد ، ويمتاز بظهور نهضة وطنية جديدة بأن تعد من أدوار الحركة القومية ، ترجع إلى نزع سعيد الوطنية ، وميله إلى خير المصريين ورفاهيتهم ، والعمل على تحريرهم من نير المظالم ، وبث روح القومية في نفوسهم ، والنهوض بهم للمناصب العالية في الجيش والإدارة ، ولكن إلى جانب هذه المحامد ، بدأت على عهده ثغرات التدخل الأجنبي في شئون مصر ، بإقراره إنشاء قناة السويس على يد شركة أوروبية ، مخالفاً في ذلك تعاليم أبيه العظم ، وافتتاحه عهد القروض الأجنبية التي جرت الكوارث على البلاد ، وكانت سلاسلها وأغلالها . ثم جاء عهد إسماعيل ، وهو عصر طويل ، يتمثل فيه تاريخ مصر القومي والسياسي في إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ويعد عصرًا هاماً ، له أثره النافع ، كما له أثره الضار ، في تطور الحركة القومية ، ذلك لما تمتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من نهضة ورنى وعمران ، ثم ما تخلله واقترن به من أخطاء وأرزاء أدت إلى التخلخل الأجنبي ، وإذا كانت مصر تشعر إلى اليوم بنتائج النهضة التي قامت في ذلك العهد ، وتنجي من ثمارها وتلمس آثارها يديها ، فإنها أيضاً تعاني عواقب الأغلط التي وقعت فيه ، وتدفع ثمنها غالياً ، من مالها وحقوقها ومرافقها ، هذا إلى أن معظم القيود والنظم التي تقررت في ذلك العصر لا تزال قائمة إلى اليوم (١٩٣٢) ، فالتشريع المختلط ، وتغلغل الأجنبي في شئون مصر والديون التي كبلت البلاد بحكومة وشعباً ، والتدخل الأجنبي في شئون مصر المالية والسياسية ، كل هذه القيود ترجع إلى عهد إسماعيل .

كان هذا العهد عصر تقدم ونهضة ، إذ نال الخديو إسماعيل من تركيا أقصى ما يمكن من الحقوق والمزايا توصلًا بمصر إلى الاستقلال التام ، وأكمل فتح السودان ، ومد حدود الدولة المصرية إلى منابع النيل . وشواطئ المحيط الهندي ، أي إلى تخومها الطبيعية ، فكان عمله من هذه الناحية عظيماً مجيداً . وعنى بتنظيم الجيش وترقية التعليم الحرى ، وإنهاض البحرية المصرية ، وإقامة أعمال العمران في مختلف النواحي ، وبعث النهضة العلمية والفكرية من

مرقدها . بإنشاء المدارس والمعاهد ، وتأسيس الجمعيات العلمية ، وتشجيع التأليف والصحافة . ورعاية العلوم والآداب والفنون ، وأسس نوعاً من الحياة النيابية بإنشائه مجلساً محدود السلطة يعرف بمجلس شورى النواب ، كان له الأثر البالغ في تطور الحركة الوطنية . ففي عصر إسماعيل حدثت نهضة زاهرة ، يزدان بها تاريخه ، ولكن هذه النهضة قد تعثرت في سيرها لما شابها من إسراف الخديو وبدخه ، وركونه إلى الأوروبيين ، وشديد ثقته بهم ، واعتماده عليهم . فأدت هذه العوامل مجتمعة إلى تورطه في القروض الباهظة التي ناءت البلاد بحملها . من حيث لم تكن في حاجة إليها ، فكانت الذريعة التي توصلت بها الدولة الأجنبية لتعبت بمحقوق مصر الخالدة ، فوقع هذا العبث ، وتعددت مظاهره ، فمن إنشاء صندوق الدين ، إلى فرض الرقابة الثنائية على مالية مصر ، إلى تأليف لجنة تحقيق أجنبية لفحص شئون الحكومة المالية ، إلى تعيين وزيرين أوروبيين في الوزارة المصرية ، إلى تغلغل نفوذ الأجانب عامة في مرافق البلاد ، فهذه الأحداث الجسام قد تصدع لها صرح الاستقلال الذي نالته مصر بجهودها وتضحياتها العظيمة من عهد محمد على .

• • •

أثارت هذه الكوارث سخط الأحرار من ذوى الرأي والمكانة في البلاد ، فظهرت في صفوفهم حركة وطنية تردد صداها في الصحف وفي مجلس شورى النواب . وانجذبت غايتها إلى إنقاذ مصر من التدخل الأجنبي ، وتقرير النظام الدستوري أساساً للحكم فيها ، وتبادل زعماؤها الرأي في اجتماعات عقدوها بدار السيد على البكرى ومنتزل إسماعيل راغب باشا ، واجتمعت كلمتهم في (الجمعية الوطنية) على المطالبة بتأليف وزارة وطنية خالصة للمصريين ، خالية من الوزراء الأوروبيين ، وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب ، فاستجاب الخديو إسماعيل لمطالب الأحرار ، وعهد إلى شريف باشا الوزير المشهور تأليف الوزارة الوطنية ، على أن تكون خالية من العنصر الأوروبى مسئولة أمام مجلس الأمة (وثيقة ٧ أبريل سنة ١٨٧٩) . فألف شريف باشا الوزارة على هذا الأساس . فكانت أول وزارة مسئولة أجنبية الحركة الوطنية في تاريخ مصر الحديث ، وكان من أعظم أعمالها وأجلها أنها وضعت دستوراً على أحدث المبادئ العصرية وقدمته إلى مجلس شورى النواب لينال إقراره ، ونحلت ذلك المجلس سلطةً جمعية تأسيسية ، تملك حق إقرار الدستور وتعديله . على أن الدول الاستعمارية لم تنظر بعين الرضا إلى ظهور هذه الحركة واطرادها واشتداد

ساعدها ، يجمع كلمة الأمة حولها ، ومناصرة الحاديوها ، فسعت لإحيائها وبدأت مؤازرتها بالاعتراض على أول مشروع مالى للوزارة الوطنية ، ثم عملت على أن تخلع الحاديو ، وكانت تركيا من الضعف وسوء النية نحو مصر بحيث أجابت طلب الدول ، وأعلنت خلع إسماعيل وإسناد منصب الحاديوية إلى توفيق باشا (بوييه سنة ١٨٧٨) .

ثم استمرت المصادمة بين الحركة القومية والمطامع الأوروبية ، إلى أن بلغت طوراً جديداً ، هو المعروف بالثورة العربية ، فالثورة من هذه الناحية تعدد فهد للتدخل الأجنبي الذى وقع فى عهد إسماعيل ، فالثورة الأساسية من فى جوهرها المطالب التى اجتمعت عليها كلمة الأحرار فى (الجمعية الوطنية) ، والدستور الذى تمخضت عنه الثورة سنة ١٨٨٢ ، مقبوس من دستور سنة ١٨٧٩ .

• • •

قالى عهد إسماعيل ترجع إذن مقدمات الثورة العربية ، وهى تطور للحركة الوطنية التى ظهرت فى ذلك العهد ، وعندى أن هذه الحركة كانت أسلم عاقبة وأدعى إلى الإعجاب والتقدير من الثورة العربية ، ذلك أن الحركة الأولى كان قولها نهضة الأفكار والآراء ، ووضوح العقول والقرائع ، وتبادل الرأى والمشورة ، على حين جاءت الحركة العربية وقوامها الاعتداد بقوة الجيش وحسب ، فضاءل العامل الفكرى والمعنى . فى طورها الأخير ، وختقت صوت الحكمة والتعقل ، إلى جانب صوت السيف المتع . ومن ثم تنكبت الحركة سبيل الرشاد ، وركبت من الشطط ، وانفضح المجال للدسائس الأجنبية تنصب أشرافها ، والمطامع الاستعمارية تدبر مكابدها ، حتى إنتهت الثورة بالخلال الانجليزية الذى ما زلنا نعاينه إلى اليوم (سنة ١٩٣٢) .

فليان التطورات التى تعاقبت على البلاد فى عهد خلفاه محمد على إلى إنتهاء عصر إسماعيل ، قد خصصت هذا الكتاب ، جاعلا وجهتى السرى إلى استخلاص الحقائق والمغطات ، من الجواهر وملايها . لتعرف الحاضر على ضبو الماضى . ونصل الأسباب بحسبها ، والنتائج بمقدماها . عسى أن يكون لنا فى ذلك ما نسترشده فى حياتنا القومية ، أو نستظهر به على ما نحن بسبيله من جهاد فى سبيل الوطن .

أسأل الله أن يعصنا من الزلل ، ويلهنا السداد فى القول والعمل ، ويوفقنا إلى ما فيه محقق الأمل ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

للدكرى

اليوم ختام العام الخامس لوفاء قبيد الوطن المحروم أمين بك الراضى .

اليوم يطوى الزمان خمسين سنوات على احتجاجك عنا يا أمين ! وذكراك باقية فى النفوس مائلة فى الأذهان . يجدها مر اللبالي وكر الأعوام .

قالى روحك الطاهرة الثابوية فى دار الأبدية ، أمث بتحيات الدكرى ، يرسلها القلب وتفيض بها الشاعر ، ويحملها الرجاء إلى عالم الأرواح .

وإلى بارى تلك النفس الكريمة ، أتوجه بالدعاء ، أن يسبح عليها آية السكينة والطمانية ، فيأنفس أمين ! ، اسكنى إلى جوار ربك راضية مرضية ، ويا روح أمين !

سلام ، وريحان ، وحنة ونعم ،

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٢

عبد الرحمن الراضى

الفصل الأول

الرجعية في عهد عباس باشا الأول

(١٨٤٨ - ١٨٥٤)

يصح اعتبار عصر عباس باشا الأول عهد رجعية ، ففيه وقفت حركة التقدم والنهضة التي ظهرت في عهد محمد علي .

ولى عباس حلمي الحكم بعد وفاة إبراهيم ، وفي حياة محمد علي باشا ، وهو ابن طوسون بن محمد علي ، لم يرث عن جده مواهبه وعبقريته ، ولم يشبه عمه إبراهيم في عظمته وبطولته ، بل كان قبل ولايته الحكم وبعد أن تولاه خلواً من المزايا والصفات التي تجعل منه ملكاً عظيماً يضطلع بأعباء الحكم ويسلك بالبلاد سبيل التقدم والنهضة .

نشأة عباس

بذل محمد علي شيئاً من العناية في توحيد عباس ولاية الحكم إذ كان أكبر أفراد الأسرة العلوية سناً ، وبالتالي أحقهم بولاية الحكم بعد إبراهيم باشا ، فعهد إليه بالمناصب الإدارية والحربية . فتقلد من المناصب الإدارية منصب مدير الغربية . ثم منصب الكنتخداية التي كانت بمنزلة رأسه النظار . ولم يكن في إدارته مثالا للحاكم البار ، بل كان له من التصرفات ما يتم عن القسوة ، وكان يبلغ جده نبأ بعض هذه التصرفات ، فينهاه عنها ، ويحذره من عواقبها . ولكن طبيعته كانت تغلب على نصائح جده وأوامره .

وأما من الوجهة الحربية فقد اشترك مع إبراهيم باشا في الحرب السورية ، وقاد فيها أحد الفيالق ، ولكنه لم يتميز فيها بعمل يدل على البطولة أو الكفاءة الممتازة . وبالجملة فلم تكن له ميزة تلفت النظر ، سوى أنه حفيد رجل عظيم أسس ملكاً كبيراً . فصار إليه هذا الملك . دون أن تؤول إليه مواهب مؤسسة ، فكان شأنه شأن الوارث

لتركة ضخمة جمعها مورثه بكفائه وحسن تدبيره وتركها لمن هو خلو من المواهب والمزايا . وكان إبراهيم باشا لا يرضيه من عباس سلوكه وميله إلى القسوة وكثيراً ما تقم عليه ترعته إلى إرهاب الأهلين ، حتى اضطره إلى الهجرة للحجاز ، وبقي هناك إلى أن داهم الموت عمه العظم .

ولايته الحكم

كان عباس باشا متغياً بالحجاز لما عاجلت المنية إبراهيم باشا ، فاستدعى إلى مصر ليخلفه على دست الأحكام تنفيذاً لنظام التوارث القديم الذي يجعل ولاية الحكم للأرشد للأرشد من نسل محمد علي ، وتولى الحكم في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ (٢٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ) .

أخلاقه

بقي عباس في الحكم خمس سنوات ونصفاً ، كان يبدو في خلالها غريب الأطوار ، شاذاً في حياته ، كثير التطير ، فيه ميل إلى القسوة ، سوء الظن بالناس ، ولهذا كان كثيراً ما يأوى إلى العزلة ، ويحتجب بين جدران قصوره . وكان يتخير لبنائها الجهات الموعلة في الصحراء ، أو البعيدة عن الإنس ، قريبا على سراى الخرقةش ، وسراى الحلمية بالقاهرة ، قد بنى قصرأ فخماً بالعباسية (التي سميت من ذلك الحين باسمه) ، وكانت إذ ذاك في جوف الصحراء . وقد شاهد المسيو فردينان دلسبس هذا القصر سنة ١٨٥٥ ، فراعته ضخامته ، وذكر أن نوافذه بلغت ٢٠٠٠ نافذة ، وهذا وحده يعطينا فكرة عن عظم القصر واتساعه ، فكانه بنى لنفسه مدينة في الصحراء ، وبنى قصرأ آخر نائياً في الدار البيضاء ، الواقعة بالجبل على طريق السويس المقفر ، ولا تزال آثاره باقية إلى اليوم ، وقصرأ بالعطف (ذكره على باشا مبارك في الخطط ج ٧ ص ٦٣) . وقصرأ في بنها على ضفاف النيل ، بعيداً عن المدينة . وهو الذي قتل فيه كما سيحيى بيانه .

وقد أساء الظن بأفراد أسرته ، وبكثير من رجالات محمد علي وإبراهيم ، وخيل له الوهم

أنهم يأتمرون به ، فأساء معاملتهم ، وخشى الكثير منهم على حياتهم ، فرحل بعضهم إلى الأستانة ، والبعض إلى أوروبا . خوفاً من بطشه ، واشتد العداة بين الفريقين طول مدة حكمه ، وبلغ به حقداه على من يستهدفون لغضبه أنه حاول قتل عمته الأميرة نازلى هانم ، واشتدت العداوة بينهما حتى هاجرت إلى الأستانة خوفاً من بطشه .

وسعى في أن يغير نظام وراثة العرش ليجعل ابنه إلهامى باشا خليفته في الحكم ، بدلا من سعيد باشا ، ولكنه لم يفلح في مسعاه ، ونقم على سعيد الذي كان يحكم سنه ولى العهد . واتهمه بالتآمر عليه ، واشتدت بينهما العداوة حتى اضطره أن يلزم الاسكندرية ، وأقام هناك بسرابه (بالقبارى) .

وانشرت الجاسوسية في عهده انتشاراً مخيفاً ، فصار الرجل لا يأمن على نفسه من صاحبه وصديقه ، ومن بغضب عليه ينفيه إلى السودان ويصادر أملاكه . وكان نفي المغضوب عليهم إلى أقاصى السودان من الأمور المألوفة في ذلك العصر .

وكان عباس مولعا بركوب الخيل والهجن ، يقطع بها المسافات البعيدة في الصحراء ، وله ولع شديد باقتناء الجياد الكريمة ، يجلها من مختلف البلاد ، ويعنى بتربيتها عناية كبرى ، ويبني لها الاصطبلات الضخمة ، وينفق عليها بسخاء ، شأن هواة الخيل .

أعماله

سياسته العامة

يختلف عهد عباس عن عصر محمد علي ، فإن حركة النهضة والتقدم والنشاط التي امتاز بها هذا العصر قد تراجعت كما قلنا في عهد عباس ، وهناك ظاهرة أخرى للفرق بين العهدين ؛ ذلك أن محمد علي كان يستعين بذوى العلم والخبرة من الفرنسيين في معظم مشاريع الإصلاح ، لكن « عباس » لكونه لم يفكر في تعهد هذه الإصلاحات أقصى معظم هؤلاء الخبراء واستغنى عنهم ، وقد تضاعف النفوذ الفرنسي في عهده ، ولم يعد إلى الظهور إلا في عهد سعيد باشا ، ومن هنا تعرف سببا لتحامل كثير من المؤرخين والمؤلفين الفرنسيين على عباس ، فإنه وإن كانت أعماله لا تدعو إلى الإطراء ، لكننا نعتقد أن أحكام الفرنسيين عليه لا تخلو من التحامل ، لتأثرهم من تضاؤل النفوذ الفرنسي في عهده ، والفرنسيون لما اتصفوا به من الوطنية

يكرهون كل ملك أو أمير يفترون عهده بتضاؤل النفوذ الفرنسي في بلاده ، من أجل ذلك تراهم يكيون المدح جزافاً لسعيد باشا . ونعتقد أن هذا راجح إلى مبوله الفرنسية وعودة النفوذ الفرنسي إلى مصر في عهده . على يد المسيو فردينان دلسيس وأمثاله ممن اتخذهم سعيد بطائفة وأولياءه .

فعباس إذن قد أقصى عنه الخبراء من كبار رجال الموظفين فرنسيين ، فلم يعد لهم نفوذ لديه . بل لم يكن يعاملهم معاملة عطف واحترام ، واستغنى عن خدمة بعضهم . وعلى العكس ، بدأ النفوذ الإنجليزي في عهده على يد المستر (مري) القنصل البريطاني في مصر وقتئذ ، فقد كان له عليه تأثير كبير ، وله عنده كلمة مسموعة .

ولا يعرف السبب الحقيقي لهذه المترلة ، سوى أنها نتيجة المصادقة ، فإن الملوك والأمراء المستبدين ليس لهم قاعدة مستقرة ، ولا تصدر أعمالهم عن برنامج أو تفكير ، بل يتبعون الهوى في كثير من أعمالهم ، وقد يكون لكفاءة المستر مري دخل فيما ناله عند عباس من النفوذ ، وقيل إنه كان يستعين به في السعى لدى حكومة الاستانة بوساطة سفير إنكلترا لتغيير نظام وراثة العرش ، كى يؤول إلى ابنه إلهامى ، وفي رواية أخرى إنه كان يستعين به وبالحكومة الإنجليزية لينع تدخل حكومة الاستانة في شئون مصر إذ كانت تبغى تطبيق القانون الأساسى المعروف بالتنظيات على مصر .

إصلاح الطريق بين القاهرة والسويس

ومها يكن من السبب فالمستر مري كان له أثر ظاهر في انجاة أفكار عباس ، وبشبه هذا النفوذ من أن أول أعماله بعد ولايته الحكم هو إصلاح طريق القاهرة إلى السويس ووصفه بالحجارة ، فجعله معبداً ، تسير فيه العربات بسهولة ، فهذه الفكرة وإن كانت في ذاتها فكرة عمرانية مديدة إلا أن الموعز بها هو المستر مري ، وغرضه منها تسهيل سبيل المواصلات البرية إلى الهند عن طريق مصر ، وسرعة نقل البريد البريطانى والسياح بين الهند وإنجلترا . وكانت السياسة الإنجليزية ترمى إلى تعبيد طرق المواصلات بين إنجلترا والهند في مصر بواسطة إنشاء سكة حديدية . تصل الإسكندرية بالقاهرة . ومنها إلى السويس ، وكانت تعارض في أن تنشأ بمصر طريق بحرية للمواصلات ، ولذلك عارضت في شق القناة البحرية



عباس باشا الأول ولى مصر
من سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٤

في برزخ السويس ، وجذبت مد السكة الحديدية بين الإسكندرية والسويس ، وحينها أن شق القناة يسهل على الدول البحرية المنافسة لها في الاستعمار طريق الوصول بسفنها الحربية إلى البحر الأحمر ، ثم إلى الهند ، فيتعرض سلطانها هناك للخطر ، أما فرنسا فكانت على العكس تحب فتح القناة ، وتعارض في مشروع السكة الحديدية ، لأنه مشروع انجليزي .

السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة

ولقد فازت السياسة الانجليزية بضم عباس إلى وجهة نظرها ، فتم على يده إصلاح طريق السويس . ثم شرع في مد السكة الحديدية من الإسكندرية إلى القاهرة سنة ١٨٥٢ ، وعهد بتخطيط العمل إلى المهندس الانجليزي الشهير بويرت ستفنسن Stephenson . يعاونه مهندسون مصريون . لكل المهندسين المصريين هم الذين تم على أيديهم إنشاء الخط كما يقول المسيو مريو^(١) Meruau . ومنهم من صار لهم فيما بعد شأن كبير وتقلدوا كبرى المناصب ، مثل سلامة باشا إبراهيم ، وثاقب باشا . ومظهر باشا . وبهجت باشا ، واستخدم عباس في تعبيد الطريق وتركيب القضبان الخنود والبحارة المصريين ، وانشئ من سكة الحديد في عهده الخط الموصل بين الإسكندرية وكفر الزيات (سنة ١٨٥٤) ، وتم الخط بأكمله في عهد سعيد ، وبش المسيو فردينان دلسيس من نجاح مشروع شق القناة ، ولم يعاوده الأمل إلا بعد أن تولى سعيد باشا الحكم كما سيحيى بيانه .

وإذا نحن صرفنا النظر عن التراحم السياسي بين إنجلترا وفرنسا ، فما لاشك فيه ، من وجهة النظر المصرية ، أن مشروع السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة وبين هذه والسويس أنفع للبلاد ، وأبعد عن الضرر من مشروع القناة . فإن مصر لم تستفد شيئا من فتح قناة السويس ، بل كانت القناة شؤما عليها كما ستفصله في موضعه ، ولأن السكة الحديدية قد نهضت بعمران البلاد التي مرت بها ، بخلاف القناة .

فإصلاح طريق السويس ، والشروع في مد السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة ، هما من أول ما فكر فيه عباس ، وهما من المشاريع الجليلة ، ولعل هذا العمل الوحيد الإنشائي

(١) في كتابه (مصر الحديثة) ص ١٠٢ ، والمسيو مريو معاصر لعباس وسعيد وإسماعيل .

الذي يذكر لعباس ، لأنه لا يخفى أن السكك الحديدية هي من أعظم دعائم العمران والتقدم ، وكانت هذه السكة أول خط حديدي أنشئ في مصر ، بل في الشرق قاطبة ، فمصر قد سبقت دول الشرق في أعمال العمران ، ولا يخفى أن تركيا وهي أقوى دول الشرق وقتئذ تأخرت عن مصر في مد السكك الحديدية واستخدام لقطارات البخارية ، وإنك لتلمح تقدم مصر وسبقها تركيا في ميادين العمران حينما زار السلطان عبد العزيز مصر سنة ١٨٦٣ ، فانه ركب القطار من الاسكندرية إلى القاهرة تملكه اعجب : لأنه لم يكن رأى القطار البخارية في حياته من قبل^(٢) .

ضبط الأمن

وعنى عباس باستتباب الأمن ، فضرب على أيدي الأشقياء وقطاع الطرق ، وطاردهم وعاملهم بالقسوة ، فخشوا بأسه ، وانقطع دابرهم ، وأمن الناس شرورهم ، فاستتب الأمن في عهده ، وهذا من خير أعماله .

المدارس والمصانع

أما المدارس ، فقد ساءت حالتها في عهده . فألغى معظمها (بعد الذي عطل منها في أواخر عهد محمد علي) ، واقتلت أبوابها . بين عالية وثانوية وابتدائية ، ولم يبق منها إلا الترتيب اليسير ، وكأنما كان عباس يكره العلم والتعليم . فإنه لم يكتف بإغلاق معظم المدارس ، بل أنفذ إلى السودان طائفة من كبار علماء مصر في ذلك العهد : مثال رفاعة بك رافع . ومحمد بيومي أفندي ، ودقلة أفندي ، بحجة إنشاء مدرسة ابتدائية بالخرطوم ؛ والسبب الحقيقي هو إعادتهم ونفيهم من مصر . وقد ساءت حالتهم كما بينا ذلك تفصيلا في ترجمة رفاعة بك رافع^(٣) ، ومات منهم هناك محمد بيومي كبير أساتذة الهندسة والرياضيات في مدرسة المهندسخانة .

(٢) انظر كتاب ، « سياحة السلطان عبد العزيز من الآستانة إلى القاهرة » للمسيو جاردى ص ٤٩ و ٥٣ و ٦٠ .

(٣) راجع كتابنا « عصر محمد علي » ص ٤٨٨ (من الطبعة الأولى) .

وانتقى من تلاميذ المدارس التي ألقاها عدداً منهم أدخلهم مدرسة أنشأها ١٨٤٩ . ودعاها لمفروزة . إشارة إلى أنه أفرز تلاميذها من بين طلبة المدارس ، وكانت هذه المدرسة بمثابة مدرسة تجهيزية بحرية .
وأقل ما بقى من المعامل والمصانع التي أنشأها جده بحجة الاقتصاد في النفقات .

البعثات

وأرسل إلى أوروبا ١٩ طالباً من تلاميذ المدارس المصرية لإتمام دروسهم بالمدارس الأوروبية ، على أنه استدعى معظم أعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلم في فرنسا منذ عهد محمد علي .

السودان

لم يعن عباس بالسودان عناية جده به ، ولم يفكر يوماً في زيارة ذلك الإقليم العظيم الذي يعد الجزء المكمل لمصر ، ليشهد بنفسه شئون البلاد وأهلها ، ويتعرف أحوالها كما فعل محمد علي الذي لم تمنعه شيخوخته ومشاغله العديدة من أن يجوب السودان باحثاً مستطلعاً .

الجيش والبحرية

أنفذ عباس بعض الإصلاحات الحربية التي فكر فيها إبراهيم باشا قبل وفاته ، كتجديد الإستحكامات . وإنشاء الطرق الحربية ، وفيما عدا ذلك فإن الجيش في الجملة لم يكن موضع عنايته ، وقد تسرب إلى إدارته الخلل وسوء النظام . بعد أن كان مضرب الأمثال في النظام والكفاية على عهد محمد علي ، وزاد في اضمحلاله أنه أدمج فيه نحو ستا آلاف من الأرناؤود ، جعلهم خاصة جنده ، وسلحهم بالمسلسات ، فكانت لهم في عهده الصولة والسطوة ، وسمحوا بأنوفهم على المصريين ، جنوداً وأفراداً ، وجرده عباس الأهلين من السلاح ، وحظر عليهم حمله ، فعانت الإرناءود في الأرض قسداً . بما اشتهر عنهم من الظلم

والعسف والإرهاق ، وبنى هؤلاء الاصلاحات قوام الجيش في عهده . وظل سليمان باشا الفرنسي القائد لعام للجيش المصري ، ولكن يده غلت عن النهوض به وإصلاح شؤونه .

وساءت حالة البحرية بعد أن كانت زاهرة ، وأخذت في الاضمحلال . ويرجع ذلك إلى إهمال عباس أعمال العمران عامة . ثم إلى سبب خاص ، وهو كراهيته لعنه سعيد باشا ومعلوم أن سعيد كانت نشأته في البحرية . وكان قائداً عاماً للأسطول في عهد محمد علي ، فلما تولى عباس الحكم حقد على البحرية جملة واحدة ، لحقده على سعيد باشا . فأهمل شأنها ، وتعطلت أعمال الترسانة ، ووقف إصلاح السفن ، فسرى إليها العطب والتلف .

إشتراك مصر في حرب القرم

بقى الجيش المصري رغم ما أصابه من الخلل قوة لا يستهان بها ، وظهرت بسالته في حرب القرم ، وهي الحرب الوحيدة التي خاضت مصر غمارها في عهد عباس . شبت نار القتال بين تركيا والروسيا سنة ١٨٥٣ ، فطلب السلطان عبد المجيد إلى عباس باشا أن يمدد بالجنود والأساطيل . فلبى عباس طلبه ، وكانت دار الصناعة (الترسانة) في ذلك الحين معطلة كما قدمنا ، فعاد إليها النشاط العمل ، واستدعى إليها العمال الذين كانوا مصروفين عنها ، وجهاز الأسطول المصري . وعهد بقيادته إلى الأميرال حسن باشا الاسكندراني ، أحد خريجي البعثات في عهد محمد علي^(٤) .

وأعد حملة مؤلفة في بدء الحرب من نحو ٢٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة سليم باشا فتحنى أحد القواد الذين حاربوا تحت نواء إبراهيم باشا في حروب سوريا والأناضول ، فأقلعت الحملة على ظهر العارة المصرية ووصلت إلى الاستانة ، ومضت إلى ميدان القتال على نهر الدانوب ، وربط معظم الجيش المصري في (ساستريا) وكان الروس يهاجمونها ، فأبلى المصريون بلاء حسناً في المدافعة عنها . وأقاموا بها حصناً عرف بطابية العرب . كان له فضل كبير في الدفاع . فاستطاع الجيش المصري أن يكسر هجمات الروس سنة ١٨٥٤ ، واستمرت الحرب إلى عهد

(٤) ترجمنا له في الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد علي ص ٥٣١ من الطبعة الأولى) .

سعيد باشا كما سيجيء بيانه .

وقد ساهم الأسطول المصرى فى الحرب البحرية ، فسار قسم منه إلى شواطئ الأناضول الشمالية بالبحر الأسود ، ولكن السفن الروسية أوقعت به ، واشتركت بقية السفن فى نقل القوات الحربية إلى ثغور البحر الأسود ، وبقيت تودى واجبا إلى انتهاء الحملة .

مقتل عباس

اتفقت الروايات على أن عباس مات مقتولا فى قصره بينها ، وهذا أمر مقطوع بصحته ، ولكن الخلاف فى رواية مقتله ، وليس عجيبا أن يختلف الرواة فى ذلك ، فإن قتل عباس كان نتيجة مؤامرة من مؤامرات القصور ، وهذه المؤامرات لا يسهل اكتساب حقيقتها ، أو الاتفاق على روايتها ، لما يكتنفها من الأسرار ، ولأنها تقع فى جنح الظلام ، بعيدة عن الأنظار ، فلا يعرف الناس عنها إلا ما تناقله الألسنة بعد وقوعها ، ومن هنا ينشأ الاختلاف فى الرواية ، ولدينا عن مقتل عباس روايتان ، إحداهما ذكرها إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٦٥) والأخرى ذكرتها مدام أولمب ادوار كما سمعتها بمصر فى أوائل عهد إسماعيل ودونتها فى كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر ص ١٤٣) .

ويؤخذ من رواية إسماعيل باشا سرهنك ، أن (عباس) كانت له حاشية من المالك يقرهم إليه ويصطفهم ، ويتخذ منهم خواص خدمه ، ولم عنده من المنزل ما جعله يقدق عليهم الرتب العسكرية العالية ، على غير كفاءة يستحقونها ، حتى حاز أكثرهم رتبة قائمقام وكان لهم كبير من خاصة غلامه ، يسمى خليل درويش بك ، وعرف فيما بعد بحسين بك الصغير ، وقد أساء هذا الرئيس معاملة أولئك المالك ، فاستظالوا عليه بالتمز واللمز ، وخاصة لأنه كان صغير السن . فاتخذوا من حدائمه مغز الأقاويل . فسخط عليهم ، وشكاهم إلى مولاه ، فأمر بجلدهم ، فجلدوا ، وجرودوا من ثيابهم العسكرية . وألبسهم خشن اللباس . وأرسلهم إلى الإصطبلات لخدمة الخيل . فعز ذلك على « مصطفى باشا » أمين خزنة عباس ، لأنهم كانوا من أتباعه المقربين إليه . فعزى جهده لدى سيده ليعفو عنهم . فلم يبل يادى الأمر بغيته ، فلما ذهب عباس باشا إلى قصره بينها يصحبه أحمد باشا يكن وإبراهيم باشا الألقى محافظ العاصمة ، رجما مصطفى باشا أن يطلب العفو عنهم ، فطلب ذلك إلى عباس . فأجاب

لمتسهما . وأصدر أمرا بالعفو عنهم . وردهم إلى مناصبهم . فجهوا إلى بنها ليرفعوا واجب الشكر للأمير . ولكنهم أضرموا الفتك به انتقاما لما أوقع بهم . فالتصروا به مع غلامين من خدمة سراى . يدعى أحدهما عمر وصنى والآخر شاكر حسين . واتفق الجميع على قتله . وكان من عادة عباس عند نومه أن يقوم على حراسته غلامان من مماليكه . فى ليلة ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يولييه سنة ١٨٥٤ م) كان الغلامان المذكوران يتوليان حراسته ، فجاء المؤتمرون فى غسق الليل على اتفاق معها . وفتحوا الباب ، فدخلوا غرفة الأمير . وهو نائم ، ولما أرادوا الفتك به استيقظ وحاول النجاة ، فصدده عمر وصنى ، وتكاثرت عليه المؤتمرون ، وقتلوه . ثم أوعزوا إلى الغلامين بالهرب فهربا ، وكتم المتآمرون الخبر إلى اليوم التالى ولما لم يستيقظ الأمير فى موعده دخل عليه أحمد باشا يكن وإبراهيم باشا الألقى فوجداه مقتولا ، فذعرا هذه الفاجعة ، واتفقا على إخفاء الخبر حتى نقل الأمير القتيل إلى القاهرة فى عربة ، ووصلا به إلى قصره بالحلمية ، وهناك ذاع خبر قتله .

وأراد جماعة من أنصار عباس . وعلى رأسهم إبراهيم باشا الألقى أن يجعلوا الحكم من بعده لنجله إبراهيم الهامى باشا الذى كان وقتئذ بأوروبا . فاتفقوا على استدعائه ليولوه الحكم ، ويمنعوا عنه عمه سعيد باشا أكبر أنجال محمد على وأحق الأمراء بالولاية طبقا للنظام القديم . وكان سعيد باشا وقتئذ بالإسكندرية ، يقم بسرايه بالقبارى . فكتبوا سرا إلى محافظ الإسكندرية إسماعيل سليم باشا . وأبلغوه بما اتفقوا عليه . وطلبوا إليه القيام على الثغر حتى يحضر إهامى باشا . فلما تلا الرسالة لم يشاطرهم رأيهم . لعلمه أن الحكم من حق سعيد باشا ، فقصد إليه من فوره . وأنهى إليه فحوى الرسالة . فشكره سعيد باشا على إخلاصه . وذهب صحبته إلى سراى رأس التين . وأعلن اعتلاءه العرش . وأجريت حفلة الجلوس . وأطلقوا المدافع . ثم سافر سعيد باشا إلى القاهرة يصحبه أمراء الأسرة الحاكمة الذين كانوا مبتعدين عن العاصمة لما بينهم وبين عباس من العداة والنفور ، فلما وصلوا إلى القاهرة ذهب سعيد إلى القلعة وتولى زمام الحكم .

تلك خلاصة رواية إسماعيل باشا سرهنك .

أما رواية مدام أولمب ادوار فخلاصتها ، أن الأميرة نازلى هانم عمه عباس هى التى اتمرت به وهى فى الاستانة ، وأنقذت مملوكين من أتباعها لقتله ، واتفقت وإياهما ، على أن يعرضا أنفسهما فى سوق الرقيق بالقاهرة ، كى يشترىها عباس ويدخلها فى خدمته . وكان

سلكوا على جانب من الجمال . مما يرغب وكيل الأمير في شرائها ، فجاء القاهرة فعلا .
 ونزلا سوق ترقيق . إلى أن رأهما يوما وكيل الأمير ، فراقه جالها ، فاشترهما وأدخلها سراى
 مولاه بيها . فأعجب بهما عباس . وعهد إليهما بحراسته ليلاً ، قالت مادام ألومب دوار ، فلما
 كانت الليلة الأولى لم يجرؤ المملوكان على ارتكاب القتل ، لأنها خشيا بأس عباس ، إذ كان
 قوى البنية . شديد البطش ، وخافا أن يقاومها وينجو من فتكها ، فينكل بهما شر تنكيل .
 ويرردهما موارد الهلاك المحتوم ، فانقضت الليلة الأولى بسلام ، ومرت أيام عدة وهما
 يستجمعان قوتها لإنفاذ القتل عند ستوح الفرصة . حتى جاءتها النوبة ثانية لحراسة مولاها ،
 فاعترا أن يكونا أكثر شجاعة من قبل ، فلم يكذب يستغرق عباس في النوم حتى انقضا عليه
 وقتلاه ، ولم يدعاه الوقت ليصبح أو يقاوم ، ولما أرتكبا الجريمة نزلا اصطبلات الخيل الملحقة
 بالسراى ، وطلبا إلى السائس أن يجهز لهما فوراً جوادين بحجة أن الباشا يطلب حاجة له من
 قصره بالعباسية ، فلم يشك الخادم في الأمر ، وجهز لهما الجوادين فسارا بها عدواً إلى القاهرة ؛
 ومن هناك فرا إلى الاستانة ، حيث نقدتها الأميرة نازلي مكافأة سخية على إنفاذ المؤامرة .
 وتقول مدام أولب أدوار إن إلهامى باشا تعقب المملوكين القاتلين ليثأر لأبيه ، فالتقى
 بأحدهما في الاستانة ، فقتله رمياً برصاص مسدسه ، ولم يستطع اللحاق بالثاني ولم يعثر له على
 مكان ، وقيل أنه أوى إلى بلاد الأرتاءود فراراً من القتل^(٥) .
 فالروايتان ، مع اختلافهما في بيان المحرضين على القتل وطريقة ارتكاب الجريمة متفقتان كما
 ترى في أن عباس مات مقتولاً إثر مؤامرة دبرت لقتله وأنفذت في قصره بيها .

ميزة عباس

كان عهد عباس كما ترى خلوا من أعمال النهضة وال عمران ، اللهم ما كان من إنشاء سكة
 الحديد بين القاهرة والإسكندرية ، وإصلاح سكة السويس الحجرية .
 على أن لعباس ميزة يجب أن يذكرها له التاريخ ، وهي أنه لم يفتح على مصر أبواب
 التدخل الأجنبي ، فلم يمكن للأجانب في البلاد ، ولم يمد يده إلى الاستدانة منهم ، بل ترك

(٥) كشف الستار عن أسرار مصر لمدام أولب ادوار .

خزانة مصر حرة من أنقال الدين الأجنبي التي كبلها بها خلفاؤه من بعده . وكان يجتهد دائماً
 في سد عجز الميزانية . دون أن يلجأ إلى القروض ، ولم يكن يميل إلى منح لأوروبيين امتيازات
 باستثمار مرافق البلاد . فهذه ميزة يجب أن تذكر له بالخير . ويمتاز (من هذه الناحية) على
 سعيد وإسماعيل . فخطأ سعيد باشا أنه منح المسيو فردينان دلسيس امتياز حفره قناة
 السويس ، وافتتح عهد الاقتراض من الخارج ، وخطأ إسماعيل أنه كبل مصر بالديون الجسيمة
 التي اقترضها من البيوت الأوروبية .

• • •

الفصل الثاني

النهضة الوطنية في عهد سعيد باشا

(١٨٥٤ - ١٨٦٣)

من النهضات الوطنية ما يصدر عن الشعب وزعمائه ؛ ومنها ما يكون مصدره الملوك والحكام ، ويمتاز عصر سعيد باشا بظهور نهضة وطنية جديدة بأن تعد دورا من أدوار الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث .

وترجع هذه النهضة إلى ميول سعيد باشا ذاته ؛ فقد كان ذا نزعة وطنية ممدوحة ، نشأت فيه قبل أن يتولى الحكم ؛ ولازمته بعد أن تولاه ، وظهرت آثارها في كثير من إصلاحاته وأعماله ، وقوام هذه النزعة أنه كان يميل بيجوارحه إلى خير المصريين ورفاهيتهم ويعمل على تحريرهم من نير المظالم التي أصابتهم ؛ ويخفف عنهم عبء الضرائب التي ينوءون بها ؛ ويثب فيهم روح الوطنية . ويشجعهم على تقلد المناصب العالية في الجيش والإدارة بعد أن كانت من قبل وفقاً على الترك والشراكسة .

نشأته

هو ابن محمد على الكبير . ولد سنة ١٨٢٢ ؛ ونشأ في حجر أبيه . محوطاً بعطفه ورعايته . وكان أبوه يعزه ويعنى بتربيته وتثقيفه ، وتنشئه النشأة الحسنة . واختار له السلك البحري فدرسه على فنون البحرية وجعل شأنه شأن تلاميذها . ولعل هذه النشأة مما حجب إلى نفسه مبادئ الديمقراطية . فقد كان أثناء دراسته ومرانه زميلاً لطائفة من التلاميذ . ممن خصصهم أبوه لدراسة الفنون البحرية . يعيش عيشهم . ويسير على نهجهم . وينظر إليهم كما ينظر الطالب إلى أقرانه وأصدقائه . ولما أتم دراسته انتظم في خدمة الاسطول قومنناً لإحدى البوارج التي كانت ترفع علم مصر فوق ظهر البحار . واعتاد النظام الذي هو أساس الحياة العسكرية . فكان

جده . ذممه ويتساوى في ذلك وزملاؤه ضباط الاسطول ، وما يذكر عنه أنه لما نال حظاً من حرية بحرية . وكان وقتئذ « سعيد بك » جعله أبوه معاوناً لمطوش باشا ناظر البحرية وقتئذ . لاسطول . وأصدر أمره إليه بأن يمثل لأوامره ، ويؤدى إليه التعظيم العسكري . وصف كونه رئيساً له ، وكان ذلك من سداد رأى محمد على ، إذ عود ابنه ، إحترام النظام . وارتقى سعيد في المراتب البحرية حتى وصل في أواخر عهد أبيه إلى منصب « سر عسكر الدولة » أى القائد العام للأسطول .
فهذه النشأة كان لها أثرها في إيلافه المبادئ الديمقراطية ، مما جعله عندما تولى العرش يميل إلى المصريين ، ويعمل على ترقيةهم وتقديمهم ورفاهيتهم .

أخلاق سعيد

أهم الصفات البارزة في أخلاق سعيد ، طيبة قلبه . وسلامة قصده وكرمه ، وشجاعته وصراحته . وميله للخير . وتسامحه . وحبه للعدل . ونفوره من الظلم والإرهاب . ولكنه إلى جانب ذلك . كان ضعيف الإرادة كثير التردد ، لا يستقر على رأى واحد . ومن هنا جاءت تقلباته في الخطط والبرامج والأعمال . وانصياعه لآراء خلطائه من الأوروبيين . وسرعة تأثره بما يسمعه . ثم سرعة غضبه . ورجوعه عن غضبه لأوهى الأسباب . وكانت نقطة الضعف فيه إسرافه . والتجاءه إلى الاستدانة من البيوت المالية الأوروبية . وحسن ظنه بالأوروبيين . وشدة ركونه إليهم . وميوله الفرنسية التي جعلته يستمرس في الإصغاء لتأثيرات السيوفردينان دلسيس وأضرابه . وفي عهده أخذ الأجانب يسطون أيديهم على مرافق البلاد . ويستطيعون على سلطة الحكومة وسيادتها . ويشمخون بأنوفهم . وصار للقناصل نفوذ لم يكن لهم من قبل في عهد محمد على وإبراهيم وعباس .

إصلاحاته الزراعية واللائحة السعيدية

بذل سعيد باشا جهوداً موفقة لإصلاح حالة الفلاحين والرفية عنهم ، فحوّلهم من الملكية لعقارية للأراضي الزراعية . وسن لهذا الغرض قانونه المشهور باللائحة السعيدية الصادرة في

٥ أغسطس سنة ١٨٥٨ (٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٧٤ هـ)^(١) . وهي من أعظم إصلاحاته . لأنها أساس التشريع الخاص بملكية الأقطان في القصر المصرى ، وهي من آثاره الخالدة التي تذكر له بالخير ، لأن الملكية هي من الدعائم الأساسية للهيئة الاجتماعية . وكان الفلاح محروماً حتى التملك في عهد محمد على .

والغنى أيضاً نظام إحتكار المحاصيل الزراعية ، ذلك النظام الذي كان معمولاً به في عهد أبيه ، وأخذ في الاضمحلال في عهد عباس ، وصار للفلاح حرية التصرف في حاصلاته ، وحرية اختيار أنواع الزراعة التي يبتغيها .

وخفف عن الأهالي عبء الضرائب ، فقد كان عليهم متأخرات من السنين الماضية تجاوز عنها جملة واحدة ، ولم تكن هذه المتأخرات بالشىء اليسير ، قد بلغ مقدارها كما يقول المسيو مريو^(٢) ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، وهو مبلغ ضخم إذا قيس بثروة ذلك العصر ، فاستراح الفلاحون من أعباء المتأخرات القديمة التي كان عمال الجباية يرهقونهم للحصول عليها ، ويستولون على حاصلاتهم الزراعية ليستوفوا ما تأخر عليهم منها .

ورغب إلى الأهلين سداد الضريبة نقداً لا عيناً ، وهذا التعديل متفرع عن إلغاء نظام احتكار المحاصيل الزراعية ، فبعد أن كانت الحكومة تضع يدها على المحاصيل وتتصرف فيها وتحابس الفلاح على السعر الذي تقرره هي بمطلق إرادتها ، صار للفلاحين حق إمتلاك حاصلاتهم ، والتصرف فيها بالبيع بالسعر الذي يرتضونه ، وأداء الضريبة نقداً ، وبذلك نالوا حق الملكية العقارية وملكية المحاصيل ، وحرية التصرف فيها ، وحيابة ثمنها ، وصار للفلاح وجود اقتصادى مستقل عن الحكومة ، وبعد أن كان مستعبداً لها ، فكان هذا الإصلاح من أسباب نهضة الفلاح من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية .

واقترن تنفيذ هذا الإصلاح بمصاعب جمّة ، لأن الفلاحين لسبق استيلاء الحكومة كل سنة على حاصلاتهم ، لم يكن بأيديهم النقد الذي يستطيعون أن يؤدوا منه الضريبة بحسب النظام الجديد ، فقرر سعيد إمهالهم في الدفع ، حتى يتسنى لهم بيع حاصلاتهم الجديدة وأداء

(١) منشورة في القاموس العام للإدارة والقضاء للليب جلاذ ج ١ ص ١١٨ وكتاب الأقطان والقران لمرجس بك حين ص ٣٨٨ .

(٢) في كتابه (مصر الحديثة) ص ٦٤ .

الضريبة من ثمنها ، فشرع الفلاحون بالراحة والطمأنينة والرخاء وحسن المعاملة ، ووقف تيار الهجرة من القرى .

وقد ألقى أيضاً ضريبة الدخولية التي كانت تجب على الحاصلات والمتاجر بما تتبادله المدن والقرى في داخلية البلاد ، وهذه الضريبة مصدر إعانات وإرهاق للأهالي ، كما أنها عقبة تحول دون حرية التجارة الداخلية ، إذ كانت الحكومة تقتضي على المتاجر ١٢ في المائة من قيمتها عند دخولها أى مدينة أو قرية ، وهذا يؤدي إلى إرتفاع الأسعار واشتداد الغلاء ، ويضعف حركة المعاملات ، كما أن طريقة تحصيل هذه الضريبة تنطوي على نوع آخر من الإرهاق ، إذ كانت جبايتها موكولة إلى ملتزمين يبتزون الأهالي أكثر من قيمتها ، فألغواها فيه تخفيف عن الأهالي وتخفيفاً للتجارة الداخلية مما كان يعترضها من العقبات والعراقيل .

لائحة المعاشات

ومن أعماله الاجتماعية سنة لائحة المعاشات للموظفين المتقاعدين ، وهي الأساس الذي بني عليه نظام المعاشات المتبع في مصر لموظفي الحكومة .

أعمال العمران

تطهير ترعة المحمودية

عنى سعيد باشا بتطهير ترعة المحمودية ، ذلك أنها منذ إنشائها في عهد محمد علي لم تكن الحكومة بتطهيرها ، وانقضت عهد عباس دون أن يفكر في أمرها . فلما تولى سعيد كاد الطمى المتراكم على مدى السنين يطمرها ويفسد استعمالها ، فلا تعود صالحة لمروور السفن ، ولا تجرى فيها مياه الري بالمقادير التي يتطلبها العمران .

فاعتزم سعيد باشا أن يطهرها ، ويكاد تطهيرها في هذه الظروف يشبه أن يكون احتفاراً لها من جديد ، لأن الطمى كان قد سد قاعها ، وقد استشار المسيو مرجيل بك كبير المهندسين فيما يلزم من العمال والجهود لإجراء هذا العمل العظيم . فحسب مقدار ما يجب رفعه من الأتربة من قاعها ، فبلغ ثلاثة ملايين متر مكعب ، على طول التربة الذي يبلغ ثمانين كيلو متراً ، وقدر

أن العامل يرفع متراً ونصف متر في اليوم ، فالعمل يقتضى سبعة وستين ألف عامل ، وبذلك يتم تطهير التربة على أيديهم في ثلاثين يوماً .

فأصدر سعيد أمره إلى المديرية بإرسال هذا العدد من الفلاحين . ولم تكتف المديرية بإرسال العدد المطلوب ، بل ضاعفت المهمة ، وأرسلت ١١٥ ألف عامل ، فوزع هذا العدد على طول التربة ، ووزعت عليهم القفوس ، بمعدل فأس لكل خمسة من العمال ، واحد منهم يخفر الأرض بفأسه ، والثاني يملأ الغلقان من الردم ، والثلاثة الآخرون يحملونها إلى جانب التربة ، حيث أمر سعيد باشا بإنشاء طريق زراعى معبد ، عرضه عشرة أمتار ، وقد سار العمل على هذه الوتيرة ، وعنى سعيد باشا بالسهر على صحة العمال ، فأحضر أطباء يلاحظون حالتهم الصحية طول مدة العمل ، وتم تطهير التربة وإنشاء الطريق في اثنين وعشرين يوماً ، دون أن يموت أحد من العمال . بخلاف ما وقع حين إنشائها في عهد محمد علي ، ولم يزد عدد المرضى الذين أعياهم العمل عن خمسة في الألف^(٣) .

فكان هذا العمل الضخم وإتمامه في هذه المدة القصيرة مدعاة للإعجاب ، لما تجلى فيه من مقدرة الفلاح المصرى على إنشاء أعمال العمران التي تنوء بها الجماعات من الشعوب الأخرى .

وقد كان نجاح هذا المشروع مما شجع المسيو فردينان دلسبس على إغراء سعيد باشا بتسخير الآلاف من الفلاحين في احتفار قناة السويس ، فرضى بتأثير هذه الإغراء أن يسخر الألوف المؤلفة منهم في عمل عاد بالضرر الوبيل على مصر والمصريين .

السكك الحديدية والتلغرافات

توفى عباس قبل إتمام الخط الحديدي بين القاهرة والإسكندرية ، فأتمه سعيد باشا سنة ١٨٥٦ وسار الخط عن طريق كفر الزيات ومنها حتى وصل إلى العاصمة ، ولم تكن « الكبارى » بنيت على النيل . فكان القطار عند اجتيازه الفرعين ينقل على مراكب خاصة تسير به من بر إلى آخر .

(٣) مبرو ، مصر الحديثة ص ١٢٣ .

وأشأ خطوطاً تليفرافية على الطريقة الحديثة من الإسكندرية والقاهرة والسويس بعد أن كان الموجود منها في عهد محمد على على طريقة (شاب) القديمة .

وعد الخط الحديدى بين القاهرة والسويس ، كتمة لخط الإسكندرية والقاهرة ، وفتح للمواصلات سنة ١٨٥٨ ، فعاد على ميناء السويس وعمرانها بالفوائد الجمّة ، لأنه كان سبباً فى زيادة ورود السفن التجارية إلى هذا الثغر لنقل متاجرها وركابها إلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية بطريق السكة الحديدية ، فنشطت حركة العمران والتجارة فيها ، ولما كثر توارد السفن إليها شرع سعيد باشا فى إصلاح مينائها .

ومن أعماله فى العمران الاحتفاظ بالآثار المصرية وجمعها فى مخازن أعدت لها فى بولاق ، وعهد بهذه المهمة إلى العالم الأثرى مارييت (باشا) كما سيجىء بيانه ، وعهد إلى العلامة محمود بك (باشا) الفلكى الرحلة إلى دنقلة لرصد كسوف الشمس بها ، فقام بهذه المهمة واغتم هذه الرحلة لتحقيق ٤٢ موقعاً من المواقع القلبيّة بين أسوان ودنقلة .

وبعد عودته كلفه سعيد باشا وضع خريطة مفصلة للقطر المصرى ، فقام بهذا العمل خير قيام ، واشترك معه فى أدائه طائفة من المهندسين المصريين .

إصلاحاته الحربية وبثه الروح القومية فى الجيش

إشتهر سعيد باشا بميله إلى الجيش ، ولعل نشأته الأولى على ظهر الأسطول حببت إليه الحياة الحربية ، بركة كانت أم بحرية ، فعنى بعد أن ولى الحكم بترقية شئون الجنود . وكثيراً ما كان يصرف أيامه فى معسكر الجيش ، وتعرض عليه شئون الحكومة وهو وسط جنوده ، ويطلب له أن يسير منتقلاً فى أنحاء البلاد .

ولقد بذل جهداً كبيراً فى سبيل ترقية الجيش من الوجهتين المادية والمعنوية ، وصبغه بالصبغة الوطنية . وذلك أن الجيش كان قد اضمحل فى عهد عباس الأول ، كما تقدم بيانه . وفقد الروح التى كانت تفيض عليه صفات العظيمة والبطولة فى عهد محمد على وإبراهيم ، فعمل سعيد على أن يرد إلى الجيش صبغته الوطنية ، وبذل جهداً كبيراً فى إصلاح حاله . فقرر تقصير مدة الخدمة العسكرية ، وجعلها فى الوقت نفسه إجبارية للجميع ، وكان لهذا الإصلاح أثر حسن فى ترغيب الانتظام فى سلك الجنديّة إلى الأهلين ، لأن التجنيد بحسب

النظام القديم كان مقصوراً على الطبقات الفقيرة (وهو الآن كذلك مع الأسف - سنة ١٩٣٢ -) . فوقر فى أذهان الناس أن الخدمة العسكرية سخرة تبتلى بها تلك الطبقات ، وبما زاد فى نفور الأهلين منها طول مدة التجنيد ، فكان المجندون تطول غيبتهم عن أهلهم ، وكثير منهم كانوا يلقون حتفهم فى الحروب المتواصلة التى حدثت فى عصر محمد على ، فيجهل أقرباؤهم مصيرهم .

فلإصلاح هذه العيوب قصر سعيد باشا مدة الخدمة العسكرية ، ثم عممها على جميع الشبان ، على اختلاف طبقاتهم . فجعل متوسط الخدمة سنة واحدة ، وبذلك أدخل فى نفوس الناس الطمأنينة على مصير أبنائهم المجندين ، وأخذوا يشعرون بأنهم سيعودون قريباً إلى قراهم وعائلاتهم ، وأمر أن تعمم الخدمة العسكرية ، بحيث يقترع أبناء المشايخ والعمد وأقاربهم كسائر الفلاحين ، ولا شك أن هذه الوسيلة من شأنها أن تنهض بمستوى الجنديّة ، وترغب الشبان فى الخدمة العسكرية ، لأن العمد والمشايخ هم فى الجملة خلاصة أعيان البلاد ، فدخلوا أبنائهم فى سلك الجيش تكريماً للجنديّة ، وتقويهم لنفوس الشبان إذ يشعرون أن التجنيد واجب عام ، يشترك فيه الأغنياء والفقراء على السواء .

وعلاوة على ما تقدم ، فإن سعيد باشا عنى بترقية حالة الجنود والترفيه عليهم من جهة الغذاء والسكن والملبس وحسن المعاملة ، حتى أخذوا يشعرون أنهم تحت لواء الجيش أحسن حالاً مما كانوا عليه فى قراهم ، طعاماً ، ومسكناً ، وملبساً ومظهرأ .

وكان لهذا الإصلاح أثره فى إبلاف الأهالى الخدمة العسكرية ، وفى تقدم حالة البلاد الاجتماعية ، لأن المجندين إذ يعودون إلى القرى بعد انتهاء مدة خدمتهم كانوا يتقلون إليها مبادئ النظام والتقدم والنظافة التى تعودوها فى ظل الجنديّة .

ولو استمر العمل بهذا النظام طويلاً لألفت الأمة الخدمة العسكرية ، ولاعاديها الشبان من مختلف الطبقات .

وكان سعيد باشا ميالاً إلى ترقية الضباط المصريين وإعطائهم حقيقتهم فى التقدم ، وفى عهده ارتقى كثير منهم إلى المراتب العسكرية العالية ، بعد أن كانت منحصرة فى الترك والشراكسة ، وقد نقل عنه عرابى باشا خطبة ألقاها فى مأدبة بقصر النيل ، تدل على عواطف وطنية شريفة ، قال مخاطباً الحاضرين من العلماء والرؤساء الروحانيين وأفراد الأسرة الحاكمة ، وكبار رجال الحكومة الملكيين والعسكريين .

« أيها الأخوان . إني نظرت في أحوال هذا الشعب المصري من حيث التاريخ ، فوجدته مظلوماً مستعبداً لغيره من أمم الأرض ، فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرة . كالعرب الرعاة (الهكسوس) والأشوريين ، والفرس ، حتى أهل ليبيا والسودان واليونان ، والرومان ، وهذا قبل الإسلام ، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة ، كالأمويين . والعباسيين ، والفاطميين من العرب ، والترك ، والأكراد ، والشركس ، وكثيراً ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها في أوائل هذا القرن في زمن (بوناپرت) ، وحيث أني اعتبر نفسي مصرياً ، فوجب على أن أرى أبناء هذا الشعب ، وأهذه تهادياً ، حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسي على إبراز هذا الرأي من الفكر إلى العمل »^(٤) .

ويقول عراي باشا في مذكراته تعليقاً على هذه الخطبة ، إنه لما انتهى سعيد باشا من إلقائها خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين ، حائقين ، مدهوشين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تهلل فرحاً واستبشاراً . ويقول إنه اعتبر هذه الخطبة أول حجر في أساس مبدأ (مصر للمصريين) . قال : « وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة في قلوب الأمة المصرية الكريمة » .

هذا ما يقوله عراي باشا ، وهو قول لا غبار عليه ، ونضيف إليه أنه لو بقيت هذه الروح سائدة في عهد خلفاء سعيد باشا لما كانت البلاد في حاجة إلى شوب الثورة العراقية ، لأن هذه الثورة قامت لتحقيق المبدأ الذي إتبعه سعيد باشا ، فلو سار خلفاؤه على هذا المبدأ لم الغرض الذي دعا إليه العراقيون في سكينه وسلام ، ولكانت البلاد في غنى عن قيام تلك الثورة ، التي مها قيل لها أو عليها ، فلا نستطيع أن نغفل تلك الحقيقة المؤلمة ، وهي أنها أفضت بالبلاد إلى الإحتلال الإنجليزي ، وليس ينبغي أن الاستقلال والاحتلال ضدان لا يجتمعان .

ومن أعماله الحربية إنشاء (القلعة السعيدية) بالقناطر الخيرية . وكان يقيم بها أحياناً وجعلها بحيث تستطيع صد هجمات الأعداء عن القاهرة إذا جاءوا من طريق النيل .

على أن سعيد باشا كان لا يستقر على وثيرة واحدة في اهتمامه بشئون الجيش . ومرجع ذلك إلى ضعف إرادته ، وقلة حزمه . وتقلبه في الرأي . وقد كان هذا الخلق من مواضع ضعفه . فكثيراً ما لوحظ عليه أنه يرى في يومه نقيض ما رآه بالأمس . ولا يثبت على رأي واحد . فبينما

(٤) مذكرات عراي (كشف الستار عن سر الأسرار) ص ١٦ .

هو يعنى بزيادة عدد الجيش إذا به يصرفه . فلا يبقى منه إلا التزر اليسير . ففي سنة ١٨٥٦ صرف معظم الجيش . ولم يبق منه إلا ست أوروب من المنشأة . وثلاثة بلوكات من الفرسان . وبلوكين من المدفعية . ولما سافر في رحلة إلى السودان أواخر سنة ١٨٥٦ اصطحب أورطين من الجيش وأبقى الأوروب الأخرى بالقاهرة والإسكندرية وبني سويف . ثم ججع الضباط وجعل منهم مدرسة بالقلعة السعيدية بالقناطر الخيرية . وذلك لحوفه من أن يقوم الجيش بثورة في البلاد أثناء غيابه بالسودان .

وفي سنة ١٨٦٠ أعاد الجيش ثانياً . وأعاد إليه الضباط ، ونظم فيالقه . وكان غرضه الاستعداد للقتال حيناً توترت العلاقات بينه وبين تركيا . بسبب مسألة قناة السويس . وقاد بنفسه هذا الجيش وعسكر به في مريوط . وأقام هناك ثلاثة أشهر . كان لا ينفك خلالها يجرى المناورات الحربية . وكان عدد الجيش وقتئذ ٦٤,٠٠٠ مقاتل كما أحصاه إسماعيل باشا سرهنتك في كتابه (ج ٢ ص ٢٧٥) ثم صرف معظم هذا الجيش بعد أن عادت العلاقات الودية بينه وبين تركيا .

وفي سنة ١٨٦٢ أعاد تنظم بعض الفرق ، وكان لا يقر له قرار إلا بين جنده ويلازمهم في معظم أوقاته .

وذكر عنه المسيو فردينان دلسبس أنه نقص الجيش من ستين ألفاً إلى ثمانية آلاف أو عشرة آلاف مقاتل . وذلك لكي يخصص أكبر عدد من المقرعين لأعمال الحفر في قناة السويس^(٥) ومن هذا يتبين لك أن القناة . علاوة على ما جلبته لمصر من المضار كما سيحيى بيانه ، كانت من أسباب اضمحلال الجيش المصري .

البحرية

قلنا أن سعيد باشا نشأ نشأة بحرية ، وانتظم في سلك الأسطول قبل أن يتولى الحكم ، فكان ميالاً بطبيعة نشأته إلى إحياء البحرية المصرية ، بعد ما أصابها من الاضمحلال والإهمال في عهد عباس .

(٥) وثائق عن تاريخ القناة للمسيو فردينان دلسبس ج ١ ص ٣٣٣ .

وقد وجه عنايته فعلاً إلى ترقية شأن الأسطول . فلما عادت السفن الحربية المصرية من حرب القرم أمر بإصلاحها وإنشاء سفن أخرى جديدة ، ولكن إنجلترا خشيت أن تعود إلى مصر قوتها البحرية ، التي كانت لها في عهد محمد علي ، فأوعزت إلى الحكومة التركية أن تمنع سعيد باشا من تجديد الأسطول . وزينت للسلطان هذا العمل موهمة إياه أن الأسطول إذا قوى شأنه يصبح خطراً يهدد تركيا كما كان في عهد محمد علي ، فاستمع السلطان لدسائس إنجلترا ، وأصدر أمره إلى سعيد باشا بالكف عن إصلاح سفن الأسطول وإنشاء سفن جديدة إلا بأمره ، فكان ذلك سبباً لاضمحلال قوة مصر البحرية ، وقد ذكر إسماعيل باشا سرهناك في كتابه حقائق الأخبار (ج ٢ ص ٢٧١) أن سعيد باشا إذ رأى أن معظم السفن الراسية أمام دار الصناعة بالإسكندرية لا تصلح للقتال إلا بعد إصلاح جسم وإنها إذا تركت وشأنها أصابها التلف ، أمر بتكسيها وبيع أخشابها وإحراق ما لا يصلح منها ، وشرح معظم ضباطها ، وأدخل الكثيرين منهم في الوظائف الملكية ، وخاصة في مطابخه الواسعة ، ولما أنشأ إدارة للملاحة النيلية ، وهي التي دعيت مصلحة (الانجارية) ابتاع لها كثيراً من البواخر النيلية ، واستخدم فيها بعض أولئك الضباط والجنود ، وهناك سبب آخر لاضمحلال البحرية في عهد سعيد ، ذلك أن الدول الأوروبية أخذت تستبدل بالسفن الحربية الشرعية السفن الجديدة البخارية التي صارت الأساطيل الحربية تتألف منها ، ولكن مصر قصرت عن مجارة الأساطيل الأوروبية في هذا المضمار ، ومن هنا أضعفت البحرية المصرية في الضعف وآلت حالتها إلى الاضمحلال .

ولو كان سعيد باشا على شيء من العزيمة التي امتاز بها أبوه العظيم لما ترك الأسطول الضخم الذي بذلت مصر في سبيل إنشائه ما بذلت من الجهود يتبدد ويتكسر ، وما صدع أوامر السلطان في هذا الصدد ، بل كان عليه أن يتعهد الأسطول ، فيصلح ما يعطب من سفنه ، ويجدد بإنشاء السفن الحربية البخارية بدلا من السفن الشرعية ، لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وهو الذي كان يجدر به أن يقدر قيمة الأسطول إذ نشأ في البحرية ومارس فنونها وعرف مبلغها من الجلال وخطر الشأن .

أهمل إذن سعيد شأن البحرية الحربية ، على أنه عنى بالملاحة التجارية الداخلية والخارجية ، فأنشأ شركتين للملاحة ، إحداهما بحرية ، والأخرى نيلية .

شركة الملاحة النيلية

فالشركة الأولى للملاحة النيلية ، أسست سنة ١٨٥٤ . والغرض منها نقل الحاصلات والمسافرين بطريق النيل على البواخر .

والسبب الذي دعا سعيد باشا إلى تأسيس هذه الشركة أن المراكب الشرعية التي تنقل الغلال والمتاجر من داخلية البلاد إلى الإسكندرية عن طريق النيل وترعة المحمودية كانت تتأخر في سيرها ، لمعاكسة الريح . فكانت تقطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية في خمسة عشر يوماً . في حين أن البواخر تقطعها في ست وثلاثين ساعة . ولما كانت الإسكندرية تستمد أقواتها ومواد الغذاء من الداخل . فتأخر السفن الشرعية يؤدي إلى أزمة في الأقوات . وخاصة بعد أن زاد عدد سكانها . هذا إلى ما في استخدام المراكب الشرعية من تعطيل المواصلات التجارية عامة . فأسس سعيد باشا هذه الشركة لتسهيل سبل المواصلات النيلية .

غير أن عيب هذه الشركة أنها شركة أجنبية ، مؤسسوها من الأوروبيين . ومعظم رموس أموالها أجنبية . ولعل هذه أول شركة أجنبية أسست في عهد سعيد باشا .

ولم يكن من أعضائها من المصريين سوى رئيسها الفخري (الذي لم يكن له عمل ما) وهو ذو الفقار باشا وزير المالية ، أما أصحاب الامتياز فهم فيما عدا ذو الفقار باشا جماعة من المالين الأجانب من مختلف الأجناس ، وهم المسيو رويسر Ruysenaers قنصل هولندا العام في مصر ، والمسبوو يولاني Popolani ، وكونيج بك Koenig Bey سكرتير سعيد باشا الأوروبي ، وموجيل بك Mougel Bey كبير مهندسي الري . وأيدي Aide وليونيداس ليغونس Lyghouines . ومدة امتياز هذه الشركة ١٥ سنة ، ومن شروط عقد تأسيسها ، أنه عند وقوع خلاف بينها وبين الحكومة فلا يرفع الخلاف إلى القنصليات بل يحسم بواسطة التحكيم ، وأن بواخر الشركة ترفع العلم المصري باعتبارها تابعة لشركة مصرية .

سميت هذه الشركة (الشركة المصرية للملاحة البخارية) ، ولم تكن مصرية إلا بالاسم وكان في إمكان الحكومة أن تشتري البواخر من مالها بدلا من الالتجاء إلى رموس الأموال الأجنبية ، وقد سوغ أنصار سعيد باشا إعطاء هذا الامتياز لشركة أوروبية بقولهم أن الحكومة عهدت إلى الشركة بالقيام ببعض أعمال الإصلاح في ترعة المحمودية دون تكليف الخزانة المصرية نفقاتها ،

الأحمر . فغزم سعيد باشا على إصلاح مرفئها وتوسيعه ، وعهد بذلك إلى شركة فرنسية تعرف بشركة (ديسو) Dussau . وتعاقد رايها على إنشاء حوض عائِم للبناء لإصلاح السفن . ثم على توسيع الميناء . وقد كملت أعمال الإصلاح في عهد الخديوي إسماعيل .

حروب مصر في عهد سعيد باشا

اشركت مصر على عهد سعيد باشا في حروبين :
الأولى : حرب القوم .
والثانية : حرب المكسيك .

١- حرب القوم

تقدم الكلام عن اشتراك مصر في هذه الحرب على عهد عباس باشا . وحسن بلاء الجيش المصرى في الدفاع عن (سلسترا) .
وقد استمرت الحرب بعد وفاة عباس ، وأرسل سعيد باشا نجدة إلى الجيش المصرى فيها . وما يذكر عن هذه الحرب أن المصريين عانوا فيها الشدائد والأهوال ، إذ كانوا يقاتلون في شدة البرد خلال شتاء عامى ١٨٥٤ و ١٨٥٥ ، ولقى الكثير منهم منيهم في ميادين القتال ، أو من فلك الأمراض . وقد دافعوا دفاعاً مجيداً عن (اياتوريا) . وهى مدينة من ثغور شبه جزيرة القرم ، إحتلها الحلفاء لهاجمة مواقع الروس الحصينة في شبه الجزيرة .
واستشهد سلم باشا (فضى) القائد العام للجيش المصرى في حصار (اياتوريا) . ذلك أن الروس هاجموا المدينة بعثة ، وكان سلم باشا يتولى قيادة المصريين فيها ، فبينما هو قائم بأعباء القيادة أصابته وحصاصة في وجهه أودته قتيلاً ، ومع أن الروس ارتدوا عن المدينة ، لكن مقتل سلم باشا كان حسارة كبرى أصابت الجيش . ووقعت وقعا أليماً في نفوس الجند والقباط .

ذكر السيوفانيريه (Vingirnier) نبأ مقتله في كتابه (سليمان باشا) قال : « إن مصر شعرت بالألم الشديد لوفاته . إذ فقدت قائداً فذاً في الكفاءة الحربية ، ورجلاً نزيهاً محباً للخير . اكتسب بشجاعته إعجاب رؤسائه ومحبة زملائه » .

كثوسع مأخذ الثروة من النيل ، وتوسع مصبها في البحر الأبيض المتوسط ، وتطهيرها ، وإنشاء غلليات عند العطف لتغذيتها .

شركة الملاحة البحرية (الشركة الجديدة)

أما الشركة الثانية فهى شركة مساهمة للملاحة البحرية ، أسست سنة ١٨٥٧ رئيسها الأمير مصطفى فاضل بن إبراهيم باشا . وجلس إدارتها خليط من الوطنيين والأجانب . وهم نورار باشا (وكان لم يزل بك) نائباً للرئيس . وله في غيبته أن يقوم بأعمال الراسة . وعبد الله بك ، والسيو دمريكر Dumreicher وحسن كامل بك . وإسماعيل فوزى بك . والسيو ليقى . ومختار بك . والسيو باسترى Pastre ، والسيو رويستر . وسعيد افندى ، وهوج ثوربن Huge Thurburn والسيو زكالى Zaccali

وحيت (القوبانية الجديدة) . نسبة إلى إسم السلطان عبد المجيد الذى كان يتولى عرش السلطنة العثمانية وقتئذ . والغرض منها تسيير البواخر في البحر الأحمر . ومنه إلى المحيط الهندى ثم الخليج الفارسى . وفي البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تقوم بالملاحة بين السويس وثغور الحجاز واليمن والقصير وسواكن ومصوع وتنقل الحجاج ذهاباً وإياباً إلى ثغور الحجاز . ولها بواخر أخرى بالبحر الأبيض المتوسط . ومدة إمتيازها ثلاثون سنة . وبواخرها ترفع الراية المصرية . ومنازعتها لا ترفع أمام محاكم القنصليات بل أمام المحاكم التجارية المصرية . ولها مستودعات ومحطات في السويس والقصير ومصوع .

ولكن هذه الشركة قد سرى إليها الاضمحلال في أواخر عهد سعيد . لفساد إدارتها ، فحلها الحكومة . وتولت تصفيها على عهد إسماعيل وأعادت الاسهم إلى أصحابها مقسطة على عشر سنوات قبلت مع فوائدها ٣٤٠.٠٠٠ جنيه ، وحلت محلها الشركة العريزية التى أنشأها إسماعيل كما سيحىء . بيانه ..

إصلاح ميناء السويس

نشطت حركة التجارة والصمران في السويس بعد إنشاء السكة الحديدية التى تصلها بالقاهرة . وبعد إنشاء الشركة الجديدة للباخر . واتخاذ السويس ميناء لخطوط الملاحة في البحر

وذلك أنه كان عائداً بأسطوله إلى الإسكندرة لإصلاح بعض السفن . فهبت على الأسطول ريح عاصفة ، وتكاثرت عليه القباب ، فعال دون اجتيازه بوعاز اليوسفور بسلام ، واشتدت العاصفة عند مدخل البوغاز . فاصطدمت السفينتان (مفتاح جهاد) (والبحيرة) فانكسرتا ، وغرق من بهما من الجنود والضبباط ، وعددهم ١٩٢٠ مقاتل . لم ينج منهم سوى ١٣٠ ، وكان من الفرق حسن باشا الإسكندراتي وسنان بك من قواد الأسطول المصري .

وانتهت حرب القرم بغز زكيا وحلفائها على الروس وسقوط قلعة سبستبول ، وأبرم الصلح سنة ١٨٥٦ في مؤتمر باريس الذي سلمت فيه روسيا بمطالب الحلفاء .

٢- حرب المكسيك

والحرب الثانية هي حرب المكسيك ، وقد تأخذك الدهشة من اشتراك مصر في حرب المكسيك بأمريكا ، إذ لا تائق لها فيها ولا جمل ، ولكن كذلك شامت ميول سعيد نحو نابليون الثالث إمبراطور فرنسا في ذلك العهد وصدافته له أن يلقي دعوته حينها طلب إليه أن يمدّه بقوة بحرية مصرية تعاون الجيش الفرنسي بها .

كانت المكسيك جمهورية تتخلها الفتن والثورات ، كما هو شأنها إلى اليوم ، وكان يتولى رأسه جمهوريتها سنة ١٨٦١ المشير جوارز Juarez ، فقامت بالبلاد فتنة بقصد إسقاطه وانتزاع السلطة من يده ، فصادفت هذه الحركة هوى في نفس الإمبراطور نابليون الثالث ، واعتزم أن يعصدها ليلسط نفوذه على المكسيك ويؤسس بها إمبراطورية تحت رعايته . وتدرج بما لحق الرعايا الأوربيين في الحرب الأهلية من المضار ، فطالب الحكومة المكسيكية بتعريض هذه الحساتر . فلما رفضت ألّب عليها إنجلترا وأسبانيا ، ثم ما لبثت هاتان الدولتان أن تفضنا أيديهما من المسألة . أما نابليون فقد جرد على المكسيك جيشاً كان مصيره إلى الغزوة ، واستنجد في خلال الحرب بصديقه سعيد باشا فصرعان ما أمده بكثيرة من الجنود السودانيين عددهم ١٢٠٠ مقاتل ، يقومهم اليكباتشي جيرة الله محمد السوداني ، والصاغ محمد افندي لأمس ، فأجبرت هذه القوة إلى المكسيك سنة ١٨٦٢ ، وأبليت في الحرب هناك بلاء حسناً ، وشهد لها المارشال فوري Forey قائد الجيش الفرنسي بالشجاعة إذ قال عن جنودها : « إن هؤلاء

وعد قتل سبع باشا فضحى ، جعل سعيد باشا على القيادة العامة أحمد باشا المنكلى . والأخير لا يلى على بك مبارك (باشا) من أركان حربه ، وكان وقتئذ ناظراً لمدرسة الهندسة بخانة . وشترك في الحرب كما زاره في زوجته بالفصل التاسع .

وبال جيش المصري في حرب القرم ثناء مستطاباً ممن شهدوا حسن بلائه في القتال . نقل المسير فانترينيه في كتابه (سليمان باشا) ما ذكرته في هذا الصدد جريدة المونيتور الفرنسية . قالت :

« أثبت المصريون أنهم خير الجنود الذين دافعوا عن أيباتوريا . ونالوا هذه المكاتة ذاتها في حرب الدانوب . واحتملوا وحدهم معظم العبء في الدفاع عن سلستريا » .

وقالت في مواطن آخر : « إن المصريين يعرفون في الجيش التركي وفي البلاد التركية بالعرب . وطريقهم في القتال تشبه طريقة تلك الشعوب الحربية التي تجمع إلى الشجاعة والاقدم . الذكاء والنظام »^(٦)

وشهد الجنرال اسمونت Osmont أحد قواد الجيش الفرنسي في حرب القرم شهادة قيمة للجيش المصري . قال (ص ٥٧٤ من الكتاب المتقدم ذكره) : « لقد اشترك قسم من الجيش المصري معنا في حرب القرم . وحينما كنت محافظاً لاباتوريا شاهدت فرقة من ذلك الجيش يبلغ عددها ١٢ ألف جندي . يؤلفون جزءاً من جيش عمر باشا ، ورأيت هذه الفرقة في المناورات الحربية . كما رأيتها وهي تخوض غاز الحرب . يجانب فرقتين من الترك ، وأشهد إنها كانت تتفوق الفرقتين التركيتين في كل الزايا » .

وقال المسير مريو في كتابه مصر الحديثة بصف الجيش المصري في عهد سعيد باشا مناسبة حرب القرم :

« إن كفاءة الفلاح المصري في فهم النظام الحربي ، واتباعه إياه ، وما اشهره من الثبات والشجاعة في مواجهة الأعداء ، كل هذه المزايا قامت عليها البيئات ، لا في ميادين القتال بجزيرة العرب وسوريا في عصر محمد علي فحسب ، بل يحسن دفاع الجيش المصري عن سلستريا وایباتوريا في حرب القرم الأخيرة »^(٧)

وقد غرق الأدميرال حسن باشا الإسكندراتي قائد الأسطول المصري في تلك الحرب .

(٦) سليمان باشا المسير فانترينيه ص ٥٧٢ .

(٧) مصر الحديثة للسير مريو ص ٤٢ .

ليس من الجنود . بل هم أسود^(٨) واستمرت الحرب سجالاً بين الجيش الفرنسي وقوات الثورة . وأعلنت الامبراطورية في عاصمة المكسيك فترة من الزمن . واعتلى عرشها الأرشيدوق مكسميليان النموي سنة ١٨٦٤ . ثم كانت الغلبة لقوات الثورة . فجلا الفرنسيون عن البلاد . وقتل الإمبراطور مكسميليان رمياً بالرصاص سنة ١٨٦٧ . وفي غضون ذلك ظلت الكتبية المصرية تكافح في تلك البلاد السحيقة نيفاً وأربع سنوات . قتل في خلالها البكباشي جيرة الله . فخلفه ألماس أفندي ، وفي معظم رجالها ، ولم يبق منهم بعد إنتهاء الحرب سوى بقية من ضباطها ، ونحو ثلثمائة من جنودها ، ولما جلا الجيش الفرنسي عن المكسيك عادت الكتبية إلى فرنسا ، فاستعرضها الأميراطور نابليون الثالث ، بصحبه القائد المصري شاهين باشا ، الذي كان يزور باريس وقتئذ ، فهنا الأميراطور ألماس أفندي على شجاعة الكتبية وحسن نظامها ، ووزع الأوسمة على بعض المميزين من رجالها ، ورجعت إلى مصر في مايو سنة ١٨٦٧ ، فاستعرضها الخديوي إسماعيل بسراى رأس التين بالإسكندرية . وأمر بترقية طائفة منها ، وأقام لطيف باشا وزير البحرية مأدبة لضباطها تكريماً لهم ولسائر رجال الكتبية .

السودان

مر عهد عباس الأول دون أن ينال السودان منه التفاتاً ما . ولم يحدث في عهده مما يسترعى النظر سوى إنشاء المدرسة الابتدائية بالخرطوم ، وقد فصلنا الكلام عنها في كتاب « عصر محمد علي » (ص ٤٨٨ من الطبعة الأولى) .

وتولى منصب الحاكم العام للسودان في عهد عباس خالده باشا الذي كان يشغله من عهد محمد علي ، ثم عبد اللطيف باشا الذي أنشئت في عهده مدرسة الخرطوم الابتدائية . ثم رسم باشا وقد مات بالخرطوم ، ثم إسماعيل باشا أبو جيل ، ثم سليم باشا ، ثم علي باشا سرى . ولما توفي عباس الأول وخلفه سعيد باشا نال السودان نصيباً من اهتمامه ، فقد اقتبس من أبيه فضيلة العناية بهذا الإقليم العظيم المتمم لمصر ، وفي أول عهده جعل علي باشا شركس حاكماً عاماً للسودان ، وأوفد أخاه الأمير عبد الحلیم باشا للتفتيش على إدارته ، وإصلاح

(٨) راجع تاريخ هذه الكتبية في البحث المسهب المنشور في مجلة مصر Revue d'Egypte بالنسبة الأولى (١٨٩٤) ص ١٠٤ وما بعدها ، وما ذكره إسماعيل باشا سرهك في كتابه حقائق الأخبار ج ٢ ص ٢٧٦ .

شئونه ، ولكن لأمر لم يطل البقاء فيه ، لظهور وباء جعله يعجل بالعودة إلى مصر . ثم اعترم سعيد أن يزور السودان بنفسه ليتفقد أحواله كما فعل أبوه من قبل . فذهب إليه بصحبه طائفة من خاصة رجاله وأصدقائه ، مثل راغب باشا . وذو الفقار باشا . وإبراهيم بك النبراوي ، والسيو فردينان دلسيس ، والدكتور أباته باشا ، وأراكيل بك أخي نوبار باشا وغيرهم ، ووصل إلى الخرطوم في ١٦ يناير سنة ١٨٥٧ والتي بأعيان الأهلين . فقدموا له عرائض يشكون فيها من فداحة الضرائب ، ومظالم الحكام ، فاستمع لشكاياتهم ، وتألم لحالتهم ، وساورته يوماً فكرة إخلاء السودان ، ولكن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا إليه أن يعدل عن رأيه ، محتجين بأن إخلاء السودان يؤدي لا محالة إلى تناقم الحالة فيه ، إذ تعمه الفوضى . فعدل سعيد عن رأيه ، واعترم إصلاح حاله ، فأمر بإعفاء الأهالي من المتأخر عليهم من الأموال ، وخفض الضرائب تخفيضاً عظيماً ووضع قاعدة ثابتة لتقدير قيمتها بأن جعلها تتبع عدد السواقي في الأطنان ، لأن السواقي تبين مبلغ خصب الأرض ، ودرجة إنتاجها ، فجعل على مجموع الأرض التي تروى من ساقية واحدة ٢٠٠ قرش ، وأما الأطنان التي تروى من غير حاجة إلى السواقي فجعل على الفدان الواحد منها ضريبة تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ قرشاً .

وقرر عزل الموظفين الترك الذين كان الأهالي يشكون من سوء معاملتهم ، واعترم تعويد الأهلين حكم أنفسهم بإنشاء مجالس محلية مزلفة من أعضاء يتخارون من رؤساء العشائر والعائلات^(٩) ، ورفع المظالم عن الأهلين ، وفك أسار الكثيرين منهم ، ورسم بإلغاء السخرة ، وأمر مديري الأقاليم السودانية بأن يحسنوا معاملة الأهلين ، وألا يرهقونهم في جباية الضرائب ، وقضى ألا يعهد إلى الجنود في تحصيل الضرائب لما اشتهر عنهم من القسوة . ومن إصلاحاته بالسودان أنه أنشأ محطات في صحراء (كروسكو) . لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان ، ونظم البريد بين مختلف أنحاء السودان ، وأنشأ نقطة عسكرية على نهر سوبات لمنع تجارة الرقيق ومطاردة النخاسين .

ولما عاد إلى مصر عهد إلى موجيل بك كبير المهندسين تسهيل سبيل المواصلات بين وادي حلفا والخرطوم ، فأرى موجيل بك أن خير وسيلة لإدراك هذا الغرض إنشاء سكة حديد ووضع مشروعاً لذلك ، ولكنه لم ينفذ لكثرة ما يفتضيه من النفقات . وقد أبطل منصب الحاكم العام (حكمدار السودان) ، وجعل من السودان خمس مديريات مستقلة في إدارتها

(٩) ذكر ذلك السيو فردينان دلسيس في كتابه (ذكريات أربعين سنة) ج ٢ ص ٤٨٨ .

بعضها عن بعض ، ترجع كل منها في شؤنها إلى وزارة الداخلية ، شأن مديريات القطر المصري ، وجعل من الخرطوم وسنار مديرية وحدة وعين أراكيل بك نوبار مديراً لها ، لكي يشرف على الإصلاحات التي قررها ، وقد بقى يتولى منصبه إلى أن توفي سنة ١٨٥٨ ، ثم خلفه حسن بك سلامة حتى عزل ، وخلفه محمد بك راسخ .

ثم رأى سعيد باشا أن استقلال مديري الأقاليم جعلهم ينجحون إلى الاستبداد والظلم ، ويسئون إلى الأهلين ، فألقى استقلالهم ، وأعاد منصب حكامدار السودان ، وقلد موسى باشا حمدي هذا المنصب ، فكان من أعظم ولاة السودان شأنًا ، وله فيه إصلاحات جمة ، منها أنه عين من الأهلين نظار أقسام (مأموري مراكز) ، ومعاونين ، وعقد رؤساءهم مجلساً ، وسن قوانين جديدة لتنظيم الضرائب ، وتسهيل جبايتها .

وقد عضد سعيد الرحلات والاكتشافات الجغرافية في أنحاء السودان ، فكثرت عدد المكتشفين في عهده ، ولكنه لم يحد حذو أبيه في إيقاد بعثات مصرية كالبعثة التي أنفذها محمد علي إلى السودان بقيادة البكباشي سليم بك قبطان أحد ضباط البحرية المصرية ، بل ترك أمر هذه الرحلات للمكتشفين الأجانب ، وهي ناحية ضعف وقع فيها هو وإسماعيل من بعده .

رحلة سعيد باشا إلى الحجاز

قصد سعيد إلى الحجاز في أوائل سنة ١٨٦١ ، وتدل ملابسات هذه الرحلة على أن لها غرضاً سياسياً ، فإنه لم يذهب إلى الحجاز في موسم الحج واقتصر على زيارة المدينة المنورة ، وكانت الرحلة أشبه بتجريدة عسكرية ، إذ كان يصحبه من الجند والحاشية نحو ألفي رجل من مشاة وفرسان ومدفعية وأتباع ، واختلفت الآراء في الباعث لسعيد على هذه الرحلة ، ويؤخذ من رواية محمد بك صادق (باشا)^(١٠) الذي رافق الأمير في رحلته أن لها سبباً سياسياً ، وهو استدعاء الحكومة التركية إيابه للحضور إلى الآستانة ، فرفض الذهاب إليها ، واعتزم زيارة المدينة لكي يتمحل الأعداء ويجد مسوغاً للرفض ، وبدأ سعيد باشا رحلته في ١١ رجب سنة ١٢٧٧ هـ (٢٣ يناير سنة ١٨٦١) فقصد من القاهرة فإلى السويس ، ومنها إلى (الوجه)

(١٠) في بحثه المنشور بمجلة الجمعية الجغرافية عدد مايو سنة ١٨٨٠ ص ١٩ تحت عنوان المدينة منذ عشرين عاماً
Medine il y a vingt ans



سعيد باشا والي مصر
من سنة ١٨٥٤ إلى ١٨٦٣

من ثغور الحجاز ، ثم سارت الحملة براً إلى المدينة المنورة . وصلتها في أول شعبان (١٢ فبراير) ، وبعد أن زار سعيد باشا قبر المصطفى ﷺ غادر المدينة في اليوم السادس منه ، وسار إلى ينبع ، ومنها استقل الباخرة (نجد) إلى السويس فوصل إليها في ١٧ منه (٢٨ فبراير) .

التعليم

لم يوجه سعيد باشا عنايته إلى إحياء النهضة العلمية ، واستمر الجنود الذي أصابها في عهد عباس ، وهذا موضع نقد شديد في تاريخه .

وقد حاول المسيو (مريو) ، وهو من المعجبين بسعيد ، أن يلمس مسوغاً لهذا التقصير المريب ، فلم يجد ما ينهض بدفاعه ، قال في كتابه (مصر الحديثة) :

« لا ينبغي أن المدارس قد أهملها عباس ، فاصابها الاضمحلال والتدهور ، وبلغت حين تولى سعيد الحكم درجة من التقهقر والفوضى جعل الباشا يرى من الحكمة إقفالها نهائياً ، بدلا من السعى في تنظيمها . إذ كان السعى عبثاً لا يجدى »^(١١) .

وهذا دفاع كما ترى لا يسوغ عمل سعيد ، إذ ليس من المعقول ولا مما يقبله المنطق أن يعالج التقهقر في المدارس بإقفالها ، بل العلاج المشروع هو تنظيمها وإصلاحها ، وإذا كانت عزيمة محمد علي قد أوجدت المدارس من العدم ، فأسهل من ذلك إصلاح ما اختل من شونها .

تولى سعيد الحكم وليس بالقطر المصري من المدارس التي أنشئت في عهد محمد علي سوى التز اليسير ، فلم يعمل على إحياء ما اندثر منها . بل ظهر عدم اكثرائه بشئون التعليم بإلغاء ديوان المدارس (وزارة المعارف) وكان يديره وقتئذ عدي شكري باشا وألغى أيضاً مدرسة المهندسخانة ببولاق سنة ١٨٥٤ ، وكان يتولى نظارتها العلامة علي بك مبارك (باشا) فأنفذه سعيد ضمن الحملة التي أرسلها لمساعدة تركيا في حرب القرم واغتم هذه الفرصة لإقفال المدرسة ، وألغى أيضاً مدرسة (المفروزة) سنة ١٨٥٥ .

وأنشأ مدرسة حربية بالقلعة عهد بنظارتها إلى العلامة رفاعة بك رافع وسميت مدرسة أركان حرب .

(١١) مصر الحديثة . للمسيو مريو ص ٨٢ .

ثم أعاد سعيد فتح مدرسة المهندسخانة سنة ١٨٥٨ وجعلها مدرسة حربية نقلها إلى القلعة السعيدية بالقناطر الخيرية وسميت المدرسة الحربية ، وأعاد فتح المدرسة البحرية بالإسكندرية ، وفي عهده أقلت مدرسة الطب بقصر العبي ، ثم أعاد فتحها سنة ١٨٥٦ وأنشأ بها مدرسة للقبالات عهد بنظارتها والتدريس فيها إلى السيدة جليلة ترمهان التي تلقت علومها الطبية في مدرسة القابلات القديمة المنشأة على عهد محمد علي والمغاة في عهد عباس .

وفتت حركة البعثات العلمية فلم يرسل إلى أوروبا سوى ١٤ طالباً .

ومع جمود حركة التعليم إلى هذا الحد فإنه لم يبخل على البعثات الأجنبية الدينية بمساعداته حتى تفتح مدارسها ، فبح إعانات سنوية لراهبات البون باستور Bon Pasteur (الراعي الصالح) وكانت لمن مدرستان بمصر والإسكندرية ، ولراهبات الصدقة بالإسكندرية ، ووهب للبعثة الأمريكية بناء بمصر لتتخذ مدرسة لها ، وأعطى أول مدرسة إيطالية أنشأها الحكومة الإيطالية بالإسكندرية إعانة قدرها ٢٤,٠٠٠ جنيه ، ووهب لها قطعة أرض في أجدو جهات الإسكندرية لتنشئ بها المدرسة ، فكانت عنايته بنشر التعليم الأجنبي أكبر من عنايته بنشر التعليم الأهلي ، وهذا من متناقضاته .

نظام الحكم في عهد عباس وسعيد

النظام السياسي

بقى الحكم في عهد عباس وسعيد حكماً مطلقاً بتولاه ولي الأمر إذ كان يجمع في يده السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية ، فهو المرجع في كليات الأمور وجزئياتها .

وأهم (مجلس المشورة) الذي أسسه محمد علي وانهقد على عهده حيناً وكان نواة لنظام شورى (راجع كتاب « عصر محمد علي » ص ٥٧٢) فلم يظهر له أثر في عهد عباس وسعيد .

المجلس الخصوصي

ذكرنا في كتاب عصر محمد علي (ص ٥٧٩) أن محمد علي أنشأ سنة ١٨٤٧ مجلساً دعاه (المجلس الخصوصي) ، واختصاصه النظر في شئون الحكومة الكبرى ، وسن اللوائح

والقوانين ، وإصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة ، وكان يرأسه إبراهيم باشا .
وقد أعيد تأليف هذا المجلس في عهد عباس الأول بمقتضى لائحة صدرت في ٨ ربيع
الآخر سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩) وتولى رئاسته الكتبخدا باشا وهو أكبر موظف الحكومة ،
وأعضاؤه من كبار الذوات والعلماء ، واختص بنظر المسائل العامة للحكومة ومن اللوائح
والقوانين وترتيب النظم العمومية وتنصيب رؤساء المصالح الكبرى ، فكان بمنزلة مجلس
النظار ، وتولى السلطة التشريعية ، وشاركه فيها مجلس الأحكام . وقد بقي هذا المجلس قائماً
إلى أن خلفه مجلس النظار في عهد إسماعيل .

الوزارات

وفي سنة ١٨٥٧ أعاد سعيد باشا تنظيم الدواوين فجعل منها أربع وزارات وهي الداخلية ،
وقد عهد بها إلى الأمير أحمد رفعت ، والمالية وعهد بها إلى الأمير مصطفى فاضل ، والحربية
وتولاها الأمير محمد عبد الحليم ، والخارجية وتقلدها اسطفان بك أحد خريجي البعثات في عهد
محمد علي .

النظام القضائي

مجلس الأحكام

وكان في البلاد منذ عهد محمد علي هيئة قضائية عليا تسمى (جمعية الحاقانية) أنشئت سنة
١٨٤٢ وقد سميت هذه الهيئة منذ سنة ١٨٤٩ مجلس الأحكام ، وهو المجلس الذي كان له شأن
كبير في عهد سعيد وإسماعيل ، وكان بمثابة الهيئة الاستئنافية العليا في البلاد ، ويتألف من تسعة
أعضاء من الكبراء ومن عالين أحدهما حنفي والآخر شافعي ، وكان أيضاً يشارك (المجلس
الخصوصي) في السلطة التشريعية .

مجالس أو محاكم الأقاليم

بقيت المحاكم الشرعية كما كانت في عهد محمد علي ، وبقى لها اختصاصها في المسائل
المتعلقة بالأحوال الشخصية وانتقال الملكية ، غير أنه أنشئت محاكم أو « مجالس » جديدة

للفصل في المسائل المدنية والتجارية سميت (مجالس الأقاليم) ، بلغ عددها خمسة في بداية
تأسيسها ، وهي (مجلس طنطا) ويختص بنظر قضايا الغربية والمنوفية والبحيرة ، و (مجلس
سمنود) ويختص بنظر قضايا الدقهلية والشرقية والقليوبية ، و (مجلس الفشن) ويختص بنظر
قضايا الجيزة والمنيا وبنى مزار وبنى سويف والفيوم ، و (مجلس جرجا) ويختص بنظر قضايا
أسيوط وإسنا وقنا ، و (مجلس الخرطوم) ويختص بنظر قضايا السودان .
وكان كل مجلس يتألف من رئيس وأربعة أعضاء ، وأربعة كتاب عدا (مجلس سمنود)
فإنه يتألف من رئيس وعضوين .

وعين لكل مجلس اثنان من العلماء بوظائف مفتين أحدهما حنفي والآخر شافعي .
وكان (المجلس الخصوصي) و (مجلس الأحكام) يصدران اللوائح والقوانين هذه
المجالس ، فكانا بمثابة الهيئتين التشريعتين في البلاد ، ويتبين من ذلك أن مجلس الأحكام فوق
كونه هيئة قضائية عليا كان أيضاً هيئة تشريعية .

ولاية القضاء

إن أهم إصلاح قضائي تم في عهد سعيد أنه نال من السلطان حق اختيار القضاة بعد أن
كان العمل جارياً على أن قاضي القضاة المولى من قبل السلطان هو الذي يعينهم^(١٢) .
وهذا الإصلاح فضلاً عما فيه من تحقيق الاستقلال القضائي لمصرفه فإنه منع مصدراً من
مصادر الفساد في النظام القضائي ، فإن قاضي القضاة كان يعين القضاة حسبما تملى عليه
أهواؤه ، وكثيراً ما يجعل تعيينهم مقابل جعل من المال ، وفي ذلك من إفساد القضاء ما لا يحصى
عن الأذهان .

إلغاء مجلس الأحكام ثم إعادته

وفي سنة ١٨٥٥ غضب سعيد باشا على مجلس الأحكام ، فأصدر أمراً بإلغائه ، وقيل أن
سبب هذا الإلغاء اعتقاد سعيد باشا أن أعضاءه لم ينجحوا طريق الاستقامة ، وقد أمر بإحالة
الدعوى التي كانت من خصائص المجلس على الأمير إسماعيل باشا (الحديوي) وكلفه عرض

(١٢) مصر الحديثة للمسيو مريو ص ١ .

من يترجم عرضه على سعيد باشا ذاته ، أى أنه لم ينشئ هيئة أخرى مكان مجلس الأحكام المذكور . ولكنه رجع وأمر بإعادة تأليف مجلس الأحكام وأُسند رئاسته إلى الأمير إسماعيل باشا سنة ١٨٥٦ ، وألفه من عشرين عضواً منهم أحد عشر عضواً من الأعيان وتسعة من الذوات .

ولم يمض عامان على تأليف هذا المجلس حتى عاد سعيد باشا وغضب عليه ، وكان سعيد مشهوراً بكثرة تقلبه في الآراء والميول ، وسبب غضبه أنه انتهى إليه أن أعضاءه ارتكبوا الرشوة في قضية عرضت عليهم ، فارتأى إلغاءه سنة ١٨٦٠ وألغى كذلك (مجالس الأقاليم) . على أنه عاد بعد ذلك سنة ١٨٦١ وأمر بإعادة مجلس الأحكام وعين محمد شريف باشا (الذى صار فيما بعد الوزير المشهور) رئيساً له ، وكان من قبل ناظراً للخارجية ، وأعاد كذلك مجالس الأقاليم ، ولكنه اقتصر منها على مجلسين ، أحدهما بطنطا ، ويختص بنظر قضايا الوجه البحرى ، والثانى بأسبوط ، ويختص بنظر قضايا الوجه القبلى .

وكان العمل أمام (مجلس الأحكام) ومجالس الأقاليم يجرى طبقاً للقانون العثمانى والقوانين التى أصدرها سعيد باشا .

وكان مجلسا طنطا وأسبوط يحكمان ابتدائياً في المنازعات ، ومجلس الأحكام ينظر فيها بصفة استثنائية ، ولما تولى الخديو إسماعيل أعاد تأليف مجالس الأقاليم بأن عممها في المديرية كما سيجىء بيانه .

قضاء الأجنبي

بقيت محاكم التجارة التى أنشئت في عهد محمد على قائمة إلى عهد سعيد وإسماعيل وهى المسماة (مجالس التجار) في الإسكندرية ومصر ، وكانت المحافظات والضبطيات تنظر في المشاكل الخاصة بالأجانب ، ولكن كثرة نزوح الأجانب إلى مصر وما استتبعه من ازدياد هذه المشاكل جعل جهات الإدارة لا تستطيع التفرغ لحسمها ، فانشئ سنة ١٨٦١ مجلس خاص باسم (قومسيون مصر) أو مجلس القومسيون ، يتألف من رئيس مصرى وعضوين مصرين ، وعضو أوروبى ، وآخر يونانى . وعضو إسرائيلى ، وآخر أرمنى^(١٣) .

(١٣) انظر كتاب احكامه لفتحى باشا زغلول ص ٨٥ ملحقات .

ويختص بنظر القضايا التى ترفع من الأجانب على الرعايا المحليين ، وللقنصليات أن ترسل مندوباً من قبلها لحضور الجلسات . وأحكامه تستأنف أمام (مجلس الأحكام) ولم يكن من اختصاصه النظر في المسائل المتعلقة بالمعيار ، بل كان النظر فيها من اختصاص المحاكم الشرعية باعتبارها وقتئذ المحاكم العادية في البلاد .

ثغرات التدخل الأجنبى

اجتمع في سعيد باشا عيبان جوهريان ، الأول : ضعف إرادته وقلة حظه من الحزم والعزم ، والثانى : وهو أكبر خطراً وأسوأ أثراً من الأول ، ونعنى به ثقته بالأجانب ثقة مطلقة ، بحيث لم يكن يقوى على أن يخالف لهم رأياً ، أو يرد لهم طلباً ، وقد اتخذ منهم بطانته وموضع سره ، فانفتحت في كيان مصر ثغرات التدخل الأجنبى ، وأهم هذه الثغرات منح امتياز قناة السويس ، والاستدانة من البيوت المالية الأجنبية .

١ - امتياز قناة السويس

نظرة عامة

بعد مؤرخو أوروبا ، والفرنسيون منهم خاصة ، مشروع قناة السويس مفخرة سعيد باشا ، ويقولون إنه بهذا العمل قد أدى أعظم خدمة للإنسانية والحضارة ، وهم فيما يقولون إنما ينظرون إلى هذا العمل من وجهة النظر الأوروبية ، فلا شك أن قناة السويس قد أفادت التجارة الأوروبية فوائد كبرى ، بتقريبها طريق المواصلات بين أوروبا والشرق ، وأفادت أيضاً الاستعمار الأوروبى ، لأنها مكنت الدول الاستعمارية من إرسال الحملات والتجاريد الحربية من طريق القناة إلى آسيا وأفريقية لإخضاع ممالك الشرق وشعوبه ، ورفعت عن تلك الدول مشقات اجتياز طريق المحيط الأطلنطى ورأس الرجاء الصالح ، ذلك الطريق الطويل المحفوف بالمكاره والأخطار .

فمن الوجهة الأوروبية لا جدال في أن فتح قناة السويس عاد بأعظم الفوائد على التجارة الأوروبية والاستعمار الأوروبى .

أما من وجهة النظر المصرية ، فالقناة كانت شؤماً على البلاد واستقلالها . لأنها أضمت فيها دول الاستعمار ، وجعلتها تسمى سعيًا حثيثاً للاستيلاء على مصر . وتضاعف جهودها القديمة لتحقيق هذا الغرض . ومن المحقق أن مساعي إنجلترا خاصة في احتلال مصر قد تضاعفت واشتدت بعد أن شقت القناة أرض مصر ، وحبستها في ذلك أنها أزدادت الاطمئنان على هذا الطريق الجديد الواصل إلى الهند ، وتستأثر بوضع يدها عليه ، وهي حجة لا أساس لها من الحق والإنصاف ولكنها الأمر الواقع الذي توحى به مطامع الفتح والاستعمار . فأنجلترا بعد فتح القناة صارت أكثر تطلعاً وأقوى تحفزاً إلى احتلال مصر ، فلا عجب أن كانت مصر ضحية قناة السويس ، تلك حقيقة واقعة ، كان يجب أن لا تحوت سعيد باشا عندما منح امتياز القناة ، وأن يظن إليها إسماعيل باشا عندما بذل تأييده للمشروع بعد اعتلائه العرش حتى وصل به إلى غايته .

وإذا كان المؤرخون الإفرنج يعدون مشروع القناة أكبر مفخرة لسعيد باشا . فإننا نعهده بالعكس أكبر غلطة له في تاريخه ، لأنه بعمله هذا قد فتح باب التدخل الاستعماري في مصر على مصراعيه ، وجعلها هدفاً للمطامع الأوروبية .

ويزيد في تبعته أنه كان عالمياً برأى أبيه العظيم محمد علي ومعارضته في فتح القناة ، ويعلم عندما منح امتيازها أنه خالف وصايا أبيه الذي كان يعد القناة يوسفوراً ثانياً يجعل مصر واستقلالها عرضة للخطر .

إن المسألة المصرية قد دخلت دوراً جديداً بعد فتح القناة ، إذ صار ينظر إليها كأنها هي مسألة قناة السويس ، فكأنها اندمجت فيها ، وتبدلت أوضاعها تبعاً لهذا الاندماج . وصار النظر إليها من ناحية الدول الاستعمارية مرتبطاً بوجهة نظرها في مسألة القناة ، ومعلوم أن إنجلترا جعلت خطتها في مسألة القناة أن تسعى جهدها في وضع يدها عليها وعلى الأرض التي تجتازها ، وأن يكون بيدها مفاتيح القناة ، ولذلك وضعت نصب عينها أن تحتل مصر بعد أن تم فتح هذه الطريق البحرية الخطيرة الواصلة إلى مستعمراتها في الشرق .

فتفتح القناة يعادل في تأثيره الاستعماري بالنسبة للمسألة المصرية غزوة نابليون بونابرت ، فكما أن الحملة الفرنسية جعلت إنجلترا تتطلع إلى احتلال مصر ، كذلك كان شأن قناة السويس . والفارق بين الحادثين أن إنجلترا قد أخفقت في تحقيق مطامعها التي أثارها الحملة الفرنسية ، وارتدت عن الكفانة دون أن تنال منها مثلاً « وسويت المسألة المصرية في عصر

محمد علي طبقاً لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، تلك المعاهدة التي كفلت لمصر استقلالها الداخلي التام . وبقيت المسألة المصرية سائرة على منهاج تلك المعاهدة إلى أن تم فتح القناة . ومن ثم تغيرت أوضاعها . وسعت إنجلترا من جديد في تحقيق أطباعها القديمة التي أخفقت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فلا جرم أن كان فتح القناة مقدمة دور جديد للمسألة المصرية . ولقد كان هذا الدور شؤماً على البلاد ، إذ اجتمعت فيه الظروف السيئة التي مكنت إنجلترا من تحقيق أطباعها في مصر . فإن فتح القناة في ذاته ، وبيع إسماعيل أسهم مصر فيها إلى الحكومة الإنجليزية . قد هيأ لإنجلترا أن تحطو أول خطوة نحو الاحتلال .

فسيعد باشا لم ينظر إلى القناة كعمل حيوي لمصر ، وأغلب الظن أنه لم يوازن بين مزاياها ، ومضارها ، بل نظر إلى فائدتها للإنسانية فحسب ، ولقد زينت له نصائح المسيو فردينان دلسبس أنه بهذا العمل يعد من أكبر خدام الحضارة ، وبديهي أن النظر إلى القناة من وجهة فائدتها للإنسانية هو وهم لا يليق بالأمم التي تقدر معنى الوجود والحياة ، لأن حياة الأمة واستقلالها مقدمان على كل خدمة عامة للإنسانية ، وليس في تاريخ الشعوب قديماً وحديثاً أمة رضيت أن تضحي بأية مصلحة لها مهما ضوئت ، بله استقلالها ، في سبيل خدمة الإنسانية ، فالحق أن هذه أوهاام لا يجوز إلا على الأمم المستضعفة ، فإننا على العكس نرى الأمم التي تتخذها مثلاً للتقدم والعظمة تهزأ بتلك الأوهام ، وتضحى بمصالح الأمم والإنسانية جمعاء تحقيقاً لأطباعها الاستعمارية بل تستبيح كل الوسائل في سبيل السيطرة على العالم ، واستعباد الشعوب .

فن أضعف النظريات وأبعدها عن العقل والمنطق أن يقال إن سعيد وإسماعيل يستحقان الإعجاب لأنها خدما الإنسانية بإنفاذ مشروع القناة . والحقيقة المؤلمة أنها بعملها هذا قد مهد السبيل لاحتلال إنجلترا مصر .

والآن تنتقل من الإجمال إلى التفصيل فنقول : إن سعيد باشا بمنحه المسيو دلسبس امتياز القناة قد جلب على البلاد مضار جسيمة نذكرها فيما يلي :

أولاً : أن القناة عرضت استقلال مصر للخطر . ولم يكن هذا الخطر ليخفى على ذي بصيرة في الأمور . فلقد أدركه السياسيون الأوروبيون من يوم البدء في المشروع .

ومما يذكر في هذا الصدد أنه لما تم منح الامتياز كتب المستر بروس Bruce قنصل إنجلترا في مصر وقتئذ إلى حكومته يبينها بالخير ، ويقول في ختام رسالته : « إن فتح القناة سيؤدي إلى

ازدياد المواصلات التجارية بين أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأحمر ، وستنشأ طبعاً مراكز للدول الأجنبية في هذه البلاد .. ومن المنتظر أن تحدث منازعات بينها وبين تلك الشعوب ، فتتخذ ذريعة إلى التدخل المسلح في شؤونها . وهذا التدخل يفضي إلى الاحتلال الدائم ، ويتوقع أن تحدث هذه النتائج في مصر ذاتها .

فهذا التنبؤ الذي أدركه القنصل الإنجليزي سنة ١٨٥٤ هو ما كان يجب أن يتوقعه كل من عنده قليل من بعد النظر في السياسة ؛ وهو ما وقع على مر السنين ، فإن إنجلترا بعد أن تم فتح القناة سعت سعيها في احتلال مصر ، وتم لها ذلك سنة ١٨٨٢ أي بعد اثني عشر عاماً من افتتاح القناة للملاحة ، إذ كان افتتاحها سنة ١٨٦٩ ، ومن مصادقات القدر أنه عندما فتحت القناة كان المستر غلادستون على رأس الوزارة الإنجليزية ، وعندما احتلت إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢ كان هو أيضاً يشغل هذا المنصب .

ويدخل في هذا السياق ، أنه لما اشتدت معارضة إنجلترا في فتح القناة ، وجرت مفاوضات بشأن إتقانها بالعدول عن معارضتها ، كان مما اشترطته الحكومة الإنجليزية لموافقتها على المشروع احتلالها السويس ، وحمايتها للقناة ، فبتين من ذلك أن إنجلترا لم تكن تخفي نياتها الاستعمارية نحو مصر عند إنشاء القناة ، ولم يكن خافياً أن هذا المشروع يجعل استقلال مصر هدفاً لمطامعها الاستعمارية .

وفي هذا الصدد يقول مؤلف (تاريخ مصر المال) وهو من الكتاب الأوروبيين المشهود لهم بالاعتدال وأصالة الرأي : « إن منح امتياز القناة إلى المسيو دلسيس قد فتح أبواب الدلتا على مصراعها للأوروبيين » (١٤) .

ويقول المسيو كوشري Cocheris : « إن بدء الارتبكات المالية والتدخل الأوروبي المشؤم في شؤون مصر يرجع في الحقيقة إلى سنة ١٨٥٤ وهي السنة التي منح فيها امتياز قناة السويس إلى المسيو دلسيس » (١٥) .

ثانياً : أن سعيد باشا بقبوله إنشاء القناة على يد شركة أجنبية فتح ثغرة ثانية للتدخل الأجنبي ، وكان الضرر أخف وطأة لو فتحها مصر بنفسها ولحسابها .

(١٤) تاريخ مصر المال ص ٣ مؤلف لم يعلن اسمه (ولعله المسيو بابونو Paponot) وبعد كتابه من أهم المراجع في بيان حالة مصر المالية على عهد سعيد وإسماعيل .

(١٥) المركز الدولي لمصر والسودان للمسيو كوشري ص ٦٧ .

ثالثاً : أنه أسرف في منح الشركة امتيازات وحقوقاً جعلتها شريكاً مصر في سيادتها وجعلت منها حكومة داخل الحكومة كما سيجيء بيانه .

رابعاً : لم تستفد مصر من الوجهة الاقتصادية فائدة ما من القناة ؛ بل على العكس أضرت اقتصادياً ، لأن طريق التجارة بين أوروبا والشرق تحولت من داخل مصر إلى القناة المائية التي أصبحت ملكاً لشركة أوروبية ، فخسرت مصر الأرباح التي كانت تعود عليها من مرور المتاجر في وسط الدلتا بطريق النيل أو السكك الحديدية المصرية . وانتقلت هذه الأرباح إلى شركة القناة ، وهذا من غير شك خسران كبير .

خامساً : على الرغم من مضار المشروع لمصر فإنها أنفقت عليه من مالها نيفاً وستة عشر مليون جنيه ، بذلت في أسهم اكتتبت فيها ، وأملاك تنازلت عنها ، وأعمال قامت بها ، وتبويضات أدتها للشركة ، وقد خسرت هذه الملايين في وقت كانت أحوالها ما تكون إليها . ولإنفاذ مشروع كان شؤماً عليها من كل الوجوه .

ولئن عادت القناة يوماً إلى مصر فلا يمكن أن ننسى أن مصر خسرت فيها ثمناً باهظاً وتضحيات جسيمة ، ويكفي أنها بذلت لها ستة عشر مليون جنيه من أموالها ، ثم حرمت ما هو أعز من المال ، وهو الاستقلال ، وعندما تسترد مصر استقلالها تاماً فتكون قد حرمت استقلالها بسبب القناة ربحاً طويلاً من الزمن ، وهو حرمان لا يعوض بمال .

نبذة وجيزة في تاريخ المشروع

لم يسبق لحكومة مصرية قديمة أو حديثة أن وصلت البحرين الأبيض والأحمر بقناة ملحمة تخترق برزخ السويس .

في عهد الفراعنة والفتح الإسلامي

وإنما وقع الاتصال عن طريق النيل ، فكانت ترعة الفراعنة القديمة تخرج من فرع النيل البيلوزي القديم ، وتسير بمحاذاة وادي الطميلات ، ثم تتثنى جنوباً فتخترق البحيرات المرة . ثم تصب في البحر الأحمر .

وفي عهد الفتح الإسلامي أنشأ عمرو بن العاص « الخليج » المعروف بخليج أمير المؤمنين .

عمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ٢٣ هجرية ، وكان يصل النيل بالبحر الأحمر ، ويبدأ من مصر القديمة ، حيث يتدفق خليج مصر اليوم حتى القاهرة ، ومنها إلى نظرية . ومنها إلى العباسية . ثم يتبع آثار ترعة الفراعنة القديمة .

في عهد الحملة الفرنسية

وفي عهد الحملة الفرنسية فكر نابليون كما أسلفنا في الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية (ص ١٢٤) في وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ، وعهد بدرس هذا المشروع إلى المسيو (لويير) كبير مهندسي الري والطرق والجسور ، فقصى عامين في درسه وفحصه ، وعاونه فيه بعض مهندسي الحملة ، وقدم تقريراً إلى نابليون بعد مغادرته مصر ، وكان تصميم المشروع كما وضعه المسيو لويير أن تحفر قناة من السويس إلى البحيرات المرة ، ويعاد حفر خليج أمير المؤمنين إلى أن يتلاقى مع بحر موسى بقرب بوباسط (الزقازيق) ، ومن بحر موسى إلى فرع دمياط ، ومنه إلى ترعة الفرعونية ، ومنها إلى فرع رشيد ، ومنه إلى الإسكندرية بواسطة ترعة الإسكندرية ، وجهد المسيو لويير أيضاً فكرة وصل البحرين رأساً بواسطة ترعة أخرى تخترق برزخ السويس ، فيما بين بيلوز (الطنية) على البحر الأبيض المتوسط ، ومدينة السويس على البحر الأحمر ، غير أنه اعتقد خطأً أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار ، وقد نشر لويير مشروعه في كتاب (تخطيط مصر) بالجزء الحادى عشر ، وفيه بحث مستفيض عن تخطيط ترعة الفراعنة القديمة ، وخليج أمير المؤمنين ، وتخطيط الجهات التي ينفذ فيها المشروع ، ونفقات إنقاذه ، ويقع هذا البحث في أكثر من ثلثمائة صفحة ، وهو من أجل الأبحاث التي وضعها علماء الحملة الفرنسية .

في عهد محمد علي

جاء المسيو فردينان دلسبس إلى مصر لأول مرة سنة ١٨٣١ ، على عهد محمد علي باشا ، متولياً منصب مساعد للتفصيل الفرنسي ، فأبدى الباشا نحوه عطفًا كبيراً لما كان بينه وبين أبيه الكونت ماتيو دلسبس Mathieu Delesseps من صلات الصداقة القديمة منذ كان قسلاً لفرنسا في مصر سنة ١٨٠٣ . واتصل فردينان دلسبس بالأمير محمد سعيد ، إذ عهد

إليه أبوه أن يعنى بتربيته الرياضية ، فتعلم الأمير على يده أنواع الرياضة والمهارة في ركوب الخيل ، ومن هنا نشأت صلات الود بينهما . واستمرت صداقتهما طول حياة سعيد باشا . وقد وقع في يد المسيو دلسبس وهو في الإسكندرية بحث المسيو لويير عن وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر ، وأكسب على هذا هذا البحث يدونه درساً عميقاً ، فلم يلبث أن انجذبت نفسه إلى تحقيق مشروع الاتصال بين البحرين بقناة بحرية ، ثم انتقل من منصبه بالقطر المصري ، وطوحت به المناصب السياسية إلى مختلف الأقطار ، على أنه كان لا يفتر يفكر في أمر هذا المشروع .

لجنة سنة ١٨٤٦

وكان مشروع وصل البحرين بقناة ملحة موضع البحث والتفكير في أوروبا بين مختلف المهندسين من يوم أن وضع المسيو لويير تقريره عنه في عهد نابليون ، وكان الخطأ الذي وقع فيه المسيو لويير إذ ظن أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار عقبه يراها رجال الفن حائلة دون إمكان وصل البحرين عن طريق برزخ السويس . على أنه في سنة ١٨٤٦ تألفت من بعض المهندسين من مختلف الأمم لجنة فنية لدرس مشروع حفر القناة ، وجاء أعضاؤها إلى مصر لفحص المشروع في أواخر عهد محمد علي ، واستمروا على عهد عباس ، وعاونتهم الحكومة في إجراء تلك المباحث ، وعهدت بتخطيط المواقع إلى بعض كبار المهندسين مثل لبنان بك (باشا) وسلامة أفندي إبراهيم (باشا) وإبراهيم بك رمضان وطائل أفندي وغيرهم ، وانتهت اللجنة إلى فرق مستوى البحرين ليس أمراً ذا بال ، ورأت الوصل بينها بشق ترعة تجتاز الدلتا .

وكان محمد علي منذ البداية معرضاً عن مشروع القناة ، غير راغب فيه ، لما يتوقعه إذا تم من العواقب الوخيمة . فلم يستجب لدعوة المهندسين والمالين الأوربيين الذين زينوا له المشروع ، بل كان يرددهم بلطف وحكمة ، ويعددهم وبمبهم ، وفي الوقت نفسه يقصر الإعراض عن هذا المشروع حتى انتهى حكمه .

وقد بلغ به بعد النظر أنه لم يقبل أن يعهد إلى شركة إنجليزية مد سكة حديد بين القاهرة والسويس ، حتى لا تكون هذه السكة ذريعة إلى التدخل الأجنبي ، وكذلك أعرض عباس

بش الأول عن مشروع القناة ، وضرب صفحاً عن أبحاث اللجنة . وحارل المسيو فردينان دلسبس أن يقنعه بفائدة المشروع ، وأرسل تقريراً عنه إلى المسيو رويسر Ruysanaers فنصل هولندا العام في مصر ليعرضه على عباس ، ولكن الفكرة لم تلق من الأمير قبولاً . وأجبه فكره إلى تسهيل سبيل المواصلات بطريق البر بين الإسكندرية والسويس . بدلاً من شق ترعة ملحة بين البحرين ، فأصلح الطريق بين مصر والسويس ، وجعله صالحاً لمرور العربات من غير عناء ولا مشقة ، ثم شرع في إنشاء سكة الحديد بين الإسكندرية والقاهرة كما تقدم بيانه . وبسبب المسيو دلسبس من نجاح مشروعه على يد عباس الأول .

في عهد سعيد

فلما مات عباس وتولى الحكم سعيد باشا استبشر المسيو فردينان دلسبس خيراً بنجاح فكرته ، على يد صديقه القديم ، فأرسل إليه يهته بارتقاء العرش ، وبيبلغه عزمه على الحضور ليقدم له فروض الثباتي ، فأجابه سعيد على تهته ، واستدعاه إلى مصر ، فسرعان ما جاء الإسكندرية (في نوفمبر سنة ١٨٥٤) ، وقابله الباشا بحفاوة كبيرة ، ذاكراً صداقته القديمة ، ثم اصططحبه في رحلة من رحلاته الحربية التي كان يسير فيها على رأس جنده ، وسار معه من الإسكندرية إلى مصر عن طريق الصحراء الغربية ، وكان الأمير يقود في هذه الرحلة جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل .

فاغتم المسيو دلسبس هذه الفرصة ليفاتح سعيد باشا في أمر المشروع ، وكان لمهارته في ركوب الخيل أثر في تمهيد السبيل لنجاح مسعاه ، ذلك أنه امتطى صهوة جواد أهده له الأمير ، فوثب به يوماً عن حاجز من الأحجار ، على مرأى من قواد الجند من حاشية سعيد ، فأعجبوا به وبمهارته وفروسيته ، وفي مقدمة المعجبين به ذو الفقار باشا وزير المالية الذي كانت له منزلة كبيرة لدى سعيد باشا .

ففي اليوم التالي ، فاتح المسيو دلسبس سعيد باشا في أمر المشروع ، وزين له أنه إذا وقع اليد خلد ذكره واكتسب ثناء العالم بأسره^(١٧) ، بالرغم من أن سعيد باشا كان يصرح بأنه لا يخالف وصايا أبيه في الإعراض عن فتح القناة ، فإنه ضعف أمام إغراء المسيو دلسبس ،

(١٧) مراسلات ووثائق عن قناة السويس للمسيو دلسبس ج ١ ص ٤ .

وقبل المشروع ، ووعده بمساعدته ، وتأييده في تحقيقه ، واستدعى قواد جنده ، وعرض عليهم الفكرة ، وكانوا متأثرين إعجاباً بفروسيه المسيو دلسبس ، فسارعوا إلى استحسان المشروع ، دون أن يبحثوه ، أو يوازنوا بين مضاره ومزاياه ، فكانوا هم وسعيد في قصر النظر سواء . فانظر إلى ما صارت إليه شؤون الدولة في عهد سعيد ، وكيف كانت عظام الأمور بيت فيها من غير بحث أوروية ، ولا نظر في العواقب ، وهذا من أسباب الضعف الذي أصاب مصر في عهد خلفاء محمد علي ، وإنه لما يدعو إلى الدهشة والألم معاً ، أن مشروعاً خطيراً كقناة السويس يقرر في رحلة صحراوية ، من غير تمحيص ولا تفكير ، وأن مجرد إعجاب رجال الدولة « بفروسيه المسيو دلسبس ومهارته في ركوب الخيل كان كافياً لإقرار المشروع . . ! ولم يفك المسيو دلسبس ملاحظة هذه الحقيقة المؤلمة ، فقد أشار إليها ، في شيء من التهكم والسخرية ، قال في هذا الصدد : « جمع سعيد باشا قواد جنده ، وشاورهم في الأمر ، ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل ويقفز بجواده على الحواجز والخطائق أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف ، انحازوا إلى جانبي ، ولما عرض عليهم الباشا تقريرى عن المشروع ، بادروا إلى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه ، وكانت النتيجة أن منحنى الباشا ذلك الامتياز العظيم^(١٨) .

وقال في موضع آخر : « بعد أن قبل سعيد باشا المشروع واستدعى قواد جنده ، ودعاهم إلى الجلوس أمامه ، وقص عليهم الحديث الذي دار بيننا ، وطلب إليهم أن يبدوا رأيهم في مشروع «صديقه» ، فلم يكن من هؤلاء المستشارين ، وقد فوجئوا بهذا الاقتراح وهم أقدر على إبداء الرأي في مناورات الخيل منهم في التكلم عن مشروع عظيم لا يستطيعون فهم مراميه ، إلا أن نظروا إلى بجلء أعينهم ، كأنما يريدون إفهامى أن صديق مولاهم الذي رأوه يقفز على الحائط راكباً جواده بتلك المهارة ، لا يمكن أن يدلى إلا بأراء صائبة ، وكانوا أثناء الحديث يرفعون أيديهم إلى رؤوسهم بين آونة وأخرى علامة على الموافقة^(١٨) .

وذكر عن سعيد باشا ذاته (ص ٥٧) أنه قال له بعد أن منحه الامتياز : « أعترف لك بأنى لم أفكر طويلاً في الموضوع ، وإنما هى مسألة شعور ، وليس من عادتي أن أقلد الناس في ما يتبعون ويعلمون . . .

(١٧) أصول قناة السويس ص ١٥ .

(١٨) أصول قناة السويس ص ٤٠ .

منح امتياز القناة

(٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤)

ولما بلغ سعيد باشا القاهرة أنزل المسيو دلسيس ضيفاً عنده . محفوقاً بالإكرام والرعاية ، ولم تحض أيام معدودات حتى منحه بمقتضى العقد المؤرخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ امتياز تأسيس شركة عامة خفر قناة السويس ، واستأجرها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ فتح القناة للملاحة^(١٩) . وهكذا نال دلسيس بغيته التي كان يسعى لها منذ ثلاث وعشرين سنة . وهذا العقد هو المعروف بعقد الامتياز الأول : تمييزاً له عن عقد الامتياز الثاني المؤرخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ الذي سهرد الكلام عنه .

وقد عهد سعيد باشا إلى مهندسيه لبنان بك ، وموجيل بك . أن يرافقا المسيو دلسيس إلى برزخ السويس ، لدرس المشروع وتطبيقه على طبيعة الأرض ، ورفع تقرير إليه عن نتيجة مباحثهم ، وكان رأياً من قبل في جانب المشروع .

فقام المهندسان الفرنسيان والمسيو دلسيس بهذه المهمة ، وانتهى بهم البحث إلى الاتفاق على طريقة تنفيذ المشروع ، وهي أن تنشأ القناة مستقيمة في أضيق تقطعة في البرزخ : بين موقع بيلوزة (بور سعيد الآن) على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر .

حصص التأسيس

ثم جمع المسيو دلسيس من بعض المالكين حصص التأسيس لشركة القناة التي أزمع تأليفها ، وجعل قيمة الحصص خمسة آلاف فرنك (٢٠٠ جنيه) وخصص قيمة هذه الحصص لنفقات المشروع الأولى ، على أن تحول قيمة الحصص إلى أسهم خاصة في الشركة عندما يتم تأليفها .

(١٩) فحقت القناة للملاحة يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أي أن مدة الامتياز انتهت في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ وتصبح القناة بعدها ملكاً لمصر .

لجنة دولية لدرس المشروع

وانتخب المسيو دلسيس باتفاقه مع سعيد باشا (في نوفمبر سنة ١٨٥٥) لجنة دولية من المهندسين الفنيين لدراسة المشروع ثانية ، بعد اطلاعها على تقرير لبنان بك وموجيل بك ، لتبدي رأياً في صلاح المشروع وإمكان تنفيذه ، وذلك حتى يطمئن الناس إلى نجاحه ، فيقبلون على الاكتاب في أسهم الشركة عند تأليفها .

فذهب أعضاء اللجنة إلى برزخ السويس ، وأجروا مباحثهم الهندسية ، ووافقوا على المشروع كما وضعه لبنان وموجيل ، بعد أن ثبت لهم أن سطح البحرين واحد ، وأن الأرض صالحة لاجتياز القناة الملحة .

شروط الامتياز

(٥ يناير سنة ١٨٥٦)

ولما أتمت اللجنة مباحثها عرض المسيو دلسيس نتيجة هذه المباحث على سعيد باشا ، فأصدر له عقد الامتياز الثاني بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦م - (٢٦ ربيع الآخر سنة ١٢٧٢ هـ) . صدق فيه على الامتياز السابق منحه إلى المسيو دلسيس . وضمنه شروط الامتياز التي حولها الشركة ، وكانت شروطاً فادحة ، لا ترضى بها حكومة رشيدة ساهرة على مصالح البلاد ، وهاك خلاصتها :

١ - منحت الحكومة الشركة امتياز إنشاء قناة السويس بين خليج الطينة على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر . وإنشاء ترعة للعياء العذبة صالحة للملاحة النيلية تستقى من النيل ، وتصب في القناة الملحة ، وإنشاء فرعين للرعى والشرب يستمدان مياههما من الترعة المذكورة ، ويصلان إلى السويس والطينة (بور سعيد) (مادة ١ من عقد الامتياز) .

٢ - تنازلت الحكومة للشركة مجاناً عن جميع الأراضي المملوكة لها والمطلوبة لإنشاء القناة الملحة وترعة المياه العذبة وتوابعها ، وهي مساحات شاسعة على طول القناة والترع المزمع

إنشائها . بعرض كيلو مترين من الجانبين^(٢٠) . تنازلت عنها الحكومة بلا مقابل ، مع إعفائها على الدوام من الضرائب ، وتنازلت أيضاً عن جميع الأراضي القابلة للزراعة لتستصلحها الشركة وترويبها وترعها ، مع إعفاء هذه الأطنان من الضرائب مدة عشر سنوات من تاريخ استئجارها (مادة ١٠) .

٣ - حولت الشركة (عدا ما تقدم) حق انتزاع الأراضي المملوكة للأفراد لما ترى لزومها لإجراء الأعمال والانتفاع بالامتياز ، في مقابل أن تدفع الشركة لأصحابها تعويضات « عادلة » (مادة ١٢) . ومعنى ذلك نزع ملكية الأفراد لمصلحة الشركة .

٤ - على أصحاب الأطنان الواقعة أملاكهم على ضفاف الترغ التي تنشأ الشركة إذا أرادوا رى أراضيهم بمياها أن يحصلوا على ترخيص بذلك من الشركة في مقابل تعويض يؤدونه لها (مادة ٨) .

٥ - منحت الحكومة الشركة طول مدة الامتياز الحق في أن تستخرج من التاجم والمهاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال الملباني وصيانتها وملحقات المشروع ، دون دفع أى رسم أو ضريبة أو تعويض ، وتعفى الحكومة الشركة من الرسوم الجمركية ، والعبائد عن جميع الآلات والمواد التي تستوردها من الخارج (مادة ١٣) .

٦ - حدد أجل الامتياز بمدة ٩٩ سنة من افتتاح القناة البحرية للملاحة ، وبعد انتهاء هذه المدة تؤول القناة إلى الحكومة المصرية (مادة ١٦) .

ولكن هذه المادة قيدت هذا الحق بشرط قد يؤدي إلى تعطيله ، أو يفتح باباً للمشاكل ، وهو وجوب أخذ الحكومة في هذه الحالة جميع المعدات والمعدات Matériel et approvisionnements المخصصة لأعمال المشروع البحرية ، وأن تدفع للشركة قيمتها التي تقدر بالتراضي أو بناء على تقدير الخبراء .

وليس ما يمنع الشركة أن تبالغ في تقويم المعدات التي خصصتها أو تخصصها في المستقبل للمشروع . أو أن تعتمد الإسراف فيها لتعجيز الحكومة ، ولكي تخلق العقبات التي تعترض حق مصر في استرداد القناة .

ثم إن المادة ١٦ لم تذكر شيئاً عن المنشآت التابعة لها ، كالمباني ، وقد كان العقد الأول (مادة ١٠) ينص على أن شأنها شأن القناة في رجوعها للحكومة . دون مقابل ، فالعقد الثاني

(٢٠) مراسلات ويدييات ووثائق عن القناة للمسيو دلسيس ج ٣ ص ٣٥٦ .

كما ترى صيغ في أسلوب مجحف بحق مصر كل الإجحاف . وهذا يدل على الروح التي أملت شروطه ، وأغلب الظن أن سعيد باشا ترك تحريره إلى « صديقه » المسيو دلسيس (كما يصفه في العقد) ولم يراجعه في شيء من نصوصه .

٧ - حولت الشركة حق فرض ما نشاء من الرسوم على السفن التي تمر في القناة البحرية أو الترغ والثغور التابعة لها على شرط أن لا تزيد في النهاية العظمى عن عشرة فرنكات عن كل طن وكل شخص من المسافرين (مادة ١٧) .

٨ - في مقابل الأراضي والامتيازات الممنوحة للشركة تحصل الحكومة المصرية على حصة قدرها ١٥ في المائة من صافي الأرباح السنوية (مادة ١٨) .

وقد خسرت مصر هذه الحصة سنة ١٨٧٩ ، وذلك أنه لما ارتبكت أحوالها المالية بسبب إسراف إسماعيل باعت هذا النصب إلى البنك العقاري بفرنسا مقابل ٢٢ مليون فرنك .

٩ - يكون أربعة أطناس العمال من المصريين (مادة ٢) . وتعهدت الحكومة ببذل مساعدتها للشركة وتكليف جميع موظفيها وعاملها في جميع دوائر المصالح أن يمدوا الشركة بمساعدتهم لها (مادة ٢٢) . وقد فسرت الشركة هذه النصوص على أنها تعهد من الحكومة بتسخير أربعة أطناس العدد الذي تطلبه الشركة من العمال ، وأن يكونوا من الفعلة والفلاحين المصريين لإجراء أعمال الحفر والإنشاء ووضعهم تحت تصرف الشركة لتشغيلهم فيما تريده من الأعمال مقابل دفع أجورهم .

وكان عقد الامتياز الأول (مادة ٢) يخول الحكومة حق تعيين مديري الشركة ولكن هذا الحق لم يظهر له أثر في عقد الامتياز الثاني ، وهذا العقد يقضى بإلغاء النصوص الواردة في العقد الأول مما يخالف أحكام العقد الثاني ، واقتصرت المادة (٢٠) من العقد الثاني على أنه : « يرأس الشركة ويديرها صديقنا ووكيلنا المسيو فردينان دلسيس بصفته المؤسس لها طوال المدة التي تستغرقها الأعمال ، ثم لمدة أخرى قدرها عشر سنوات تبتدئ من تاريخ استغلال الامتياز » . ومعنى ذلك أن الحكومة المصرية خسرت في عقد الامتياز الثاني حق تعيين مديري الشركة ، وحفظ لها فقط حق تعيين « مندوب » عنها لدى الشركة يمثل حقوق الحكومة ومصالحها في تنفيذ العقد .

وكان العقد الأول ينص (بالمادة ٤) على أن الحصون التي ترى الحكومة لزوم إنشائها في منطقة القناة لا تكلف بها الشركة ، وقد أغفل هذا النص في العقد الثاني ، وفسر إغفاله بأن

لاحق للحكومة في إقامة الحصون في هذه المنطقة .

وإنك لترى في هذه الشروط روح التساهل والإسراف التي تعاقدها سعيده باشا مع الشركة ، فإنه خوفاً مزايًا جعلها تشارك الحكومة المصرية في حقوق ملكيتها العامة وسيادتها ، وملكها مرافق ومنافع عامة ليس للأفراد من أهل البلاد حق تملكها ، وهكذا جعل منها دولة داخل الدولة المصرية ، وليس من عجب أن يحوى عقد الامتياز تلك الشروط الفادحة فإن المسيو دلسيس هو الذى تولى تحرير العقد ووضع فيه ما شاء من النصوص والأحكام .

مقاومة إنجلترا للمشروع

اشترط سعيده باشا لصحة الامتياز أن يصدق عليه السلطان العثماني ، على أنه كان معترفاً بتنفيذه بصرف النظر عن هذا التصديق ، وأعطى المسيو دلسيس العهود والمواثيق ألا ينظر إلى هذا التصديق إلا كمظهر شكلي ليس بذي بال ، وفي الواقع إن ما نالته مصر من حقوق الاستقلال الداخلي طبقاً لمعاهدة لندن لا يجعل مثل هذا التصديق ضرورياً لصحة الامتياز ، ولكن دلسيس أراد زيادة الاطمئنان على مشروعه ، فذهب إلى الآستانة يلتبس فرمان التصديق . فألقى مناهضة للمشروع من السفير البريطاني بإيعاز من اللورد بالمستون وزير خارجية إنجلترا في ذلك الحين .

وكانت السياسة الإنجليزية ترمى حينذاك إلى عرقلة المشروع خشية امتداد النفوذ الفرنسي في مصر ، وخوفاً على طريق المرور إلى الهند تحت سيطرة دولة سواها .
مقاومت المشروع من طريق الحكومة التركية ، إذ حرضتها على رفض التصديق ، ثم من طريق الأسواق المالية إذ ألفت في روع المالكين أن المشروع خيالي لا يمكن تحقيقه .

معاودة سعيده للمشروع

على أن سعيده باشا قابل هذه المقاومة بمعاودة المسيو دلسيس في مشروعه ، وكانت صداقته لدلسيس تدفعه إلى تدليل العقبات لإنجاح المشروع ، فبذل له أولاً المبالغ المنهورة في خزانة الحكومة وقتئذ وقدرها ١٠٠ ألف جنيه ليستعين بها على العمل .

تأليف الشركة

وفي ٥ نوفمبر ١٨٥٨ عرض دلسيس أسهم الشركة للاكتتاب العام بفرنسا وغيرها من البلدان ، فلقبت إقبالاً عظيماً ، وغطت أسهم الاكتتاب عدة مرات ، وتألفت الشركة في ديسمبر سنة ١٨٥٨ .

وجعل رأس مالها ٢٠٠ مليون فرنك (٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه تقريباً) موزعة على ٤٠٠,٠٠٠ سهم ، قيمة السهم خمسمائة فرنك (٢٠ جنيهاً) ، ثم قسم السهم إلى نصفين فصار عدد الأسهم ٨٠٠,٠٠٠ سهم ، وقد صارت قيمة السهم الأصلي الآن (سنة ١٩٣٢) حوالي ١٥٠٠٠ فرنك بعد أن كانت ٥٠٠ فرنك .

واكتب سعيده باشا بـ ١٧٧,٦٤٢ سهماً^(٢١) أن بما يقرب من نصف مجموع الأسهم ، ودفع جزءاً من ثمنها وقسط الباقي على سنوات .

البدء في حفر القناة

(٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩)

وفي ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ ذهب المسيو دلسيس بصحبة أعضاء مجلس إدارة الشركة إلى شاطئ البحر الأبيض ، في الموقع الذي أنشئت فيه بعد ذلك مدينة بورسعيد ، وأقيم هناك احتفال حافل ضرب فيه دلسيس أول معول في أرض القناة ، واقتدى به الحاضرون ، فكانت تلك الضربة إيذاناً بالمشروع في العمل ، وكانت في الواقع أول ضربة في صرح استقلال مصر .

ثم أخذ العمال يعملون في حفر الأرض ، ولم يكن قد صدر فرمان العثماني بالتصديق على الامتياز ، ولكن سعيده أراد أن يضع تركيا وإنجلترا أمام الأمر الواقع ، ويعضد المشروع بكل ما لديه من حول وقوة ومال .

وقد هاج هذا العمل غضب الحكومة الإنجليزية . فسعت سعيدها لدى تركيا لوقف العمل ،

(٢١) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٤ ص ١٣٣ .



ابتداء العمل في حفر القناة (٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩)

وترى في الصورة السيد دلسيس ممسكا بيده معولا للحفر وحوله العمال المصريون يبدون في حفر القناة

ومرت ظروف ساعدت إنجلترا في مساعها ، ففي مايو سنة ١٨٥٩ شبت الحرب في ربوع إيطاليا بين فرنسا والنمسا ، فالت فرنسا إلى محاسنة إنجلترا ، وتراخت في تأييد المشروع إرضاء للحكومة الإنجليزية ، وكادت إنجلترا تنجح في مساعها لإحباط المشروع وديرت مع الباب العالى خلع سعيد باشا ، وجاء الأسطول الإنجليزي إلى نغر الإسكندرية في يونيه سنة ١٨٥٩^(٢٢) ، ولكن التدبير لم يتم ، وتردد سعيد في الأمر ، وعهد إلى شريف باشا وزير الخارجية وقتئذ أن يرسل للسيد دلسيس كتاباً يطلب إليه فيه وقف العمل^(٢٣) ، على أن الحرب بين فرنسا والنمسا ما لبثت أن وضعت أوزارها ، وعقدت بين الدولتين الهدنة المعروفة بمصالحة (فيلا فرنكا) Villa Franca ، فنفذت كلمة فرنسا في ميدان السياسة العامة ، وعادت إلى مناصرة المشروع وتأييده ، غير أن الحكومة الإنجليزية ما فتئت تسعى لدى حكومة الأستانة حتى جعلتها تصدر أمراً إلى سعيد باشا بوقف أعمال الحفر في برزخ السويس ، وأوقدت مندوباً عنها يدعى مختار بك إلى مصر يحمل هذا الأمر إلى سعيد .

فعاد نابليون الثالث بيدل نفوذه لدى تركيا لحملها على إبطال هذا الأمر ، وهكذا كان للسياسة الفرنسية اليد الطولى في نجاح المشروع ، واطمأن سعيد باشا إلى رعايتها إياه ، وعاد إلى معاوضة المشروع بكل قواه ، وبلغ به تفانيه في تعضيدته أن سخر الفلاحين ليعملوا في حفر

(٢٢) ورد ذكر الأسطول الإنجليزي وحضوره إلى النغر المصرية في كتاب «مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة» ج ٣ ص ١٢٤ .

(٢٣) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٣ ص ١٣٣ .

القناة ، وكان يأمر بجلبهم من بلادهم وقراهم ، وبلغ عددهم نحو ٢٥,٠٠٠ عامل ، كانوا يقاسون الشدائد والأهوال في عمل لم تنتفع منه مصر بأية فائدة ، بل عاد عليها بالويل والحسران .

وقد سار العمل في إنفاذ المشروع وحفر القناة الملحة إلى أن جرت فيها مياه البحر الأبيض حتى بجرة التماسح ، وذلك في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٢^(٢٤) . وإلى هذه المرحلة وصلت القناة في عهد سعيد باشا ، إذ أدركته الوفاة بعد ذلك بشهرين في ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ، تاركاً لإسماعيل إتمام ما بدأ به ، والوصول بالمشروع إلى نهايته .

٢ - بدء القروض الأجنبية

بدأ عهد القروض الأجنبية خلال حكم سعيد باشا ، فكانت هذه البداية نذير الكوارث المالية والأحداث السياسية التي أصابت البلاد في عهد إسماعيل وتوفيق . ولا ندرى ما الذي حمل «سعيد» على أن يوجه وجهته نحو الاقتراض ، ولم يكن ذلك من سنة أبيه ، كما أن الحكومة لم تكن في حاجة ملحة إلى الاستدانة من البيوت المالية . فإن سنوات سعيد كانت في الجملة سنوات يسر ورخاء ، ولم تقع في خلالها حروب طويلة تستنفذ موارد الحكومة المالية .

يقولون إن نفقات الجيش زادت عن المقدر لها في الميزانية ، فاضطر سعيد إلى الاقتراض ، ولكن هذا السبب لا ينهض حجة لتسويغ عمله ، فإن «سعيد» ذاته كان لا يستقر على وتيرة واحدة في تقوية الجيش وزيادة عدده ، بل كان - لأسباب غير مالية - يصرف أحياناً معظم قواته الحربية ، وقد كان أجدر به أن ينقص من ميزانية جيشه إذا وجد أن حالة الخزنة لا تسمح باستبقاء جيش عرمرم يكلف البلاد ما لا طاقة لها به من النفقات ، والواقع أن قصر النظر السياسي هو الذي دعاه إلى مديد الاستدانة من الخارج ، ففتح على البلاد باب التدخل الأجنبي .

وفي ذلك يقول مؤلف (تاريخ مصر المائى) : « إلى سعيد باشا يرجع الفضل التعس في

(٢٤) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٥ ص ٦ .

عقد أول قرض اقترضته مصر من أوروبا^(٢٥).

وقال في معرض المقارنة بينه وبين محمد علي وإبراهيم :

« لقد استطاع محمد علي وابنه الأكبر إبراهيم أن ينهضوا بالبلاد ويجاهدا في سبيل استقلالها ، ذلك الجهاد الذي كلال بالنصر ، دون أن يكون لديها من الموارد المالية سوى ميزانية لا تتجاوز خمسين مليون فرنك » .

ذلك ما يقوله أوروي خبير ، لا يمكن أن يرمى بالتحامل على بلاده ، فهو يصارحنا في كتابه بأن الاستدانة من أوروبا كانت عملاً نعتاً .

عقد سعيد أول قرض ثابت سنة ١٨٦٢ ، ومقداره الاسمي ٢,٢٤٢,٨٠٠ جنيه إنجليزي من بنك فروهنج وجوشن بلندن بفائدة ٧ في المائة ، أما قيمته الحقيقية فكانت ٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه تقريباً ، أي أن مصر خسرت من رأس ماله ٨٠٠,٠٠٠ جنيه وزيادة ، وتعهدت بوفاء هذا الدين على ثلاثين سنة ، قيمة القسط السنوي من رأس مال وفوائد ٢٦٤,٠٠٠ جنيه ، أي أن مجموع الأقساط ٧,٩٢٠,٠٠٠ جنيه ، في حين أن أصل الدين ٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه ، وهذا القرض الثابت فإنه ابتدع طريقة السندات على الخزانة وهي أن يستدين من الرابين ديونا سائرة بواسطة سندات يجرها على الخزانة بالقيمة المقرضة ، وتلك وسيلة خطيرة على مالية البلاد ، لأنها استدانة لا ضابط لها ولا حساب ، ولا رقابة عليها ، فإذا اندفعت الحكومة في سبيلها تورطت في الديون المعروفة بالديون السائرة ، دون أن تلتفت إلى الخطر الذي ينجم عن الاستدانة منها .

وقد اختلفت الآراء في إحصاء الدين السائر الذي استدانه سعيد باشا ، وكلها متفقة على أنه كان متلاًفاً للنقد ، لكثرة نفقاته على قصوره ، ومعيشته الخاصة ، وطمع المرابين فيه لما جبل عليه من السخاء وعدم التدقيق في حسابه .

وإذا أخذنا بإحصاء مؤلف (تاريخ مصر المالي) الذي عرف عنه الاعتدال في كتابته كان الدين العام الذي تركه سعيد حين وفاته ١١,١٦٩,٠٠٠ جنيه^(٢٦) ، فإذا استبعدنا منه الدين

(٢٥) تاريخ مصر المال ص ١ .

(٢٦) تاريخ مصر المال ص ١٢ .

الثابت بلغت الديون السائرة ٧,٨٦٨,٠٠٠ تقريباً ، وهو مبلغ فادح تنوء به مالية البلاد في ذلك العصر .

ولو سلم عهد سعيد من القروض الأجنبية ، ولم يمنح امتياز القناة . لكان محتملاً أن تتغير المصائر وتبديل النتائج في تاريخنا القومي .

وفاة سعيد باشا

(١٨ يناير سنة ١٨٦٣)

ذهب سعيد باشا إلى أوروبا ليستشفى من مرض عضال أصابه ، ولم ينجح فيه دواء فرجع إلى الإسكندرية في أواخر سنة ١٨٦٢ ، والداء قد استعصى علاجه ، فما زال يشد به ويهد من قواه حتى أدركته منيته في صبيحة ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ (٢٧ رجب سنة ١٢٧٩) وله من العمر ٤٢ سنة ، وكانت مدة حكمه ثمان سنوات وتسعة أشهر وستة أيام^(٢٧) ، ودفن بالإسكندرية بمسجد النبي دانيال ، ولا يزال قبره هناك .

• • •

(٢٧) عن التوفيقات الإلهامية للواء المصري محمد مختار باشا ص ٦٤٠ ، وهذا التاريخ (١٨ يناير) يوافق ما ذكره السيوطي في وثائق القناة ج ٤ ص ٢٧٦ .

الفصل الثالث

عصر الخديوى إسماعيل

(١٨٦٣ - ١٨٧٩)

نظرة عامة

إن عصر الخديوى إسماعيل هو فى مجموعته صورة لتاريخ مصر القومى والسياسى والاقتصادى فى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، إلى مقدمات الثورة الغرايية ، وإذا أدركنا أن نصفه بكلمة عامة ، فهو كما قلنا فى مقدمة الكتاب عصر له أثره النافع كما له أثره الضار فى تطور الحركة القومية ، ذلك لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من حضارة وعمران ، وما تحلله به من أخطاء وأرزاء أفضت إلى تدخل الدول الأجنبية فى شئون مصر ، وتصدع لها بناء الاستقلال المالى ثم السياسى .

بهذه الكلمة الوجيزة ، يمكننا أن نلخص عصر إسماعيل ، فهو يمثل من ناحية عهد تقدم وعمران ، وبعد من ناحية أخرى عهد القروض المشثومة والأغلاط المتلاحقة التى عصفت باستقلال البلاد .

وإذا كانت مصر تشعر إلى اليوم بتأثير النهضة التى قامت فى ذلك العصر ، وتلمس آثارها ببيديها ، فإنها أيضاً تعانى إلى اليوم نتائج الأرزاء والأحداث التى وقعت فيه ، وتدفع ثمنها غالباً ، من مالها ، وحقوقها . وحريتها . واستقلالها .

وبعد هذا العصر أقرب العصور صلة بالعصر الحاضر ، لأن معظم القيود والنظم التى حلت بمصر على عهده لا تزال قائمة إلى اليوم (١٩٣٢) فالتشريع المختلط ، وتغلغل الأجانب فى مرافق البلاد ، والديون التى كبلت البلاد حكومة وشعباً ، والتدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية والسياسية ، كل هذه القيود ترجع إلى عصر إسماعيل .

نشأة إسماعيل

هو إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي ، وهو ثاني أنجال إبراهيم باشا ، من والده غير والدني أخويه الأميرين أحمد رفعت ومصطفى فاضل .

ولد في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ ، في قصر المسافر خانة بالقاهرة (بالجمالية) ، وعنى أبوه بتربيته ، فتعلم مبادئ العلوم ، واللغات العربية والتركية والفارسية ، وقليلاً من الرياضيات والطبيعات .. وأرسله أبوه إلى فينا عاصمة النمسا ، وهو بعد في الرابعة عشرة من عمره ، ليعالج بها من رمد صديدي أصابه ، ولتكمل تربيته ، وقضى بها عامين ، ثم انتقل إلى باريس ليتنظم في سلك البعثة المصرية الخامسة ، فانضم إلى تلاميذها ، وكان من بينهم الأمير أحمد رفعت أخوه .. والأميران عبد الحلیم وحسين من أنجال محمد علي ، ونال في باريس حظاً من العلوم الهندسية والرياضية والطبيعية ، وأتقن اللغة الفرنسية كتابةً وكلاماً ، زهيرته باريس وما فيها من جمال وروعة ، وغواية وفتنة ، ومن هنا نشأت ميوله الباريسية ، التي لازمته طول حياته ، وجعلته بعد أن تولى الحكم يسعى في أن يجعل القاهرة باريساً ثانية . ولوكلفه ذلك أن يمد يده إلى القروض التي نادت بها البلاد ، وظاهر من مبلغ تعلمه أنه لم ينل من المعارف والثقافة في باريس أو في فينا حظاً كبيراً ، بل اقتصر على مبادئ العلوم ، ولم يستفد من مكنته بباريس إلا نصيباً قليلاً من العلوم الهندسية والحربية ، وأتقن اللغة الفرنسية التي كان يتكلمها كأحد أبنائها ، وكان له في ذكائه بعض العوض عما ينقصه من العلوم .

عاد إسماعيل إلى مصر في عهد ولاية أبيه إبراهيم باشا ، ولما مات إبراهيم خلفه في الحكم عباس الأول ، وكان يحقد على عمه ويحفوه ، فلما تولى الحكم شعر إسماعيل وأخوته بكرهية عباس لهم ، ثم مات محمد علي ، واشتد الخصام بين عباس وبقية الأمراء على تقسيم ميراث جده ، وارتحل إسماعيل وبعض الأمراء إلى الأستانة ، وعينه السلطان عبد المجيد عضواً بمجلس أحكام الدولة العثمانية ، وأنعم عليه بالباشوية ، ولم يعد إلى مصر إلا بعد مقتل عباس في أثناء حكم سعيد ، ولما عاد من الأستانة لقي من عمه سعيد باشا عطفاً كبيراً ، وعهد إليه برئاسة (مجلس الأحكام) الذي كان أكبر هيئة قضائية في البلاد ، وأوفده سنة ١٨٥٥ في مهمة سياسية لدى الأمبراطور نابليون الثالث تتعلق بسعي سعيد لدى الدول في توسع نطاق استقلال



إسماعيل باشا (خديو مصر)
من سنة ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩

مصر - بعد اشتراكها مع الحلفاء في حرب القرم ، فأدى إسماعيل هذه المهمة بما مثار به من ذكاء ونباهة . ووعده نابليون الثالث بتأييد مقترحة في مؤتمر الصلح بباريس ، ولكنه لم يحقق وعده . وكذلك قابل البابا (بيو التاسع) في رحلته موفداً من قبل سعيد ، فذكره خير الرومانى مثواه ، ثم عاد إلى مصر .

ولم يكن إسماعيل يفكر أثناء حكم سعيد باشا في أن يؤول إليه العرش من بعده ، إذ كان يحجبه عنه أخوه الأكبر الأمير أحمد رفعت ، ولكن حادثاً فجائياً ساقته الأقدار سنة ١٨٥٨ أزالته العقبة القائمة في سبيله ليكون ولياً للعهد . ذلك أن سعيد باشا أقام بالاسكندرية حفلة دعا إليها أمراء البيت العلوى ، فلبوا الدعوة ، ومن بينهم أحمد رفعت ، أما إسماعيل فقد اعتذر عن إجابته لوعك في صحته ، وفيما كان الأميران عبد الحليم وأحمد رفعت عائدتين إلى القاهرة بقطار خاص مع حاشيتهما ، سقطت العربة التي تقلها في النيل عند كفر الزيات ، فغرق أحمد رفعت ، ونجا عبد الحليم ، فأصبح إسماعيل بعد غرق أخيه ولي عهد الأريكة المصرية بحكم نظام الوراثة القديم .

وقد مرّن إسماعيل على بعض مناصب الدولة ، وهو بعد ولي للعهد ، فاستخلفه سعيد مرتين ، وجعله نائباً عنه (قائمقام) أثناء غيبته عن مصر ، المرة الأولى حينما زار سوريا سنة ١٨٥٩ ، والمرة الثانية حينما ذهب إلى الحجاز لزيارة المدينة المنورة في أوائل سنة ١٨٦١ . وكان سعيد يبدى لابن أخيه ارتياحه من الطريقة التي أدى بها أعمال النيابة عنه ، ولما عاد للمرة الثانية إلى مصر جعله سرداراً للجيش المصرى ، وعهد إليه إخماد فتنة بعض القبائل في السودان ، فاضطلع بهذه المهمة دون أن يسفك فيها قطرة من الدماء . ولما أدركت « سعيد » الوفاة خلفه على عرش مصر في ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ .

سياسة مصر الخارجية في عهد إسماعيل

نبدأ بالكلام عن سياسة مصر الخارجية ، لأنها كانت ذات الأثر الفعال في شئوننا الداخلية . ولعل ذلك ناشئ عن أن إسماعيل كان يضع السياسة الخارجية والحطط المرتبطة بها في المكان الأول من الأهمية ، وتلها المسائل الداخلية . فلنبحث إذن عن سياسة مصر الخارجية ، وهذه السياسة وجهان : أولهما علاقة مصر

بتركيا ، والثاني علاقتها بالدول الأوروبية .

فعباً يتعلق بتركيا كانت الخطة التي ترسّمها إسماعيل ، هي توسيع نطاق استقلال مصر ، وكسب أكثر ما يمكن من الحقوق والمزايا من الحكومة العثمانية ، حتى يصل بالبلاد إلى الاستقلال التام .

ولاشك أن هذه نزعة ممدوحة ، تعد من مفاخر إسماعيل ، فإن الوصول بالبلاد إلى استقلالها التام هي الغاية التي ترمى إليها الحركة القومية .

أما فيما يخص علاقات مصر بالدول الأوروبية ، فقد كان إسماعيل يصدر عن فكرة أخرى ، تنافى فكرته في علاقه بتركيا ، فبينما هو يعمل على تحرير البلاد من بقايا السيادة التركية ، إذ هو لا يقادى مصر من النير الأجنبي المالى والسياسى ، بل كان يتسبب في تطويقها بسلاسل التدخل الأوروبى ، بحيث لم يوشك عهده أن يقارب نهايته ، حتى تصدع بناء الاستقلال المالى والسياسى الذى كسبته مصر في عصر محمد على .

ولو أنه بذل في سبيل بقاء البلاد حرة من أخطار التدخل الأجنبى جزءاً ولو يسيراً مما كان يبذله للانفصال عن تركيا ، لحقق مشروع الاستقلال التام لمصر والسودان ، ولافتن اسمه في التاريخ بهذا المشروع القومى العظيم ، ولكنه كان لا يحسب حساباً للتدخل الأوروبى ، وما يتطوى عليه من المطامع التي تهدم كيان الاستقلال ، وهذا الخطأ الجسم ، في سياسة إسماعيل الخارجية ، ناشئ عن نزعته الأوروبية ، فإن هذه النزعة جعلته يثق بأوروبا ، والدول الأوروبية ، والجاليات الأوروبية ، ثقة عمياء ، ويركن إليها ، ويعتقد فيها حسن النية ، ولا يفتن لمطامعها الاستعمارية ، ففتح أبواب البلاد على مصراعها للتدخل الأجنبى ، وسمح للأوروبيين أن يتغلغوا في مرافقها ، ويتولوا المناصب والمراكز الرفيعة في حكومتها ، وبلغت به الثقة في سلامة نيتهم حداً جعله يقترض القروض الجسيمة بلا حساب من المرابين والبيوت المالية الأجنبية ، حتى صار للأجانب في عهده نفوذ مالى وسياسى لم يكن لهم من قبل ، وانقلب هذا النفوذ إلى حقوق ومزاعم ادعوها ، وما لبثوا أن نالوها ، بإنشاء صندوق الدين ، وفرض الرقابة الثنائية على مالية البلاد ، وتعيين وزيرين أجنبيين في الوزارة المصرية ، كما سيحىء بيانه .

فسياسة إسماعيل الخارجية حيال الدول الأوروبية كانت إذن سياسة خاطئة ، أوقعت مصر تحت النير الأجنبى المالى والسياسى . مما نشعر بنتائج السيئة إلى اليوم (١٩٣٢) .

هذه كلمة إيجابية عن سياسة إسماعيل الخارجية ، حيال تركيا والدول الأوروبية . نعهد بها إلى بيان هذه السياسة تفصيلاً فيما بعد .

١ - سياسة إسماعيل حيال تركيا

العلاقات الودية

جعل إسماعيل نصب عينيه تحرير مصر من السيادة التركية التي فرضها عليها معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وفرمانات سنة ١٨٤١^(١) ، أي أنه أكمل العمل الذي بدأه محمد علي ، ولكن الفرق بينه وبين جده أن محمد علي كسب لمصر حقوق الاستقلال بقوة الجيش المصري ، أما إسماعيل فقد اعتمد على سلاح المال والرشوة يبذلها لرجال الأستانة ، ليحصل على الفرمانات التي وسع بها نطاق الإستقلال .

وليس يخفى أن وسيلة محمد هي صفحة مجيدة من تاريخ مصر الحديث ، تقرأ فيها الأجيال المتعاقبة مفاخر الجهاد القومي ، أما وسيلة إسماعيل فلا تستثير في النفوس إحساس المجد والفخر ، هذا فضلاً عن أنها من الأسباب التي دعت إسماعيل إلى الاستدانة من البيوت المالية الأجنبية ، فكانت من هذه الناحية من العوامل التي أدت إلى تصدع بناء الإستقلال الحقيقي ، وقد بذل إسماعيل تضحيات مالية جسيمة في سبيل الحصول على الإمتيازات التي نالها ، إذ لم تكن حكومة الأستانة تصدر فرمناً إلا في مقابل الأموال الطائلة من الرشا والهدايا ، يقدمها إسماعيل لرجال الأستانة ، على اختلاف مراتبهم ، ولا يستثنى منهم السلطان ذاته ، والصدور العظام ، فبلغت هذه الأموال طوال حكمه نحو إثني عشر مليوناً من الجنيهات .

بدأ إسماعيل حكمه بالتودد إلى السلطان عبد العزيز ، ورجال حكومته ، فلما تولى الأريكة المصرية ذهب إلى الأستانة ليقدّم له فروض الولاء ، وانتهز هذه الزيارة لإحكام روابط الود بينه وبين تركيا ، وتودد إلى السلطان عبد العزيز ، ودعاه إلى زيارة مصر ، فوعده بقبول الدعوة .

(١) راجع (عصر محمد علي) ص ٣١٠ وما بعدها . (الطبعة الأولى)

زيارة السلطان عبد العزيز لمصر

(إبريل سنة ١٨٦٣)

بر عبد العزيز بووعده ، فجاء مصر في شهر إبريل سنة ١٨٦٣م (شوال سنة ١٢٧٩ هـ) ، ونزل بالإسكندرية ، ثم ذهب إلى القاهرة ، وقضى في ضيافة إسماعيل عشرة أيام ، لقي فيها من مظاهر الإكرام والحفاوة البالغة ما جعل لإسماعيل منزلة كبيرة عنده . ولا غرو فقد كان عبد العزيز هو السلطان العثماني الوحيد الذي جاء مصر زائراً ، بعد السلطان سليم الذي دخلها فاتحاً ، فكانت هذه الزيارة تكريماً كبيراً لإسماعيل ، وتعظيماً لشأنه .

واغتتم هذه الفرصة ، فاستغل المنزلة التي نالها ليكسب من تركيا حقوقاً ومزايا جديدة ، واستخدم إلى جانب ذلك المال يبذله بسخاء ، فغمر السلطان وحاشيته بالهدايا والتحف الفاخرة ، حتى ملأها سفينة بأكملها ، ووجود الصدر الأعظم قواد باشا وحده بستين ألفاً من الجنيهات رشوة ليتخذ منه عوناً في مساعيه لدى الحكومة التركية ، وعاد عبد العزيز من زيارته مغتبطاً مما لقيه من الإكرام ، ومهدت هذه الزيارة الطريق أمام إسماعيل لينال رغائبه .

تغيير نظام توارث العرش وفرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦

أول ما وجه إليه إسماعيل جهده ، هو العمل على تغيير نظام توارث العرش ، فقد كان النظام القديم الذي فرضه فرمان سنة ١٨٤١ يقضي بأن يؤول عرش مصر إلى أكبر أفراد الأسرة العلوية سناً ، كالنظام المتبع في تركيا .

فسعى إسماعيل جهده في أن يؤول العرش إلى أكبر أنجاله ، ونجح في مسعاه ، بفضل المثابرة ، والدأب على الطلب ، وبفضل الأموال الطائلة التي بذلها في الأستانة ، وقد بلغت ثلاثة ملايين من الجنيهات ، فكان هذا السعي من الأسباب الأولى لديون إسماعيل ، وليس ثمة شك في أن هذه التضحية المالية لا توازيها الفائدة التي نالها مصر من هذا التغيير ، لأن طريقة توارث العرش ليست مسألة جوهرية تمهم البلاد حتى تبذل في سبيلها هذه الملايين ، هذا إلى

أبها كلفت مصر تضحية مالية أخرى ، ذلك أن تركيا اشترطت مقابل هذا التغيير زيادة الجزية السنوية من ٤٠٠ ألف جنيه عثماني ، إلى ٧٥٠ ألف . أي إلى ما يقرب من الضعف ، وهي زيادة فادحة ، تحملتها مصر باستمرار من ذلك الحين إلى الوقت الحاضر ، قبلت نيفاً وخمسة عشر مليون جنيه مصري لغاية سنة ١٩٤١ ، وهي السنة التي زالت فيها السيادة العثمانية عن مصر ، واحتلتها بعد زوال هذه السيادة ، لأن الحكومة الخديوية قبلت تحويل الجزية إلى دائن تركيا ، وتعهدت بدفع أقساط ديونهم السنوية خصماً من الجزية لغاية سنة ١٩٥٥ ، فإذا حسبنا خسارة مصر في زيادة الجزية من سنة ١٨٦٦ لغاية سنة ١٩٥٥ ، لبلغت نيفاً وخمسة وعشرين مليون جنيه مصري ، عدا فوائد لها ، وهي خسارة جسيمة لا مبرر ولا مسوغ لها . ومن الإسراف في القول ما يزعمه بعض المؤرخين أن إسماعيل قصد بسعيه في هذه المسألة مصلحة البلاد ، وأغلب الظن أن الباعث له على هذا التغيير هو ما كان بينه وبين أخيه من أبيه مصطفى فاضل وعمه عبد الحلیم من الشقاق والشحناء ، ولم يكن إسماعيل يخفى كرهه لها وحقد عليه ، وكان الأميران أيضاً لا يكتمان من ناحيتها كراهيتها لإسماعيل ، ومن أجل ذلك سعى في حرمانها من وراثة العرش وجعلها في ذريته من صلبه .

وقد اغتنم حكام تركيا وذوو النفوذ فيها فرصة هذا التنافس ، لبيتروا من أموال مصر ما تصل إليه أيديهم ، فقد بذل الأميران عبد الحلیم ومصطفى فاضل أموالاً طائلة في الأستانة ، لإجباط مساعي إسماعيل ، فاستفادت من الناحيتين ، ولكن إسماعيل كان أكثر مالأً ، وأعز جانباً ، فنجح في مسعاه ، وهكذا كان للأثر الفعال في نفوس حكام الأستانة .

وساعد إسماعيل في نجاح مسعاه عامل آخر غير المال ، وهو أن عبد العزيز سلطان تركيا وقتئذ كان يميل أيضاً إلى تغيير نظام توارث العرش ، ويتمنى أن يؤول عرش تركيا من بعده إلى ابنه يوسف عز الدين ، فأيد إسماعيل في مسعاه ، كي يمهد السبيل لنفسه ، ولكنه لم يستطع أن يقدم على هذا التغيير ، لما فيه من الخروج على التقاليد الموروثة عن آل عثمان .

كانت نتيجة مساعي إسماعيل صدور فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ (١٢ محرم سنة ١٢٨٣) القاضي بانتقال مسند ولاية مصر وملحقاتها وقائمقامياتي سواكن ومصروع إلى أكبر أولاده . ومن هذا إلى أكبر أبنائه ، وهلم جرا .

ونص في هذا فرمان على إمكان زيادة الجيش المصري إلى ثلاثين ألف جندي ، وكان في الواقع يزيد على هذا العدد من قبل ، وإقرار حقها في ضرب نفود مختلفة العيار عن نفود

السلطنة العثمانية . ومنح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانية^(٢) .

واستيع هذا فرمان صدور فرمان آخر في ٢ صفر سنة ١٢٨٣ (١٥ يونيو سنة ١٨٦٦)^(٣) . بترتيب نظام للوصاية على من يتقلد مسند الولاية إذا كان قاصراً .

وقد أبلغ الباب أعلى فرمان السابق إلى الدول العظمى التي اشتركت في إبرام معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ . مما جعل له صفة المعاهدة التي تربط تركيا دولياً إزاء مصر ، بحيث لا تملك تعديله إلا بموافقة مصر ، وخاصة لأنه صدر مقابل زيادة في الجزية .

قلنا إن هذا التغيير في نظام التوارث لا يعد مكسباً كبيراً لمصر ، حتى تبذل من أجله تلك التضحيات المالية الباهظة ، ولقد برهنت الحوادث على صحة هذا القول ، لأن النتيجة الأولى للنظام الجديد كانت أبلولة العرش إلى الخديو توفيق ، أكبر أنجال إسماعيل ، ومعلوم أن توفيق باشا لم تكن ولايته خيراً على البلاد ، وهو الذي اعتلى العرش حيناً خلع أبوه ، ولم يظهر نحوه من الوفاء ما كان ينتظره الأب من ولده ، ومضى إسماعيل سنوات النبي ، واحتمل غصصه وآلامه ، دون أن يلقى من ابنه عطفاً عليه في محنته ، وإذا أغضبتنا النظر عن هذه الاعتبارات العائلية ، فلا يمكننا أن ننسى أنه في عهد توفيق رزئت البلاد بالاختلال الإنجليزي ، وكان عليه جانب كبير من من تبعه وقوعه ، فلم لم يتقرر نظام التوارث الجديد ، لكان جازماً أن يخلف إسماعيل على العرش أمير أنفع للبلاد وأخلص لها من توفيق باشا .

وقد كان صدور فرمان بهذا التغيير سبباً لاتساع هوة الخلاف والنفور بين إسماعيل وأخيه مصطفى فاضل ، الذي كان ولياً للعهد طبقاً لنظام الوراثة القديم ، واستمر العداء بينهما طول الحياة ، وكذلك اشتدت الكراهية بينه وبين عمه الأمير عبد الحلیم بن محمد علي ، فإنه كان يتطلع إلى الأريكة المصرية ، فجأة هذا فرمان قاضياً على آماله .

وأدت هذه الحالة إلى اشتداد الدسائس بين الفريقين ، مما شغل إسماعيل وجعله يبذل جهوداً كبيرة وأموالاً طائلة في سبيل إضعاف مركز منافسيه ، ولو بذلت هذه الجهود والأموال في سبيل مصلحة البلاد لكان ذلك خيراً وأولى .

وأفضت هذه الكراهية ، وما استتبعها من الوشائيات والمؤامرات ، إلى رحيل الأميرين المذكورين واسترتهما من مصر ، واتخاذهما الأستانة وأوروبا مقراً لها ، ونقم الأمير مصطفى

(٢) قاموس الإدارة والفضاء لليبيل جلد ٦ ص ٧٣٠ .

(٣) الوثائق الدولية للسلطنة العثمانية (نور ادجيان أفندي ج ٣ ص ٢٥٥ . وقاموس جلد ٦ ص ٧٣١ .

فأصل على حكومة السلطان عبد العزيز لتغييرها نظام توارث الأريكة المصرية ، وعلم بما بذله إسماعيل في هذا السبيل من الأموال الطائلة ، فانضم إلى أحرار تركيا الناقمين على الحكم الاستبدادي فيها ، والذين كانوا يعملون على قلب نظام الحكم والتخلص من استبداد السلاطين ، وعاونهم بنفوذهم وماله . ومن هنا جاءت تسميته بأبي الأحرار في تركيا . أما عبد الحليم ، فقد نفاه إسماعيل من مصر إثر اكتشاف مكيدة لاغتياله ، قيل أن الأمير دبرها . فاتخذ إسماعيل هذه الرواية ذريعة للتخلص منه ، فقرر نفيه .

فرمان ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ والحصول على لقب خديو

واستمرت العلاقات الودية بين مصر وتركيا ، وظل إسماعيل يبذل المال بسخاء على ضفاف البوسفور . فحصل في ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ (٥ صفر سنة ١٢٨٤) على فرمان جديد ، بجوله وخلفاءه لقب (خديو) ، بعد أن كان (والياً) ، فارتقى صاحب العرش بهذا اللقب السامي إلى مرتبة تقرب من مراتب الملوك والسلاطين ، وأقر هذا فرمان حق الحكومة المصرية واستقلالها في إدارة شئونها الداخلية والمالية ، وحقها في عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والزكاتب في داخلية البلاد ، وشئون الضبط للجاليات الأجنبية^(٤) .

فتور العلاقات ثم الجفاء بين مصر وتركيا

على أن علاقة مصر بتركيا ما لبثت أن اعتراها الفتور والجفاء ، ثم الحصام والعداء ، ويرجع السبب الجوهري في هذا التحول إلى رغبة إسماعيل في الانفصال عن تركيا ، والظهور بمظهر العاجل المستقل .

ذكر محمود باشا فهمي في كتابه (البحر الزاخر ج ١ ص ١٩٩) أنه في خلال حملة كريت (التي سيرد الكلام عنها) طلب إسماعيل من الباب العالي أن يجوله حق تعيين سفراء مصر لدى الدول الأجنبية ، فرأى الباب العالي أن مقصده الاستقلال والانفصال عن تركيا ، فرفض طلبه ، وكان من نتائج الرفض أن غضب إسماعيل . وتهدد الحكومة التركية بسحب جنوده من

(٤) قاموس جلال ج ٦ ص ٧٣٢ .

جزيرة كريت ، أو يستحوذ على الجزيرة إذا لم تحب طلباته . وذكر إسماعيل باشا سرهنك في كتابه (حقائق الأخبار ج ٢ ص ٣٤١) ما يدل على اشتداد الجفاء بين إسماعيل وتركيا خلال حملة كريت ، مما يؤيد رواية محمود باشا فهمي . وكلاهما معاصر لهذه الحوادث ، قال إنه لما وقع هذا الخلاف أوعز الخديو إلى شاهين باشا قائد الجيش المصري في حملة كريت أن يعمل على ترغيب سكان الجزيرة في الانضمام لمصر ، فأخذ هذا يتودد إلى زعماء الجزيرة ، ويحتذ بهم بالمال والهدايا ، فلما علمت الحكومة التركية بذلك طلبت إلى الخديو عزل شاهين باشا من قيادة الجيش المصري في كريت ، فاضطر إلى استدعائه ، وجعل مكانه قائداً آخر هو الفريق إسماعيل سليم باشا وزير الحربية وقتئذ . وقد تعددت الحوادث والمظاهر التي تدل على سعي إسماعيل للانفصال عن تركيا .

فمن ذلك مفاوضته الدول الأوروبية رأساً في صدد إنشاء النظام القضائي المختلط ، دون وساطة الباب العالي ، واشترائه في معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ، وظهوره فيه بمظهر الملك المستقل ، وإقامته به قسماً خاصاً لمصر جمع فيه صنوف البهجة والعظمة ليكون جديراً بتمثيل مملكة مستقلة ، ثم توصيته المعامل الفرنسية على صنع ثلاث بوارج حربية مصفحة ، وعدة آلاف من البنادق الحديثة الطراز ، لتسليح الجيش المصري ، مما جعل الحكومة التركية تتوجس خيفة من مقاصد إسماعيل ، وتتوقع أن يستعد ويتأهب لإعلان الاستقلال التام .

واستفاضت الأنباء بأن تركيا عازمة على إرسال جيوشها إلى مصر بعد إخماد ثورة كريت ، وخشى إسماعيل أن تنفذ تركيا يوماً وعيدها ، فأستعد للدفاع والحرب ، وأنشأ حصوناً جديدة بين الإسكندرية وبور سعيد ، ورم الحصون القديمة ، وابتاع من معمل ارمسترنج بالإنجلترا نحو مائتي مدفع من المدافع الضخمة ، سلح بها تلك القلاع ، وبلاحظ أن كثيراً من هذه المدافع باقية إلى اليوم في حصون الإسكندرية وأبو قير ودمياط ورأس البر ، وقد علاها الصدأ من الإهمال وتوالي السنين ، وعلى أكثرها تاريخ السنة التي أنشئت فيها وهي سنة ١٨٦٩ . أي السنة التي اشتد فيها الخلاف بين مصر وتركيا .

وازدادت العلاقات فتوراً بين البلدين لدعوة إسماعيل ملوك أوروبا ورؤساء حكوماتها إلى حضور حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، دون وساطة تركيا ، فاعتبر السلطان من هذه الدعوة إغفالاً لواجب الولاء نحوه ، واحتج لدى الدول على مسلكت الخديو ، فلم يكثر

إسماعيل لهذا الاحتجاج . واستمر ماضياً في دعوته . وأقام حفلات القناة برأسته . وحضرها ملوك أوروبا وأمراؤها .

وكان معترفاً بإعلان إستقلال مصر التام في تلك الحفلات ، ولكن الحكومات الأوروبية لم تسايده في غرضه ، ونصحته أن يعدل عن عزمه ، وانتهت حفلات القناة والجفاء مستحكما بين إسماعيل والباب العالي .

فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ وما فيه من القيود

كان من نتائج هذا الجفاء صدور فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ (٢٤ شعبان سنة ١٢٨٦) ، حمله رسول من الباب العالي إلى مصر عقب انقضاء حفلات القناة ، فجاء صدمة لآمال إسماعيل ، إذ بينما يأمل لمناسبة تلك الحفلات أن يصل إلى الاستقلال التام ، كانت النتيجة صدور فرمان ينتقص من سلطته .

قيد السلطان بهذا فرمان حقوق الخديو ، فنص فيه على أنه لا يجوز له أن يقترض قروضاً جديدة دون أن يبين وجه الحاجة إليها ، ويحصل على إذن من السلطان بعقدها^(٥) ، وكان السبب الظاهر لهذا التقييد غير الباب العالي على مصالح مصر ، واستبائه من تورط إسماعيل في الديون الباهظة التي استدانها .

وفي الحق أن إسماعيل كان في حاجة إلى من يغل يده عن الإسراف في الاستدانة ، ويقيده في تصرفاته المالية ، وحيداً لو أن هذا القيد جاء من ناحية الأمة ، أو بعبارة أخرى من ناحية مجلس شورى النواب ، الذي كان يعتقد كل عام . على أننا لا نعتقد أن الباب العالي كان يقصد إلى مصلحة مصر في تقييد إسماعيل بهذا القيد ، بل أغلب الظن أنه كان يرمى إلى استرداد حقوق جديدة لكي يكيد للخديو ويسوء إليه .

وقد استأنف الخديو من هذا فرمان ، ولم يعقد احتفالاً حافلاً لتلاوته بالأبهة المعتادة ، بل قرىء في قصر النيل دون جلبة ولا إعلان .

(٥) راجع نص فرمان في القاموس العام للإدارة والقضاء لليليب جلد ٦ ص ٧٣٣ .

تحسين العلاقات

فرمان سبتمبر سنة ١٨٧٢

على أن إسماعيل أخذ يسعى في تحسين علاقته بتركيا ، لما رأى أنه في حاجة إلى عضدها . بعد أن خذلته الدول الأوروبية ، واشتدت ورطته المالية ، فقصد إلى الأستانة في صيف سنة ١٨٧٢ بصحبه إسماعيل صديق باشا وزير المالية ، ونوبار باشا وزير الخارجية ، ليسعوا في إعادة المياه إلى مجاريها . وبدلوا هناك ما بدلوا من مظاهر الولاء ، ومن المال والرشا والهدايا ، حتى عادت علاقات الود بين للخديو والحكومة التركية .

فقال في سنة واحدة فرماناً في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٢ (٧ رجب سنة ١٢٨٩) يثبت الامتيازات السابق منحه إياها . وينسخ القيود الواردة في فرمان سنة ١٨٦٩ ، وخطاً شريفاً في ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ (٢٢ رجب سنة ١٢٨٩) يؤكد فيه مزايا فرمان ١٠ سبتمبر ، ويحوله صراحة حق الاستدانة من الخارج دون شرط ولا قيد .

وقد ابتهج الخديو ابتهاجاً عظيماً لورود فرمان الخط الشريف إلى مصر يحملها كبير كتاب المابين ، وعقد لتلاوتها احتفالاً فخماً في ديوان الغورى بالقلعة وقرناً بمحضور المدعويين ، وأطلقت المدافع إيداناً بهذا النصر المبين ، ونشر نصها في الجريدة الرسمية^(٦) .

وكان من نتائج صدور فرمان الخط الشريف المذكورين عقد قرض سنة ١٨٧٣ ذلك القرض المشثوم الذي كان طامة كبرى على البلاد كما سنبينه فيما يلي :

الفرمان الجامع

(٨ يونيو سنة ١٨٧٣)

لم يكتب الخديو إسماعيل بهذا فرمان ، بل أراد أن يحصل على فرمان جامع للمزايا التي نالها مصر منذ تولية محمد على حكم مصر بطريق التوارث إلى ذلك العهد ، فقصد إلى الأستانة في صيف سنة ١٨٧٣ متذرعاً بالأموال يرشو بها رجال الحكومة التركية ، وصحبه في

(٦) الوقائع المصرية عدد ٤٨٠ الصادر في ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٧٢ .

بسيء بها الظن ويعتقد بحق أنها لا تنزود في استرداد الامتيازات التي نالتها مصر إذا استطاعت بل ذلك سيلا .

وبما سوه نية تركيا نحو مصر من مآلاتها الدون الأوروبية في خلافها مع الخديوي إسماعيل ، ذلك الخلاف الذي أدى إلى خلعهم ، كما سيبينه في موضعه ، فإن مطالب الحكومات الأوروبية في هذا الخلاف كانت مطالب جائزة لا يقرها عدل ولا يسيئها منطق ، وظهر فيها الاقيبات الصارخ على حقوق مصر . وانتهاز الدول الاثنياد المالك لتحقيق أطاعها الاستعمارية ، وبالرغم من ذلك لم يتزود الباب العالي في الانضمام إلى الدول الأوروبية ، والتزول على إرادتها ، ولم يكده بين رغبتها في التخلص من إسماعيل حتى يادوه برسائله التلغرافية القاضية بخلعه من منصب الخديوية ، وتعيين نجله توفيق باشا خلفاً له ، ولم يكن هذا العمل لصالح مصر ، ولا لصالح تركيا أيضاً ، بل كان تمكياً للنفوذ الأجنبي في مصر ، ولكن تحييط السياسة التركية وسوه نيتها نحو مصر جعلها تستجيب لمطالب الدول ، وتلك أول مرة خلع فيها ولي الأمر في مصر على عهد الأسرة العلوية برغبة الحكومات الأوروبية ، ومعالجة الحكومة التركية ، وفي ذلك أعظم اقيبات على حقوق مصر واستقلالها .

٢ - سياسة إسماعيل حيال الدول الأوروبية

كانت القاعدة العامة لسياسة إسماعيل الخارجية الزكون إلى الدول الأوروبية وحسن الظن بها ، والعمل على كسب رضاها ، وهذا من غلظاته السياسية ، لأنه من المعلوم أن الدول والجيالات الأوروبية على اختلاف أجناسها ، إنما ترمى إلى تحقيق أطاعها الاستعمارية في بلاد الشرق قاطبة ، ومصر في طلبتها .

وتلك لعمرى حقيقة يعترف بها الأوروبيون المنصفون ، فقد كتب السيرين (فان بلن) في Van Barmen وهو قاض هولندي تولى القضاء في المحاكم المختلطة على عهد إسماعيل يقول في هذا الصدد :

« إن علاقات الحكومات الأوروبية بمصر لم تقم إلا على قاعدة تحقيق مصالحها ومصالح رعاياها ، وإن سياستها البنية على الأثرة والأناية لم يتخللها أى شعور بالمعطف أو بالرافقة أو بالواجب نحو مصر ، ومعظم الأوروبيين الذين جاؤوا إلى هذه البلاد كانوا من أسط الطبقات .

رحلته جمع من أركان حكومته وطلانه كمنوار باشا وزير الخرجية ، وإسماعيل صديق وزير الداخلية ورياض باشا مستشار مجلس الوزراء (المجلس المخصوصى العالي) وغيرهم ، وما زال يسمى حتى نال القرمات المورخ ٨ بوبه سنة ١٨٧٣ (١٣ ربيع ثلثى سنة ١٢٩٠)^(١) ، وهو القرمات الجامع الذى ثبت الزايات الواردة في القرماتات القديمة والحديثة . وتلخص هذه الزايات في الحفرق الآتية .

- ١- قوارت عرش مصر في أكبر انجال الخديوي ، ومن بعده إلى أكبر أولاد هذا الأكبر ومعلم جزا .
- ٢- تشمل أملاك الخديوية المصرية ومملكتها (السودان) الجارية إدارتها بمعرفتها مع ما صار إلحاقه بها . من قائمقامين سواكن ومصوع ومملكتها .
- ٣- حتى الحكومة المصرية في سن القوانين والنظامات الداخلية على اختلاف أنواعها .
- ٤- حتى عقد الاتفاقات الجبركية والمعاهدات التجارية .
- ٥- حتى الاقتراض من الخارج من غير استئذان من الحكومة التركية .
- ٦- حتى زيادة الجيش إلى أى عدد يتغنيه الخديوي .
- ٧- حتى بناء السفن الحربية ما عدا المدرعات التي يجب لإنشائها استئذان الحكومة التركية .

وصفوة القول أن هذا القرمات الجامع قد ثبت لعصر حقوقها الكاملة في الاستقلال التام ، فيما عدا الجزية السنوية ، وقدرها ٧٥٠ ألف جنيه عثمانى ، وعدم عقد المعاهدات السياسية ، وحتى التمثيل الخارجى ، وعدم صنع المدرعات الحربية .

وقد نشر هذا القرمات في العدد ٥١٧ من (الوقائع المصرية) الصادر في ١٧ يوليه سنة ١٨٧٣ .

عودة الجفاء

على أن هذه القرمات لم تصل إلى إحلال الوتام بين مصر وتركيا عمل الجفاء والحصام ، بل على الرغم من الظاهر ، فإن تركيا كانت لا تحبص التية نحو مصر ، كما أن إسماعيل كان

(١) الوثائق الدولية للسلطة العثمانية لثور ادخيان أقدى ج ٣ ص ٣٤٧ .

الفرنسية . والسنوات التي قضاها في باريس ، ومعاشرته الطويلة للفرنسيين ، واتصاله بهم . وإقناعه لغتهم ، وميله إلى تقليدهم في معيشتهم ، واقتباسه أسلوبهم وعوادتهم . فبإخلا ففضيلة التدبير والاقتصاد التي اشتهروا بها ، والتي تعد من أعظم فضائلهم القومية .

وهناك عامل آخر ساعد على امتداد النفوذ الفرنسي ، وهو صلة الخديو إسماعيل بالأميراطور

نابليون الثالث ، وصداقته له وإعجابيه به . ومحاكاته إياه في مظاهر الأبهة والعظمة ، وسعيه

في كسب ثقته وتوثيق روابط الود بينهما .

ويتجلى لك مبلغ النفوذ الفرنسي ، في أنه لما قام الخلاف بين إسماعيل وشركة قناة السويس

في أوائل عهده بالحكم ، ارضى تدخل الأميراطور نابليون الثالث لحسم الخلاف ، ورضى أن

يحمّله حكماً بينه وبين الشركة ، مع أنه يعلم بالبداهة أن أميراطور الفرنسيين لا يمكن أن يكون

حكماً عادلاً في مثل هذا الخلاف ، وأن حكمه لا يمكن أن يخلو من المحاباة للشركة الفرنسية ،

وقد أصدر نابليون الثالث فعلاً حكمه بإلزام الحكومة المصرية بتعويضات باهظة للشركة تبلغ

عدة ملايين من الجنيهات .

ويبدو هذا النفوذ أيضاً في استخدام إسماعيل لطائفة من الفرنسيين في كثير من معاملاته

المالية وقروضه ، وإسناد كثير من مشروعات العمران إلى إخصائين من الفرنسيين .

وقد بلغ هذا النفوذ أقصى مداه في حفلات افتتاح القناة سنة ١٨٦٩ ، فالقناة في ذاتها

عمل فرنسي ، وفاتها فردينان دلبيس يمثل كفاءة فرنسا المالية والهندسية ، وكانت أوجيني

إمبراطورة الفرنسيين تمثل الدولة الفرنسية في إبان مجدها وأوج عزها ، وهي التي رأست

حفلات الافتتاح . متقدمة سلك أوروبا وأرأعها وأقطابها في السياسة والعلوم والفنون ،

وكانت هذه الحفلات الفخمة إيذاناً بما بلغه النفوذ الفرنسي في مصر من القوة وسمو الميزة .

على أن هذا النفوذ أخذ في الإضمحلال عقب الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠ - ١٨٧١ ،

فإن انتصار الألمان في هذه الحرب زلزل سيطرة فرنسا السياسية في أوروبا والشرق ، وثقل عرش

الأمبراطورية ، وكان من أولى نتائجها سقوط نابليون الثالث صديق إسماعيل الذي كان يعتمد

عليه في مهمات الأمور . ومن ثم أخذ النفوذ الفرنسي يتضاءل في مصر ، محلياً الطريق للنفوذ

الإنجليزي .

ولو يكن مهمهم إلا الإيزاء على حساب البلاد (٨) .

هذا ما يقوله قاض أوروبي عادل منصف سير غور الأمور في مصر . وتلك هي الحقيقة التي

يطالعنا بها في كتابه . ولكن الخديو إسماعيل لم يقطن إلى تلك الحقائق .

وهنا يبدو الفرق جلياً بين محمد علي وإسماعيل ، فمحمد علي كان يقف من المدن

الأوروبية وسائل النهضة والتجزة والتقدم . ويستعين بخبرة علماء أوروبا ومهندسيها ، ولكنه في

الوقت نفسه ينجح تدخل الأوروبيين حكومات وجاليات في شؤون البلاد . ولا يطعن بهم .

ولذلك بقيت في عهده سليمة من تدخل النفوذ الأوروبي ، سواء من الوجهة السياسية أو من

الوجهة المالية والاقتصادية . ويكتفيك دليلاً على بعد نظره وحكمته أنه لم يقبل إتقاد مشروع

قناة السويس ، رغم إلحاح المالين والسياسيين الأجانب عليه ، وكذلك لم يقبل أن يعهد إلى

الاقتراض من البيوت المالية الأجنبية ، كل ذلك لكي يصون البلاد من أخطار التدخل

الأجنبي .

لكن إسماعيل ، لتبعته الأوروبية ، لم يحسب حساباً لهذا التدخل . ولعله كان يتوهم

حسن نية الدول الأوروبية نحوه ونحو مصر . فإزال الوهم مستطفاً عليه حتى أدرك خطاه في

آخر عهده ، إذ رأى الدول والجاليات الأوروبية ، التي طلائاً تودد إليها ، ومكن لها من مرفق

البلاد ، تضطرها إلى بيع أملاكه وأملاك عائلته وفاء لديونه ، ورأى النفوذ الأوروبي يشل

سلطته ، فحاول عتياً أن يقاومه أوبضع له حداً ، ولكن هذا النفوذ كان قد طغى واستفحل ،

فلم يستطع له دفعاً ، وانتهى الأمر بأن اقتلعه زيادة الدول الأوروبية عن الأريكة الخديوية .

والآن نتكلم عن سياسة إسماعيل نحو الدولتين اللتين تناهستا على النفوذ والسلطة في مصر . .

وهما فرنسا وإنجلترا .

فرنسا

كانت السنوات الأون من حكم إسماعيل هي الفترة التي أخذ فيها النفوذ الأجنبي يتغلغل

في البلاد ، مالياً واقتصادياً ثم انقلب هذا النفوذ في أواخر عهده إلى سيطرة مالية وسياسية

شديدة الوطأة .

وكان لفرنسا بادي الأمر نفوذ أدبي كبير على إسماعيل ، وهذا يرجع أولاً ، إلى تربيته

(٨) مصر وأوروبا . لغاصو عخط فان يمش ج ١ ص ١١٦ .

إنجلترا

لا يخفى أن انتصار ألمانيا في الحرب السبعينية كان له تأثير سيء في المسألة المصرية ، لأن إضعاف نفوذ فرنسا قد مهد لإنجلترا السبيل لتكون صاحبة الصوت الأعلى في هذه المسألة . ومكثها من الانفراد بالتدخل في شؤون مصر ، حتى انتهى إلى الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢ . فلا يغبين عنك أنه كان ثمة تنافس بين الدولتين على كسب النفوذ في مصر ، وقد اشتد هذا التنافس من عهد إنشاء قناة السويس ، وكان التعادل بين قوتيهما يحول دون سيطرة إحداهما على مصير البلاد ، ولكن صوت فرنسا في المسألة المصرية أخذ يضعف من نهاية سنة ١٨٧٠ ، فاغتنمت إنجلترا هذه الفرصة لإنفاذ إرادتها في وادي النيل ، اعتبر ذلك فيما وقع حين قامت الحوادث العراقية سنة ١٨٨١ ، واعتزمت إنجلترا احتلال مصر ، فقد كان هذا المشروع مهدداً بالإخفاق لو اشتركت فرنسا معها في العمل ، ولكن فرنسا تركت إنجلترا تحتل البلاد وحدها ، وهذا يرجع إلى أسباب عدة لا محل لبسطها الآن ، وستكلم عنها في موضعها ، ولكن لا شك أن من بين هذه الأسباب ضعف فرنسا بعد هزيمتها في الحرب السبعينية ، وخوفها من الخطر الذي يهددها من ناحية ألمانيا .

ولو بقيت فرنسا على قوتها ونفوذها قبل الحرب السبعينية لكان من تنافسها هي وإنجلترا في المسألة المصرية ما يكفل لمصر التخلص من مطامع الدولتين ، ولكن التوازن بينها قد اختل بعد هزيمة فرنسا سنة ١٨٧٠ ، فأخذت كفة إنجلترا ترجح في شؤون مصر ، وأخذ إسماعيل من ناحيته ينصرف عن فرنسا لم أصابها من الضعف ، ويتجه بصره لتقاء إنجلترا ، ويتودد إليها . على أن إنجلترا منذ افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ بدأت فعلاً في العمل على تثبيت مركزها في مصر تمهيداً لاحتلالها ، وأخذت في الوقت نفسه تتطلع إلى السودان ، وتمدد أصعبها إليه تمهيداً لفصله عن مصر ، بذلك على ذلك سلسلة من الأعمال ترمي إلى تحقيق تلك المطامع ، فنها أنها أوعزت إلى الخديو إسماعيل أن يعين السير صمويل بيكر الرحالة الإنجليزي الشهير حاكماً لمديرية خط الاستواء ، ولما انتهت مدته عملت على أن يخلفه في هذا المنصب الإنجليزي آخر وهو الكولونيل غردون (باشا) ، وسعت لتحويله سلطة كبرى لارقابة عليه فيها للحاكم المصري العام كما سيجيء بيانه .

وفي سنة ١٨٧٠ عهد الخديو إلى شركة إنجليزية تدعى شركة جرنفلد إنفاذ مشروع توسيع ميناء الإسكندرية والقيام بأعمال الإصلاح فيها مقابل عدة ملايين من الجنيهات . وانتهزت إنجلترا فرصة ارتباك إسماعيل المالي لكي تريد في ورطته . وتجلت هذه النية واضحة في شرائها أسهم مصر في قناة السويس سنة ١٨٧٥ ، فإن هذه الصفقة كانت أول ضربة صوتتها إنجلترا إلى صرح الاستقلال المصري .

وفي سنة ١٨٧٧ أوعزت إلى الخديو أن يعين غردون باشا حاكماً عاماً (حاكماً عاماً) للسودان ، وهو منصب من أكبر مناصب الدولة وأعظمها خطراً ، وتلك أول مرة في تاريخ مصر أسند فيها هذا المنصب السامي إلى أجنبي .

فهذه الحوادث لم تقع عبثاً ، بل هي مظاهر لامتناه النفوذ الإنجليزي في بلاط الخديو منذ سنة ١٨٧٠ .

وقد توثقت العلاقات الودية في هذه الحقبة من الزمن بين الخديو وإنجلترا ، وتعددت مظاهرها ، فعقدت إنجلترا ومصر في ١٨ مايو سنة ١٨٧٣ معاهدة لتسهيل تبادل البريد . وعقدتا في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة للتعاون على إبطال الرقيق .

ويظهر لك مبلغ حرص إسماعيل على كسب رضا إنجلترا ، وتجنب مجافاتها ، أنه لما جرد سنة ١٨٧٥ حملة إلى شواطئ الصومال الواقعة على المحيط الهندي لسط نفوذ مصر في شرق أفريقيا والوصول من هذه الجهة إلى أملاكها في خط الاستواء ، استاءت إنجلترا من هذه الحملة ، وأرسلت إلى إسماعيل تعرض على إنفاذها ، فبادر الخديو إلى الاستجابة لاحتجاجها ، واسترجع الحملة إلى مصر استبقاء لعلاقات الود بينها .

وفي ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ عقد وإياها معاهدة اعترفت فيها إنجلترا بسلطة مصر في بلاد الصومال الشمالية . فكانت هذه المعاهدة مظهرًا من مظاهر «العلاقات الودية» بين مصر وإنجلترا .

على أن هذا «الود» لم يمنع إنجلترا من أن تضمر الشر لمصر ، وتعمل على إخضاعها للرقابة الأجنبية ، ولما اشتد الخلاف بين الخديو والدائنين سعت سعيها في خلعه ونجحت في مسعاها سنة ١٨٧٩ ، فكان هذا ختام «السياسة الودية» التي اتبعها إسماعيل حيالها .

الفصل الرابع

قناة السويس

إن مسألة قناة السويس من أولى المسائل السياسية التي واجهت إسماعيل في أوائل عهده بالحكم ، إذ كانت أنظار الأوروبيين متطلعة إلى ما يؤول إليه مصير القناة بعد وفاة سعيد الذي عرف عنه أنه سند المشروع وقوامه ، فلما مات قلق المسيو فردينان دلسبس على مشروعه ، وخشى أن يكون نصيبه الإخفاق ، ولكن إسماعيل باشا بادر في أول اجتماع له بوكلاء الدول وأفضى إليهم بعزمه على تأييد المشروع .

فقناة السويس يرجع إتمامها إلى تعضيد إسماعيل ورعايته ، لأن سعيد باشا لم يكذب بتولى المشروع في خطواته الأولى ، حتى عاجلته المنية ، فلولا اتجاه إرادة إسماعيل إلى تعضيد المشروع وإنفاذه ، لكان مصيره الجيوب لا محالة ، ولعجز المسيو دلسبس عن المضي فيه ، ولعل إسماعيل أراد كما أراد سلفه أن يكسب رضا الأوروبيين من أنصار المشروع ، وينال إطراءهم وثناءهم ، ويستحق في نظرهم لقب « فاتح القناة » ، فعضد المشروع بكل قوته ، واحتتمل تبعه إتمامه ، كما احتتمل سعيد تبعه البدء فيه والتصميم على إنفاذه .

سعى إسماعيل في تخفيف شروط الامتياز

على أنه من الحق أن نقرر أن إسماعيل باشا قد هالته فداحة المزايا التي نالها الشركة في عقد الامتياز ، فسعى جهده في تخفيفها ، وكان من هذه الوجهة أكثر مراعاة لمصلحة مصر من عمه سعيد .

ومما يؤثر أنه قال يوماً : « إنني أريد أن تكون القناة لمصر ، لأن تكون مصر للقناة » وقيل أنه فكر يوماً في أن يتولى بنفسه تنفيذ المشروع . ولو حقق هذه الفكرة لجعل القناة حقيقة ملكاً لمصر ، ولكنه لم يفعل ، واكتفى بالاعتراض على أوجه أربعة من شروط الامتياز وسعى في إبطالها وهي :

١- تعهد الحكومة بتقديم العمال الذين تحتاج إليهم الشركة لغاية عشرين ألفاً باستمرار^(١) ، وزعم الشركة أن لها مطالبة الحكومة بتعويض في حال تفصيها أو عجزها عن تقديم هذا العدد .

٢- ملكية الشركة لترعة المياة العذبة التي كلفت بمقتضى العقد إنشائها واستغلال رى الأطنان المملوكة للأفراد على جانبيها مقابل أجر تقتضيه منهم حسب تقديرها .

٣- ملكية الشركة لجميع الأراضي التي ترى أنها في حاجة إليها لحفر القناة وإنشاء الترعة العذبة ، وإعفاؤها على الدوام من دفع الأموال الأميرية عليها ، وملكيتها لجميع الأراضي التي تستصلحها وتزرعها ، وإعفاؤها من دفع أموالها مدة عشر سنوات .

٤- إضطرار الحكومة إلى تزعم ملكية الأطنان المملوكة للأفراد إذا احتاجت إليها الشركة لاستغلال امتيازها .

وقد فاوض إسماعيل الشركة لإلغاء هذه الشروط ، واعتمد في مفاوضاته على وزيره نوبار باشا ، وقدم حججاً وأسناد قوية تأييداً لطلباته ، وكانت حجته في إلغاء الشرط الأول رغبته في إلغاء السخرة ، لأن هذا الشرط هو إقرار فعلي لتسخير العمال والفلاحين في العمل لفتح القناة ، وهذا ما لا يتفق ومبادئ الإنسانية .

وحجته بالنسبة للشرط الثاني والثالث أن قوانين الدولة العثمانية الخاصة بالملكية العقارية والتي كانت متبعة في مصر وقتئذ ولا تجيز التنازل للأجانب عن ملكية الأراضي والعقارات .

وكانت أولى خطواته في تخفيف الشروط أن أبرم اتفاقاً مع الشركة في ١٨ مارس سنة ١٨٦٣^(٢) يقضى بأن تتولى الحكومة إنشاء الترعة في القسم الممتد بين النيل ووادي الطميلات ، ووصلها بالجزء الذي أنشأته الشركة من ترعة الوادي إلى القناة ، وقد عرغت هذه الترعة من منبعها إلى مصبها بالترعة الإسماعيلية ، وغرض الخديو من هذا الاتفاق تجنب المنازعات الخاصة بملك الشركة للترعة ، وانتزاعها ملكية الأفراد من الأطنان التي يقتضيها إنشاؤها ، وكان عمله في هذا قرين الحكمة والسداد .

وأوفد إسماعيل وزيره نوبار باشا إلى الأستانة ، ثم إلى فرنسا ، للسعى في تخفيف شروط

(١) بلغ هذا العدد ٢٢ ألفاً في أواخر عهد سعيد (ج ٤ ص ٣٣٤ من وثائق القناة للمسيو دلسيس) .

(٢) وثائق القناة للمسيو دلسيس ج ٤ ص ٢٩٠ .

الامتياز . وأوضح مطالبه في رسالة بعث بها نوبار إلى الشركة^(٣) وتلخص فيما يلي :

١- إنقاص عدد العمال الذين تلتزم الحكومة بتقديمهم للشركة إلى ستة آلاف لأن تسخير العدد الحالي (٢٠ ألفاً) يضر ببلاد وبالأزراعة .

٢- زيادة أجورهم ، وجعلها فرنكين لكل عامل في اليوم . لكي يعوض الفلاح ما يجسره من ترك بلده وأرضه وما يبذله من الجهد للعمل في حفر القناة .

٣- إلغاء امتياز ملكية الشركة للأراضي ، وفي مقابل ذلك تأخذ الحكومة المصرية على عهدها إتمام الترعة العذبة ، وأن تعوض الشركة قيمة النفقات التي بذلتها في القسم الذي أنشأته منها .

وقا عارضت الشركة في هذه المطالب ، بحجة أن إنقاص عدد العمال من عشرين ألفاً إلى ستة آلاف يعطل إتمام المشروع ، وبطيل مدة العمل من ثلاث سنوات إلى عشر ، مما يؤكد الشركة خسائر جسيمة ، وأن تملكها للأراضي القابلة للاستصلاح ، وللترعة من رأس الوادي إلى القناة ، من المسائل الجوهرية ، التي لا تنازل عنها .

تحكيم نابليون الثالث

وقد اشتد الجدل حول مطالب إسماعيل ، وهبت الصحف والدوائر السياسية والمالية في فرنسا للدفاع عن شروط العقد ، والمعارضة في إيطاليا ، وارتضى الخديو أخيراً تحكيم الإمبراطور نابليون الثالث إمبراطور الفرنسيين ، للفصل في النزاع ، فكان هو الخصم والحكم ، لما كان معروفاً عنه من تأييده للشركة ، وعطفه على المسيو فردينان دلسيس ، ويرجع هذا العطف إلى أن المشروع في ذاته عظيم النفع لفرنسا ، وإلى أن دلسيس يمت إلى الإمبراطورة أوجيني بصلة قرابة بعيدة .

الحكم في النزاع

أصدر نابليون الثالث حكمه في ٦ يولييه سنة ١٨٦٤ وهو يقضى بما يأتي :

١- إبطال حق الشركة مطالبة الحكومة بتقديم العمال المصريين ، وإلزام الحكومة في مقابل ذلك بتعويض مالي تدفعه للشركة ومقداره ٣٨,٠٠٠,٠٠٠ فرنك .

(٣) بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٣ - وثائق القناة للمسيو دلسيس ج ٤ ص ٣٥٠ .

٢- تنازل الشركة للحكومة عن كل حق في ترعة المياه العذبة ، والتزام الحكومة بإتمامها مع حفاظ الشركة بحق الانتفاع بها ، وإلزام الحكومة مقابل هذا التنازل بأن تدفع لشركة تعويضاً قدره ١٦,٠٠٠,٠٠٠ فرنك .

٣- جعل الأراضي المملوكة للشركة واللازمة للمشروع ٢٣,٠٠٠ هكتاراً تقريباً^(٤) منها ١٠,٢٦٤ هكتاراً على جانبي القناة البحرية وملحقاتها ، و ٩,٦٠٠ هكتار للترعة العذبة ، وثلاثة آلاف هكتار لمباني الشركة .

٤- إعادة الأراضي الأخرى التي اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ٦٠,٠٠٠ هكتار ، مقابل تعويض تدفعه الحكومة وقدره ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك^(٥) .

فداحة التعويضات

فكان مجموع ما أُلزمت به الحكومة من التعويضات للشركة طبقاً لحكم الإمبراطور نابليون الثالث ٨٤,٠٠٠,٠٠٠ فرنك (= ٣,٣٦٠,٠٠٠ جنيه) ، وبيانها كما يأتي بالجنبيات :

	جنيه
مقابل إعفاء الحكومة من تقديم العمال المصريين لحفر القناة	١,٥٢٠,٠٠٠
مقابل تنازل الشركة عن حق إنشاء الترعة العذبة	٦٤٠,٠٠٠
مقابل تنازل الشركة عن دعاوها في ملكية الأراضي	١,٢٠٠,٠٠٠
مجموع التعويضات	٣,٣٦٠,٠٠٠

وإذا علمت أن رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه ، أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التي حكم على مصر بأدائها ، وأنها تبلغ على وجه التقريب نصف رأس مال الشركة .

ويُعد هذا الحكم من الأحكام الجائرة في التاريخ ، لأنه يبي على أسباب لا يسبغها عدل ولا منطق ، فقد ألزم الإمبراطور نابليون الثالث الحكومة المصرية بتعويض عن أمور ثلاثة وهي :

الأول : إعفاؤها من تقديم العمال المصريين . وبنى هذا التعويض على أنها ملتزمة أصلاً

(٤) المكتار عشرة آلاف متر أي أكثر من فدانين .

(٥) رسائل ويوميات ووثائق عن القناة للمسيو دلسيس ج ٤ ص ٤٧٦ .

بتقديم هؤلاء العمال للشركة ، وأن إخلالها بهذا الالتزام سيضطر الشركة إلى جلب عمال من أوروبا ، فتدفع لهم فروقاً في الأجرة ، وإلى استحضار آلات تفتي عن الأيدي العاملة ، وتكلفتها نفقات طائلة ، وأن الحكومة المصرية مسئولة عن هذه الفروق والنفقات ، وقد قدرها بهذا المبلغ الضخم (١,٥٢٠,٠٠٠ جنيه) .

ولا مراء في أن هذا السبب ظاهر فيه التعسف والهوى ، لأنه من التأمل في شروط الامتياز يتبين أنها لا تتضمن « التزاماً » من الحكومة بتقديم أى عدد من العمال ، بل كل ما ورد في العقدان أربعة أخماس العمال يكونون من المصريين (مادة ٢) ، وأن الحكومة تعهدت ببذل مساعدتها للشركة (مادة ٢٢) ، فليس في العقد « التزام » بالمعنى القانوني يؤدي إلى الحكم بتعويضات فيما إذا لم تسخر الحكومة العدد الذي تبتغيه الشركة من العمال ، بل كان على الشركة أن ترغب العمال في العمل بالأجور التي تعرضها عليهم ، أما جعل العمل إجبارياً بواسطة سلطة الحكومة ، فأمر لم تلتزم به الحكومة أصلاً في عقد الامتياز .

الثاني : تنازل الشركة للحكومة عن إتمام ترعة المياه العذبة ، وعن الجزء الذي أنشأته فيها ، وقد رتب الحكم على هذا التنازل إلزام الحكومة بتعويض للشركة مقابل النفقات التي بذلتها في الجزء الذي أنشأته وحرمانها من الأرباح التي كانت تنالها من استغلال الترعة بعد تمامها ، وقدر هذا التعويض بمبلغ ١٦,٠٠٠,٠٠٠ فرنك (٦٤٠,٠٠٠ جنيه) ، وكانت العدالة تقضي بالالتزام للحكومة إلا بما أنفقته الشركة فعلاً على الجزء الذي أنشأته ، ما دامت قد تنازلت عنه للحكومة ، وهذا ما كان إسماعيل باشا مستعداً لأدائه ، ومقداره باعتراف الشركة ٧,٥٠٠,٠٠٠ فرنك (٣٠٠,٠٠٠ جنيه) ولكن التحيز والهوى جعلنا نابليون الثالث يكيل المال جزافاً للشركة .

الثالث : تنازل الشركة عن ملكية الأراضي التي تبين من الحكم عدم لزومها لإنفاذ المشروع . وقد قدرت في الحكم بـ ٦٠,٠٠٠ هكتار ، وهنا أيضاً ظهر الغرض والتحيز للشركة . لأن هذه الأراضي هي جهات صحراوية جرداء ، لم تكن الشركة قد استصلحتها بعد ، واتضح أن إنفاذ المشروع لا يقتضيها ، وبالرغم من ذلك قدر نابليون الثالث ثمنها على اعتبار ماسيثول إليه أمرها في المستقبل !! فجعل لكل هكتار (فدانين تقريباً) خمسمائة فرنك (٢٠ جنياً) ، وحكم على مصر بأن تدفع للشركة في هذا الباب وحده ثلاثين مليون فرنك (١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه) ، وهكذا قضت « عدالة » نابليون الثالث أن تدفع مصر هذا الثمن

الباخط لبقاء ملكها في حوزتها ، وهذا من أغرب ما سمع في معرض الظلم والجور .
والخلاصة : أن مصر خرجت من هذا التحكيم بصفة المغبون ، وعدت الشركة حكم
الإمبراطور فوزاً مبيناً كفل لها إتمام المشروع على حساب مصر ، فلا غرو أن وصفه المسيو فوردينا
دلسيس بأنه « السند الأساسي للشركة ووثيقة الكفالة والأطمئنان لها »^(٦) ، وكذلك كانت
مراحل المشروع منذ البدء فيه إلى ما بعد إتمامه شؤماً ووبالاً على البلاد .
وعنى عن البيان أن الحكمة كانت تقضى بالأب يتورط الخديو إسماعيل في مثل هذا
التحكيم ، الذي جر على مصر هذه الخسائر الجسيمة ، ولو أنه استمسك بشروطه ولم يقبل
تحكيمياً لما استطاعت الشركة أن تخطو خطوة في العمل ، إذ كان كل شيء معلقاً على الأيدي
العاملة المصرية ، ولولا تلك الأيدي النشيطة القوية ، لوقف المشروع وقضى عليه بالحبوط ،
دون أن تحرك مصر ساكناً ، ولكن شاء جد مصر العائر أن يركن إسماعيل إلى « العدالة
الأوروبية » ، فوقع على يدها ما رأيت من الظلم والاعتساف .

اتفاق ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦

وعقد إسماعيل والشركة اتفاقاً في ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ لتسوية النزاع بينها مع مراعاة حكم
نابليون الثالث ، وهذا الاتفاق يقضى بما يأتي :

- ١- تحديد مواعيد الأقساط المقدرة لأداء قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة .
- ٢- استعمال الأراضي المخصصة للشركة بصفة ملحقات للقناة للمنة .
- ٣- التنازل للحكومة عن ترعة المياه العذبة مع الأراضي والمباني والأعمال الفنية التابعة
لها ، على أن تدفع لها الحكومة ثمن هذه المباني .
- ٤- مبيع أراضي تفنيش الوادي^(٧) للحكومة بثمن قدره عشرة ملايين فرنك
(٤٠٠ ألف جنيه) .
- ٥- حق الحكومة في احتلال أي جهة في الأراضي المعتبرة حرماً للقناة وأي موقع حرى
لازم للدفاع عن البلاد على شرط ألا يكون ذلك الاحتلال عائقاً للملاحة .

(٦) وثائق القناة تمسبو دلسيس ج ٥ ص ٢١٨ .

(٧) هي أطيان تبلغ ٢٣.٧٨٠ فدان سبق للشركة أن اشترتها من شركة إلماسي بثمن قدره ١.٧٠٠.٠٠٠ فرنك
(بحسب ٦٨.٠٠٠ جنيه) ولم تدخل في التحكيم لأنها ملك خاص للشركة .

٦- شغل الحكومة ما تراه من تلك الأراضي بمبانٍ تنشئها لمصلحتها كالبريد والتكناات
والجبارك وغيرها ، على شرط أن تراعى كل ما تقضى به ضرورة الانتفاع بالقناة ، وأن تدفع
للشركة المبالغ التي تكون قد صرفتها على تلك الأمكنة .
ثم أبرم في ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ اتفاقاً كاملاً مع الشركة يتضمن الشروط الواردة في عقد
الامتياز الأصلي مع التعديلات الطارئة عليه^(٨) .

تصديق السلطان - واتفاق ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩

وفي ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ صدر فرمان السلطان بالتصديق على اتفاق ٢٢ فبراير سنة
١٨٦٦^(٩) .

وعقد إسماعيل والشركة اتفاقاً آخر في ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩ ، ألقى فيه الشرط الخاص
بإعفاء مستوردات الشركة من الخارج من الرسوم الجمركية ، وأعطاهها مقابل ذلك تعويضاً
قدره عشرون مليون فرنك ، وتنازلت الشركة للحكومة عن بعض المباني والمستشفيات مقابل
عشرة ملايين فرنك^(١٠) .

انتهاء العمل وافتتاح القناة

(نوفمبر سنة ١٨٦٩)

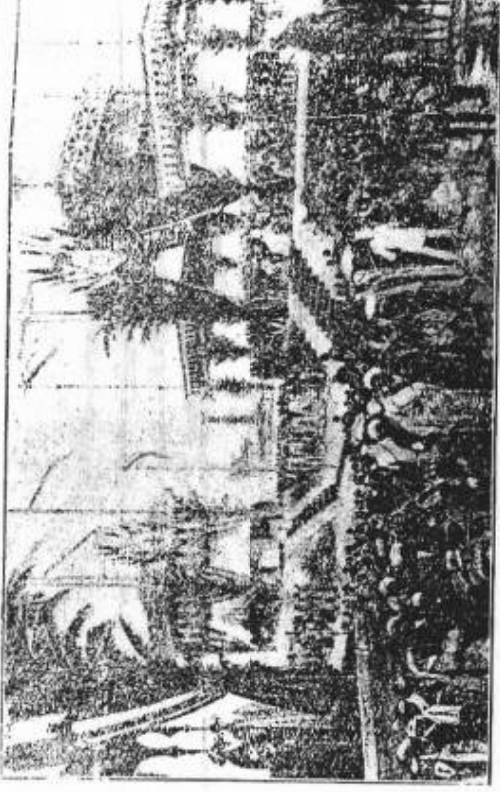
وانتهى العمل في حفر القناة واتصلت مياه البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر في نوفمبر
سنة ١٨٦٩ ، فكان العمل قد استمر عشر سنوات ، وبلغ طول القناة ١٦٤ كيلو متراً ،
وأنشئت على شاطئها مدينة بور سعيد ومدينة الإسماعيلية ، وافتتحت القناة للملاحة يوم
١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ .

وأقام إسماعيل لمناسبة افتتاح القناة تلك الحفلات النخمة التي لم يعرف التاريخ احتفالاً
بدانها في الإسراف والتبذير .

ويكفيك دليلاً على مبلغ ذلك الإسراف أن تعرف نفقات الحفلات ، فقد بلغت على
أصح تقدير ١.٤٠٠.٠٠٠ جنيه ، ولا توجد حكومة رشيدة تكلف خزانتها هذا المبلغ الضخم .

(٨) و(٩) وثائق القناة ج ٥ ص ٢٣١ و ٢٦٥ .

(١٠) كتاب « برزخ قناة السويس » للمسيو شارل رو Roux ج ١ نص ٥٠١ .

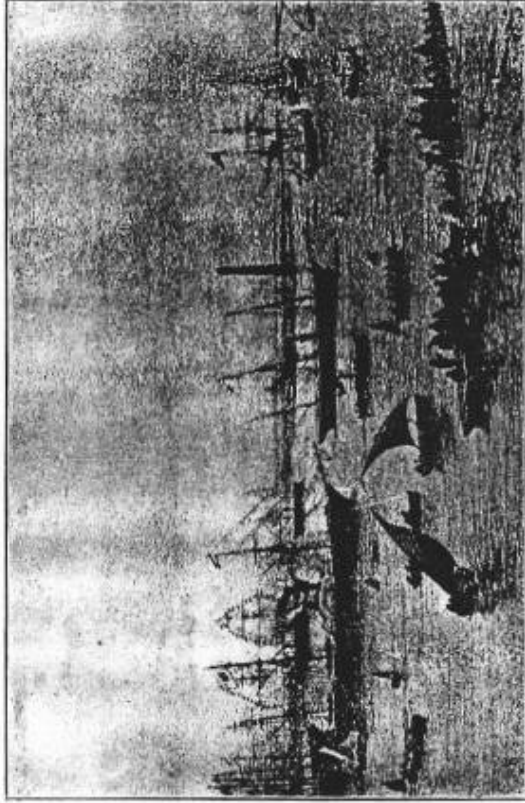


حفلة افتتاح قناة السويس بروسيايد

يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩

وقد أقيمت في هذه الحفلة ثلاث منصات ، خصصت للنصبة الكبرى للملك والأمراء وكبار الدعويين ، والثانية لرجال الدين الإسلامي ، والثالثة لرجال الأكاديموس ، وجلس في النصبة الكبرى : الحفيد إسماعيل . أوجيني امبراطورة الفرنسيين . فرانسوا جوزيف امبراطور النمسا وملك المجر . الأمير فردريك ويلهلم ولي عهد بروسيا . الأمير هنري أمير ملك هولندا والأميرة فرنت . السير هنري إليوت سفير إنجلترا بالاسناتة وعقبه الليدى إليوت . الأمير مورا . الأمير محمد توفيق باشا ولي العهد . الأمير هو هلته . الخزال اجناتيف سفير روسيا في الاسناتة ومدام اجناتيف . الأمير طوسون باشا ابن محمد سعيد باشا . شريف باشا وزير الداخلية ورئيس المجلس الخصوصي العالي و مجلس الوزراء . . نوبار باشا وزير الخارجية . شامعن باشا وزير الحربية والبحرية . رياض باشا خازن دار الخديو . السير فريدنان دلسيس . الأمير عبد القادر الجزائري . السير دوست والكونت أندراس من وزراء النمسا . البارون بروكشس سفير النمسا في الاسناتة
... الخ الخ ...

وقد ألقى الشيخ إبراهيم السقا في هذا الاحتفال كلمة تبرك باللغة العربية . ثم تلاه المؤسستور و بوير ، واعظ نابليون الثالث الذي جاء خصيصا من فرنسا لحضور الاحتفال والتي خطبة تبرك باللغة الفرنسية .

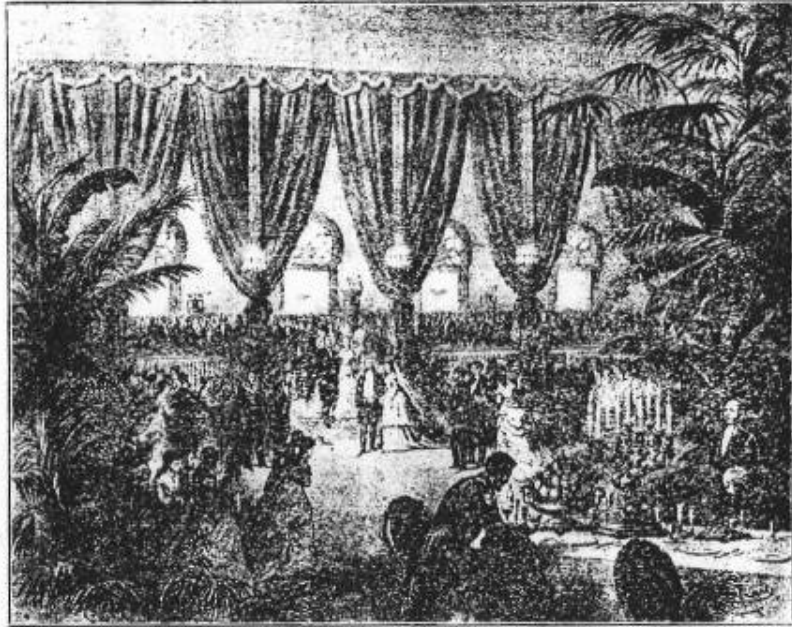


دخول اليواخر المقله للملك والأمراء قناة السويس

في صبيحة ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩

ابتداءً بافتتاح القناة للملاحة

وتوى في مقلمة اليواخر الشقية (ليجل) L'Aigle نقل الإمبراطورة أوجيني



(البالو) أو حفلة الرقص التي أقامها الخديو إسماعيل في قصره بالإسماعيلية ليلة

١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ابتهاجا بافتتاح قناة السويس

(اقتبسنا هذه الصورة والصورة السابقة من كتاب افتتاح قناة السويس

Inauguration du Canal de Suez للمسيو نيكول Nicole وهذا الكتاب وضع خصيصا

لوصف حفلات القناة. والصورة التي فيه لمرسم ريو Riou)



احدى الحفلات الفخمة التي أقيمت ابتهاجا بافتتاح قناة السويس

وليلة العشاء التي أهداها الخديو إسماعيل لضيوفه في قصره بمدينة الإسماعيلية ليلة ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، وقد مدت الموائد في هذه الحفلة لآلاف المدعوين ، وترى في صدر اللقطة الرئيسية الإمبراطورة أوجيني إمبراطورة الفرنسيين ، وعن يمينها فرنسوا جوزيف إمبراطور النمسا ، وعن يسارها الأمير فريدريك ويلهلم ولي عهد بروسيا . وإلى يمين الإمبراطور فرنسوا جوزيف عقيلة السير اليوت سفير إنجلترا بالأستانة ، ثم الجنرال اجناثيف سفير روسيا في الأستانة ، وإلى يسار ولي عهد بروسيا عقيلة سفير روسيا ، ثم السير هنرى اليوت سفير إنجلترا بالأستانة ، وأمامهم الخديو إسماعيل ، وإلى يمينه أميرة هولندا ، فالأمير حورا ، وإلى يسار الخديو أمير هولندا ، ثم مدام دي بواز ، ثم المسيو فودينان دلسيس .

يصعب في حفلات لا طائل لها في الوقت الذي استهدفت فيه الحكومة والبلاد لأشد ضروب
تضيق المالى

خسائر مصر المالية في إنشاء القناة

يقدر مؤلف « تاريخ مصر المالى » ما خسرت مصر في إنشاء القناة ، من ثمن أسهمها في
الشركة . وما بذلته لها من التعويضات ، وما دفعته في إنشاء ترعة الإسماعيلية ، واسترداد
أطيان الوادى ، ونفقات حفلات القناة بمبلغ ١٦.٨٠٠.٠٠٠ جنيه^(١١) .
وهذا التقدير هو أقرب الإحصاءات للواقع ، وهو قريب من البيان الذى قدمته الحكومة
لمجلس شورى النواب بجلسه ٢٠ رجب سنة ١٢٩٣ هـ عن ديون الحكومة وإيراداتها
ومصرفاتها . فقد جاء فيه أن مجموع ما دفعته في قناة السويس ١٦.٠٧٥.١١٩ جنيه
مصرى ، وهذا الإحصاء يقبل عن إحصاء المسر إدوين دى ليون Edwin de Leon
قنصل الولايات المتحدة العام في مصر على عهد إسماعيل . فإنه قدره بمبلغ ١٧.٤٢٣.١٧٨
جنيه إنجليزي^(١٢) .

ومن هذه المقاربة يتضح أن إحصاء مؤلف تاريخ مصر المالى هو الرقم الوسط الذى يصح
الاعتماد عليه ، وسنجهن هنا في أن نضع مفردات لهذا الإحصاء طبقاً للبيانات التى أوردناها .
جنيه

قيمة أسهم مصر في القناة	٣.٤٢٦.٠٠٠
قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة	٣.٣٦٠.٠٠٠
ثمن أراضي تفتيش الوادى	٠.٤٠٠.٠٠٠
تعويض مدفوع للشركة بمقتضى اتفاق ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩	١.٢٠٠.٠٠٠
نفقات الرعة العذبة	١.٢٠٠.٠٠٠
نفقات حفلات القناة	١.٤٠٠.٠٠٠
	١٠.٩٨٦.٠٠٠
فوائد وسمرة ونفقات التحكيم وما إلى ذلك	٥.٨١٤.٠٠٠
التجميع بالجنيهات	١٦.٨٠٠.٠٠٠

(١١) تاريخ مصر المالى ص ١٣٢ . ولم يذكر المؤلف مفردات هذه الإحصاء .

(١٢) في كتابه (مصر الحديثى) The Khedives Egypt طبع سنة ١٨٧٧ ص ٤١٧ .

ولا تحسبن أن في رقم الفوائد وما إليها مبالغة ، فإن المسر إدوين دى ليون يقدرها في
إحصائه بمبلغ ٦.٦٦٣.٠٠٠ جنيه (ص ٤١٧ من كتابه) .

وإذا علمت أن نفقات إنشاء القناة بأكملها بلغت بحسب إحصاءات الشركة
٤٥١.٦٥٦.٦٦٠ فرنك ، أى نحو ١٨.٠٠٠.٠٠٠ جنيه ، أدركت أن مصر احتملت وحدها
معظم هذه النفقات ، وإذا بحثنا عما نال مصر من بذل هذه المبالغ الجسيمة التى كانت من
أسباب ارتباطها المالى ، كان الجواب أنها لم تنل من القناة أية فائدة . بل عادت عليها بالوبال
والخسران ، إذ كانت مقدمة الاحتلال الإنجليزي ، وفي ذلك يقول المرحوم محمد بك فريد :
« بمكنتنا القول بأنه لولا نقود مصر وفلاح مصر الذى ما زال يجبر على الاشتغال قهراً بأجرة
زهيدة لما أمكن دلسب أن يتم هذا المشروع الذى كان سبباً فاجاً نحن فيه من الاحتلال
الأجنبى ، وما ستره نحن وأولادنا إن لم تساعدنا المقادير »^(١٣) .

بيع أسهم مصر في القناة

كان لمصر من أسهم شركة القناة ١٧٦.٦٠٢^(١٤) سهماً ، وهو مقدار عظيم يكاد يساوى
نصف أسهم الشركة ، لأن مجموع الأسهم ٤٠٠ ألف سهم .

وقد اكتسب فيها سعيد باشا واشترها بمبلغ ٣.٤٢٦.٠٠٠ جنهماً ، ولا ريب أن امتلاك
هذا المقدار من الأسهم كان من شأنه أن يجعل لمصر شيئاً من الهيمنة على الشركة وإدارتها ،
ويجولها حتى التدخل في شئونها ، كما أنها مورد أرباح وفيرة تعود على الخزنة المصرية بأففع
الثمرات ، وخاصة بعد تقدم أعمال الشركة وارتفاع أسهمها بدرجة فاقت كل تقدير :

ولكن إسراف إسماعيل أبى إلا أن يجرم مصر هذه الثروة الضخمة . ففي سنة ١٨٧٥ أخذ
معين من المال ينضب بين يديه ، بعد القروض الباهظة التى استدانها . والأعباء الجسيمة التى
ناعت بها الخزنة ، ففكر في بيع أسهم مصر في القناة وعرضها فعلاً للبيع .

وقد بدأ بعرضها على فرنسا ، فترددت في الأمر ، ولكن الحكومة الإنجليزية ما لبثت أن
علمت بالمسألة حتى بادرت بشرائها ، لأنها وجدت في هذه الصفقة فرصة سانحة لوضع يدها
على القناة .

(١٣) تاريخ الدولة العثمانية ص ٣١٧ للمرحوم محمد بك فريد .

(١٤) عددها في الأصل ١٧٧.٦٤٢ ، باعت منها الحكومة من قبل ١٠.٤٠٠ سهماً فصار الباقي ١٧٦.٦٠٢ .

فاشترت هذه الأسهم بثمن بخس أربعة ملايين من الجنيهات الإنجليزية ، وبهذه الصفة
أضاع إسماعيل على مصر الميزة التي بقيت لها من مشروع القناة.

خسائر فادحة

وقد بلغت قيمة هذه الأسهم (في سنة ١٩٢٩) ٧٢ مليون جنيه ، ورحمت منها الخزانة
البريطانية (إلى أواخر سنة ١٩٢٩) ٣٨,٦٠٠,٠٠٠ جنيه . ومجموع ذلك ينف ومائة مليون
جنيه وعشرة ملايين من الجنيهات ، أى أن خسارة مصر من هذه الناحية بلغت إلى تلك
السنة :

$$١١٠,٠٠٠,٠٠٠ - ٤,٠٠٠,٠٠٠ = ١٠٦,٠٠٠,٠٠٠ \text{ جنيه .}$$

وثمة خسارة أخرى أصابت مصر إذ تنازلت عن ١٥ في المائة من أرباح القناة التي كانت
تؤول لها بمقتضى عقد الامتياز ، تنازلت عن هذه الحصص بسبب قروض إسماعيل مقابل ٢٢
مليون فرنك أفي ٨٨٠,٠٠٠ جنيه ، وقد بلغت قيمة هذا النصب الآن (سنة ١٩٣٢) نحو
٢٠ مليون جنيه ، وهو يغل إيراداً لا يقل عن ٨٦٩,٠٠٠ جنيه في السنة .

وهذه الأرقام تدل على مبلغ ما أصاب مصر في الصفقتين من الحسران المبين .

• • •



خريطة قناة السويس

قناة السويس وتواريخها الهامة

٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ : منح سعيد

باشا امتياز القناة إلى السيد دلسيس .

٥ يناير سنة ١٨٥٦ : شروط

الامتياز .

٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ : ابتداء

العمل في حفر القناة .

٦ يوليو سنة ١٨٦٤ : حكم

الإمبراطور نابليون الثالث .

١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ : افتتاح

القناة للملاحة .

٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ : بيع أسهم

مصر في القناة إلى إنجلترا .

٧ أبريل سنة ١٩١٠ : رفض

الجمعية العمومية المصرية تجديد

الامتياز .

١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ : انتهاء

الامتياز وعودة القناة إلى مصر .

الفصل الخامس

السودان في عهد إسماعيل

من مآثر الخديو إسماعيل التي تخلد ذكره في تاريخ مصر القومي أنه وجه عنايته وحمته إلى إتمام فتح السودان ، والوصول إلى حدود مصر الطبيعية ، ومعلوم ، أن هذه الحدود تشمل وادي النيل وملحقاته ، من البحر الأبيض المتوسط شمالاً ، إلى منابع النيل والأقيانوس الهندي جنوباً ، ومن البحر الأحمر شرقاً ، إلى صحراء ليبيا (لوييه) غرباً .
ولقد أكمل إسماعيل من هذه الناحية العمل الذي بدأ به محمد علي ، فوسع نطاق السودان ، وبسط الحكم المصرى في أمحائه ، ومد رواق الحضارة والعمران على ربوعه .

توسيع نطاق السودان

بيننا في كتاب « عصر محمد علي » (ص ١٩٢ الطبعة الأولى) مدى فتوح مصر في السودان على عهد محمد علي ، وذكرنا أن حدود السودان وصلت شرقاً إلى البحر الأحمر ، وضمت إقليم الناكا (كسلا) الواقع شرق نهر عطبرة . ووصلت من جهة الحبشة إلى القصارف والقلابات ، ودخلت سواكن ومصوع في نطاقها ، وبلغت الحملات والتجاريد جنوباً إلى جزيرة (جونكر) تجاه غندكرو الواقعة على النيل الأبيض .

فلنذكر الآن الفتوح المصرية في الأقطار السودانية على عهد إسماعيل ، وخلاصتها أن مصر فتحت مديرية فاشودة ، وضمت محافظتى مصوع وسواكن نهائياً إلى أملاكها ، وفتحت إقليم خط الاستواء ومملكة (أونيورو) وبسطت حمايتها على مملكة (أوغنده) وفتحت إقليم بحر الغزال ، ثم سلطنة دارفور ، واتسعت أملاك مصر بين الحبشة والبحر الأحمر بفتح سنهيت ، وبلاد اليوغوس ، وامتدت سلطتها إلى سواحل البحر الأحمر حتى بوغاز باب المنذب ، وضمت محافظتى زيلع وبربرة الواقعتين على خليج عدن ، فيما يلي بوغاز باب المنذب ، وفتحت سلطنة (هرر) الواقعة في الجنوب الشرقى من الحبشة ، ودخلت سواحل الصومال

الشالية في أملاك مصر حتى رأس جردفون (جردفوى) على المحيط الهندي ، ثم إلى رأس (حافون) وبذلك كله انفسحت رقعة الفتوح المصرية ، فوصلت جنوباً إلى بحيرة ألبرت وبحيرة فكتوريا . وشرقاً إلى البحر الأحمر وخليج عدن ، وغرباً إلى حدود (واداي) .
وستذكر فيما يلي هذه الفتوح تفصيلاً :

فتح فاشودة

(سنة ١٨٦٥)

في سنة ١٨٦٥ احتلت الجنود المصرية فاشودة احتلالاً رسمياً ، وذلك على عهد جعفر صادق باشا حاكم دار السودان ، واتخذت الحكومة بها نقطة حرية دائمة لمنع تجارة الرقيق فسدت الطريق أمام النحاسين الذين كانوا يجلبون الأرقاء بطريق النيل من أقاليم بحر الغزال خط الاستواء ، وصارت فاشودة عاصمة المديرية المسماة باسمها .

ولفاشودة أهمية كبرى ، نالها من موقعها الجغرافي والحرثي ، فإنها تعد مفتاح النيل الأعلى ؛ لوقوعها على ملتقى الطرق المختلفة الواصلة من الخرطوم والحيشة إلى جنوبي السودان ، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل كنهرو سوبا وبحر الغزال والنيل الأبيض وبحر الزراف ، وهي نقطة الاتصال بين السودان وجهات خط الاستواء .. ومن يملكها يضمن النفوذ في شمالي السودان وفي الجهات الجنوبية منه إلى البحيرات الاستوائية ، فلا غرو أن يكون لها مكانة كبيرة من الوجهتين السياسية والاقتصادية .

ولا يخفى أن فاشودة هذه هي التي قامت بشأنها تلك الأزمة السياسية المشهورة بين إنجلترا وفرنسا ومصر سنة ١٨٩٨ ، حين احتلتها كتيبة من الجنود الفرنسية بقيادة الكولونيل مرشان Marchanod ، فاحتجت الحكومة الإنجليزية على هذا الاحتلال ، وارتكبت على أنها من الأراضي المصرية . ثم انتهى النزاع بانسحاب الفرنسيين منها وبقائها من أراضي مصر ، وقد اكتسبت شهرة ذائعة بسبب هذا النزاع الذي دار حولها .

وقد غير الإنجليز اسمها ، وسموها الآن (كودوك) ، وغيروا اسم مديرية فاشودة ، فجعلوها مديرية (النيل الأعلى) ، وذلك لكي يمحو من الأذهان اسم فاشودة وما يثيره من ذكرى

الخلاف السياسي الذي قام بشأنها سنة ١٨٩٨ . والذي كانت حجة إنجلترا فيه أن هذا البلد من أملاك مصر .
فلذكر المصريون على الدوام اسم (فاشودة) . فإنه من الأعلام التاريخية التي تسجل في وجه الغاصب حق مصر الخالد في السودان .

ضم سواكن ومصوع

قلنا في الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد علي) ص ١٩٣ إن سواكن ومصوع دخلتا في حدود السودان المصري على عهد محمد علي ، لأنه إذ رأى ضرورتها للسودان ، وأنها منفذاه على البحر الأحمر ، وخاصة لإقليم التاكا (كسلا) ، استأجرهما من السلطان (وكانتا من أملاك السلطنة العثمانية) مقابل إيجار سنوي قدره ٢٥,٠٠٠ جنيه ، وبذلك دخلتا في ظل الحكم المصري .

على أن إسماعيل رأى إلحاقها بصفة نهائية إلى أملاك مصر ، فاستصدر في سنة ١٨٦٥ فرماناً من السلطان بإحالة قائمقامي سواكن ومصوع إلى عهده ، وجعلها فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ الذي تكلمنا عنه (ص ٧٩) من ملحقات مصر ، وصارت كل منهما محافظة قائمة بذاتها . فمحافظة سواكن تمتد على البحر الأحمر من رأس علبة إلى رأس قصار (راجع الخريطة الملحقة بهذا الفصل) ، ومحافظة مصوع امتدت من رأس قصار حيث تنتهي محافظة سواكن إلى حلة (رهيطه) عند بوغاز باب المنذب .

وقد عمرت مصوع وسواكن في ظل الحكم المصري ، ذلك أن مدينة مصوع كانت قائمة على جزيرة بالبحر ، فوصل بينها وبين اليابسة بحسر طوله ١٨٠٠ متر وعرضه عشرة أمتار ، وتم إنشاؤه سنة ١٨٧٢ ، فعمرت المدينة واتسعت ، وبني فيها ديوان المحافظة ، وآخر للجمرك ، ومسكن للموظفين ، وشيدت بها قلعة منيعة . وأنشئت ترعة صغيرة لتوصيل المياه العذبة إلى سواكن ، وهذه الترعة تستمد الماء من خزان أقيم لجمع مياه الأمطار في سفح جبل قريب من المدينة (١٥)

وظلت المحافظتان ملكاً لمصر إلى شوب الثورة المهديّة ، فلما اضطرت إنجلترا الحديدي توفير

إلى الفرار بإخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، وصار في نظر الدول الاستعمارية نهياً مقسماً ، انتهزت إيطاليا هذه الفرصة بتواطئها مع الإنجليز ، واحتلت محافظة مصوع سنة ١٨٨٥ ، وما زالت تحتلها إلى اليوم ، (١٩٣٢) وتسمى هي وملحقاتها مستعمرة (الأريترية) أما سواكن فقد جعلت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ الباطلة محافظة تابعة لحكومة السودان .

فتح إقليم خط الاستواء والوصول إلى منابع النيل

أسلفنا القول أن الحملات والتجاريد المصرية التي قادها البكباشي سليم بك قبطان في عهد محمد علي بلغت جزيرة جونكر نجاه غندكرو (راجع عصر محمد علي ص ١٩٠) ، ولكن هذا الفتح لم يكن إلا وقتياً ، بمعنى أنه لم يقترن بوضع حاميات عسكرية دائمة في تلك الجهات تفر سلطة الحكومة فيها ، فاعتزم إسماعيل أن يبسط نفوذ مصر بصفة دائمة في تلك الأصقاع ، وما يليها جنوباً حتى منابع النيل ، ولكنه لم يجد حذو جده في أن يعهد بهذه المهمة القومية إلى ضباط الجيش المصري . بل عهد بها إلى جماعة من الإنجليز ، وهذه مواطن ضعف في سياسته أدى إلى عواقب وخيمة سنذكرها فيما يلي :

مهمة السير صمويل بيكر Samuel Baker

فناط بالسير صمويل بيكر الرحالة الإنجليزي المشهور الزحف إلى الجهات الجنوبية لغاية منابع النيل وضمها إلى أملاك مصر .

رحلته في عهد سعيد باشا

بدأت رحلات السير صمويل بيكر في السودان على عهد سعيد باشا ، فقد قصد من تلقاء نفسه إلى تلك الأقطار ، لاكتشاف منابع النيل الأبيض ، وكان الرحالتان اسبيك Speke وجرانت Grant قد سبقاه إلى تحقيق هذا الغرض ، موفدين من قبل الجمعية الجغرافية الإنجليزية ، فجاها بطريق زنجبار ، واكتشفا بحيرة (اكروى) ومنبع النيل منها . وكان ذلك في ٢٨ يولييه سنة ١٨٦٢ ، وسميها باسم الملكة فكتوريا ، ملكة إنجلترا في ذلك الحين ، فصارت تعرف من ذلك الحين باسم بحيرة (فكتوريا) .

أما السير بيكر فأثر أن يسلك في اكتشافه طريق الخرطوم ، وصعد جنوباً في النيل فبلغ في ٢ فبراير سنة ١٨٦٣ غندكرو التي وصلت إليها حملات البكباشي سليم بك قبطان في عهد محمد علي سنة ١٨٤١ ، وأخذ يتأهب لمتابعة سيره ، وإذا بالرحالتان اسبيك وجرانت قد التقيا به ، وأبلغاه اكتشاف بحيرة فكتوريا ، وأنها إليه أن هناك بحيرة أخرى أخبرها بها الأهليون ، لم يتم اكتشافها بعد ، فتابع سيره حتى اكتشفها في ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ ، وسميها بحيرة (ألبرت) باسم الأمير ألبرت زوج ملكة إنجلترا .

ثم عاد إلى غندكرو ، وسار منها إلى الخرطوم فبلغها في ٣ مايو سنة ١٨٦٥ . وعاد من هناك إلى بريرة فسواكن ، وأقنع إلى إنجلترا ، وقد صحبته امرأته النبيلة ، في هذه الرحلة الطويلة ، وقاسمتها مخاطرها ومتاعها ، وكان لها الفضل الكبير في نجاحه في مهمته التي رفعته إلى مستوى كبار المكتشفين ، ولا غرو فإن اسمه يقرب دائماً باكتشاف بحيرة ألبرت إحدى منابع النيل الكبرى .

مهمته في عهد إسماعيل

(١٨٧١ - ١٨٧٣)

انقضت خمس سنوات تقريباً على رحلة صمويل بيكر الأولى ، ثم جاء مصر سنة ١٨٦٩ بصاحب الأمير إدوارد ولي عهد إنجلترا لحضور حفلات افتتاح قناة السويس . فرغب الأمير إلى الحديو إسماعيل أن يعهد إليه بمطاردة الاتجار بالرقيق في السودان نيابة عن الحكومة المصرية ، فلم يتردد إسماعيل في قبول الطلب ، إذ كان يبغي التودد إلى الحكومة الإنجليزية .

لم يكن الغرض من هذه المهمة خدمة الإنسانية ، بل كانت الحكومة الإنجليزية ترمي إلى تمهيد السبيل لتحقيق أطاعها الاستعمارية في وادي النيل ، وبيان ذلك أن إنجلترا بعد إنفاذ مشروع قناة السويس أخذت تتطلع إلى احتلال مصر ، وترمي أملاكها في السودان ، وتعمل على استطلاع أحواله ، والتدخل في شؤنه ، لكي تخلف مصر يوماً ما فيه . وما إرسالها السير صمويل بيكر ، ثم الكولونل غردون من بعده ، إلا تمهيداً لهذه الغاية الاستعمارية . ولو كان الحديو إسماعيل بعيد النظر ، بمقدار ما كان عليه من الذكاء ، لما ارتضى أن يبسط

نفوذ مصر في السودان على أيدي بيكر وغردون وأصراهما ، من دعاة الاستعمار الإنجليزي ، لأن هؤلاء لا يمكنهم أن يخلصوا لمصر ، بل هم يعملون على خدمة السياسة الإنجليزية التي كانت ولا تزال ترمي إلى إقصاء النفوذ المصري عن السودان .

قبل إسماعيل إذن ما عرضه عليه ولي عهد إنجلترا . وأصدر مرسوماً إلى السير صمويل بيكر عهد إليه فيه بسط نفوذ مصر في الأصقاع الكائنة جنوبي غندكرو ، وتنظيمها ونشر التجارة بها ، ومطاردة الاتجار بالرقيق وإنشاء المحطات الحربية فيها ، وجعله قائداً لحملة جردها لهذا الغرض مؤلفة من ١٧٠٠ مقاتل ، وأنعم عليه برتبة فريق فصار يعرف ببيكر باشا ، وجعله حاكماً على مديرية خط الاستواء لمدة أربع سنوات ، تبتدئ من أول أبريل سنة ١٨٦٩ براتب قدره ١٠,٠٠٠ جنيه في السنة .



نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الإبل من مصر إلى السودان في صحراء التوبة أواخر سنة ١٨٦٩ استعداداً لفتح إقليم خط الاستواء

وقد صحبته في هذه الحملة زوجته النيلة كما صحبته في رحلته الأولى ، ورافقته في الرحلات البعيدة التي قطعها . وشهدت الوقائع التي خاضها ، فكانت له نعم العضد الصادق الأمين . وامتح بيكر صفاتها في كتابه (الإسماعيلية) الذي أفرده لذكر هذه الحملة ، وأنشاد

ثمنه من الجهود في معالجة المرضى والجرحى ، وما كانت تبعثه في النفوس من روح الصبر ، شجاعة والإقدام ، وما أسدته من حسن التدبير لنجاح مهمته ، فكانت مضرب الأمثال في تربيته لزوجها من جليل الخدمات ، ومشاركتها إياه في المهام الجسام .

جهزت الحكومة الخديوية معدات الحملة ، وأقلت السفن معظم مهابتها من القاهرة إلى الخرطوم . واقتضى نقلها متاعب جمّة ، إذ لم يكن في استطاعة البواخر اجتياز الشلالات ، فنقلت أجزائها مفككة على ظهور الإبل في صحراء التوبة ، وكذلك نقلت المهات الثقيلة بهذه الوسيلة ، أما بيكر باشا فقد سار بجرأ من السويس إلى سواكن ومنها إلى بربرة على ظهور الإبل فقطع المسافة بينها في أربعة عشر يوماً ، واستقل من بربرة باخرة نيلية بلغ بها الخرطوم .



الأسطول النيلي الذي تحرك من الخرطوم يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ لفتح إقليم خط الاستواء وكان مؤلفاً من ثلاثين سفينة شراعية وبخترين

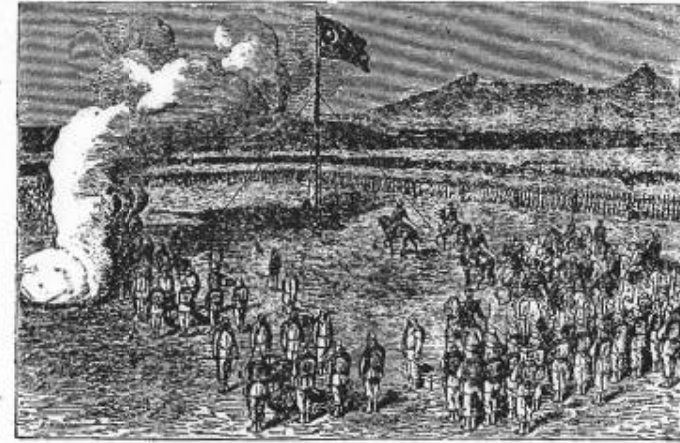
وصل بيكر باشا إلى الخرطوم ، في عهد حكمدارية جعفر مظهر باشا ، ثم قام منها يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠^(١٧) في حملة نقلها ثلاثون سفينة وبختران قاصداً جهات خط الاستواء . فرسا بالقرب من ملتقى نهر السوايط بالنيل (جنوبي فاشودة) وبني هناك محطة أسمائها

(١٧) الإسماعيلية للسير صمويل بيكر باشا ص ١٠١ و ١١٣ .

(لتوثيقية) باسم الأمير محمد توفيق بن عهد الأريكة الخديوية في ذلك العصر ، وأقام في هذه المحطة عدة أشهر ، ثم سار جنوباً حتى بلغ غندكرو التي وصل إليها من قبل البكباشي سليم بيك قبطان في عهد محمد علي .

رفع العلم المصري على غندكرو

بلغ بيكر غندكرو في ١٥ أبريل سنة ١٨٧١^(١٨) ، فرفع عليها العلم المصري يوم ٢٦ مايو في احتفال عسكري مهيب . أعلن فيه رسمياً ضم هذه البلاد إلى أملاك مصر .



حفلة رفع العلم المصري على غندكرو (الإسماعيلية) إعلاناً بضمها إلى أملاك مصر (٢٦ مايو سنة ١٨٧١)

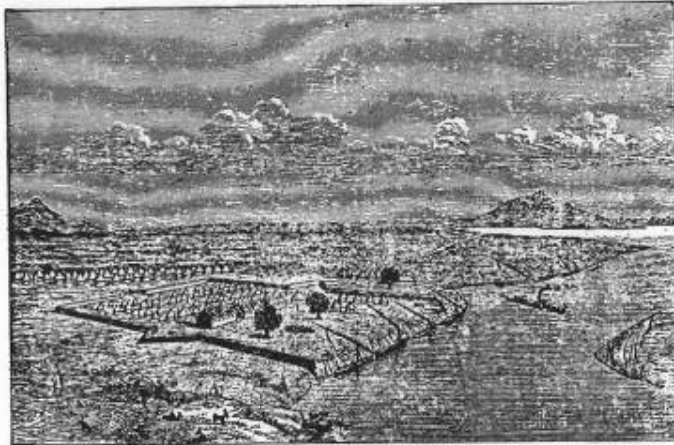
كان هذا اليوم يوماً مشهوداً في تاريخ السودان ، إذ اصطقلت الجنود المصرية بغندكرو في صعيد واحد ، على أكمة تشرف على النيل ، وبلغ عدد الجند الذين حضروا الاحتفال ١,٢٠٠ مقاتل ، وقفوا صفوفاً يرتدون ملابسهم البيضاء الرسمية ، وعلى رؤوسهم الكوفيات المتدللة على أكتافهم ، وساروا تنقدهم الموسيقى إلى مكان الاحتفال حيث نصبت سارية

(١٨) الإسماعيلية للسيرة صمويل بيكر يشا ص ١٠١ و ١١٣ .

علوه ٢٥ متراً ، وهناك أخذوا أماكنهم في نظام عسكري بديع . تصحبهم أسلحتهم ومدافعهم . وشهد الاحتفال رؤساء العشائر الذين جاءوا من مختلف لتواحي . ووقف بيكر باشا تحت السارية . وقرأ على الجمع الإعلان الرسمي الذي قرر فيه باسم الخديو ضم هذه الجهات إلى أملاك مصر . وعندما أتم تلاوة الإعلان رفع العلم المصري على السارية الكبيرة ، فحياه جند جميعاً بالسلاخ العسكرية ، وأطلقت المدافع نحية وإجلالاً .

وقد سمي بيكر باشا غندكرو (الإسماعيلية) باسم الخديو إسماعيل . وجعلها عاصمة مديرية خط لاسنواء (أنظر الخريطة ص ١٢٥) .

وفي ٢٢ يناير سنة ١٨٧٢^(١٩) استأنف السير في النيل الأبيض^(٢٠) . فأسس نقطة عسكرية



المسكن المصري في غندكرو (الإسماعيلية) سنة ١٨٧٢

(١٩) الإسماعيلية للسيرة صمويل بيكر ص ١٩٢ .

(٢٠) يطلق اسم النيل الأبيض على نهر النيل من منابعه إلى الخرطوم . ويسمى نيل فيكتوريا أو نهر السومست من منبعه من بحيرة فيكتوريا إلى مصبه في بحيرة ألبرت ، ومن مخرجه من بحيرة ألبرت إلى التقائه ببحر الغزال ثم بنهر سوبات يسمى بحر الجبل أو بحر الرجاف . وينضج عنه قبل التقائه ببحر الغزال فرع يسمى بحر الزراف ، ويسير البحران شمالاً متفرعين على شكل دكا إلى أن يلبغا النيل . ويستمر باسم النيل الأبيض إلى أن يلتق بالنيل الأزرق عند مدينة الخرطوم . ويقصر بعض علماء الجغرافية اسم النيل الأبيض على مجرى النهر من ملتق السوبات بالنيل إلى الخرطوم .

الحرب بينهما ، وانتهى القتال بهزيمته وفراره .
ثم انسحبت الحامية المصرية من ماسندى إلى شاطئ نيل فيكتوريا . لتأوى إلى مكان أمين .

وأعلن بيكر باشا خلع الملك كابريره ، وولى مكانه ملكاً آخر من الأسرة الحاكمة ، يدعى (ريونجا) ، كان يزاحم كابريره على عرش أنيورو . منذ وفاة الملك السابق . فتقبل هذا التنصيب بالإخلاص والابتهاج ، وبقي على ولائه لخديو مصر ، وجرى حملة على كابريره غلبته على أمره .

ولاء ملك أوغندة لمصر

وقد وفد على بيكر باشا رسل من الملك (امتيسى) ملك أوغندة المجاورة لمملكة أنيورو ، والواقعة شمال بحيرة فيكتوريا وغربها ، وعرضوا إخلاص ملكهم لخديو مصر ، فأكرم بيكر وفادتهم ، وبادل ملكهم الرسائل والهدايا . وبقي (امتيسى) موالياً لمصر ، ونقم على كابريره خيائته ، وهاجمه من الجنوب جزاء انتفاضه ، وبفضل ولاء امتيسى لمصر انفتحت الطريق بين أعالي النيل وزنجبار على شاطئ المحيط الهندي .

وعاد بيكر إلى الإسماعيلية (غندكرو) في أبريل سنة ١٨٧٣ إذ انتهت مدة خدمته ، فغادرها ، واستخلف في قيادة الجند وإدارة المديرية رهوف بك أحد ضباط الجيش المصري ، ورجع إلى الخرطوم ، ومنها إلى مصر عن طريق سواكن والبحر الأحمر ، وقابل الخديو بالقاهرة (أغسطس سنة ١٨٧٣) فأنعم عليه بالنيشان العثماني ، وأنعم على القائم مقام عبد القادر بك حلمي برتبة الميرلاى ، والملازم محمد أفندى برتبة الصاغ مكافأة لهم على خدماتهم في بسط سلطة مصر في منطقة خط الاستواء .

وقد بلغت نفقات هذه الحملة ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، تحملها خزانة مصر في وقت اشتد بها الضيق المالى . فكان هذا المبلغ من ترضيات مصر في سبيل نشر لواء الحضارة والتقدم في ربوع السودان .

والميرلاى عبد القادر بك هو من أركان حرب بيكر باشا ، وهو ضابط كفء شجاع ، كان له فضل كبير في نجاح الحملة ، وقد امتدحه بيكر في مواطن كثيرة . وأشاد بصفاته في كتابه

وحصوناً في عدة بلاد بأعلى النيل ، منها (الإبراهيمية) على بحر الجبل (بحر الرجاف) وقد سماها بهذا الاسم تذكراً لإبراهيم باشا أبى الخديو إسماعيل ، وأنشأ حصوناً أخرى في (فاتيكو) ثم في (فويرة) الواقعة على نيل فيكتوريا .

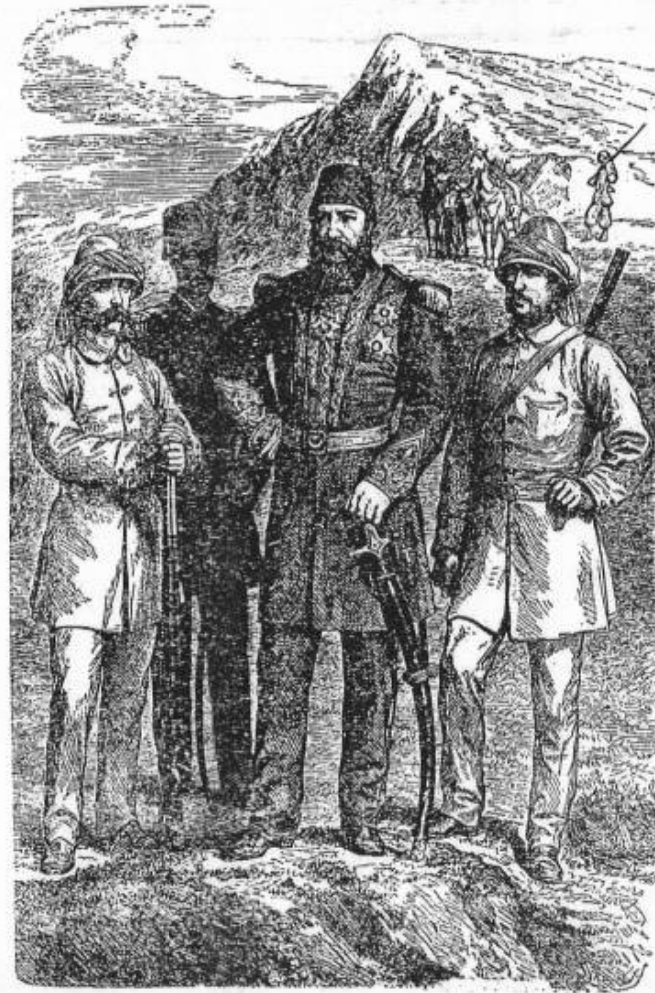
فتح مملكة أنيورو

(سنة ١٨٧٢ - ١٨٧٣)

وتقدمت الحملة في زحفها ، ففتحت مملكة « أنيورو » المتاخمة لبحيرة ألبرت شرقاً واحتلت عاصمتها « ماسندى » أبريل سنة ١٨٧٢ ، وكان بها ملك يدعى (كابريره) ، فأظهر خضوعه لسلطة الحكومة المصرية وأعلن بيكر باشا باسم الخديو دخول هذه المملكة في أملاك مصر (١٤ مايو سنة ١٨٧٢) ، وبقي في ماسندى داراً للحكومة المصرية بالقرب من دار كابريره ، وشيد حصناً لإقامة الحامية المصرية .
على أن كابريره ما لبث أن ظهرت خيائته ، فانتقض على الحامية المصرية ، وقامت



ريونجا ملك أنيورو يصافح بيكر باشا . والجند المصرية مصطفة لاستقباله بقيادة القائم مقام .
عبد القادر بك حلمي سنة ١٨٧٢ .



صمويل بيكر باشا مدير خط الاستواء في عهد إسماعيل وسوله أركان حرب وهم القائم مقام
عبد القادر حلمي بك فالهنتس هيجنبوتام Higgaboiham . ثم الملازم بيكر

(الإسماعيلية) ، وأثنى على شجاعته وإخلاصه^(٢١) ، وترى رسمه في العتوز التي نقلناها عن هذا الكتاب .

وعبد القادر بك هو الذي صار فيما بعد عبد القادر باشا حلمي حاكمدار السودان سنة ١٨٨٢^(٢٢) ، وله المواقف المحموده في المدافعة عن سلطنة مصر في السودان ، مما سيحيى بيانه في موضعه .

وكان يعاون السير بيكر في مهمته جعفر مظهر باشا حاكمدار السودان حينذاك ، (لغاية سنة ١٨٧١) ، على أن جعفر باشا رأى بشاقب نظره أن في إسناد هذه المهمة إلى أجنبي خطراً على مصالح مصر ، وكب بذلك تقريراً أرسله إلى الخديو إسماعيل ينبهه فيه إلى ذلك الخطر ، وأشار بإسناد هذه المهمة إلى ضباط أركان الحرب من الجيش المصري ، ولكن إسماعيل لم يلتفت إلى هذا الرأي الحكيم ، ولم يعمل به ، واستمر يحسن الظن برواد الاستعمار .

تعيين الكولونل غردون (باشا) مديراً لخط الاستواء

(١٨٧٤ - ١٨٧٦)

لم يكد يمضي قليل من الزمن على انتهاء خدمة السير صمويل بيكر ، واخلو منصب مدير خط الاستواء ، حتى خلفه إنجليزي آخر ، وهو الكولونل غردون الذي صار فيما بعد (غردون باشا) .

ومن الغرابة بمكان أن يتعاقب على هذا المنصب الخطير إنجليزيان لها مقام معلوم في نظر الجمهور البريطاني والحكومة الإنجليزية ، ولم يكن ذلك من قبيل المصادفات ، بل إن أصبح السياسة الإنجليزية كان لها دخل في هذا التعيين . فكما أن الحكومة الإنجليزية هي التي أوعزت إلى الخديو إسماعيل بوساطة ولي عهد إنجلترا أن بسند هذا المنصب إلى السير بيكر . فإنها هي أيضاً التي سعت لديه في إسناده إلى الكولونل غردون سنة ١٨٧٤ .

فالساسة الإنجليزية كانت تنفذ خططها من اتعهد للتدخل في شئون السودان . واختارت بداءة ذي بدء منطقة خط الاستواء . لأنها المنطقة التي جعلتها المرحلة الأولى لبرنامجها ، إذ فيها

(٢١) الإسماعيلية للسير صمويل بيكر ص ٦٨ و ٤١٢ .

(٢٢) كرشى . المركز الدول لمصر السودان ص ٢٦٦ .

مناخ النيل ، فهي مفتاح السودان من جهة الجنوب ، كما أنها مصدر الحياة لمصر .
وليس من المصادفات أن يقع اختيارها على الكولونيل غردون بالذات ، فإنه الرجل الذي
كان قلبه يفيض وطنية وإخلاصاً لبلاده ، فلا جرم أن يبذل كل ما لديه من تضحية في سبيل
التوسع البريطاني . وقد دلت خاتمته المحزنة على أنه كان أكبر ضحية قدمها إنجلترا لتضع يدها
على السودان بعد شيوب الثورة المهديّة .

وبذلك على تدخل السياسة الإنجليزية في تعيينه أنها أفتعت الخديوي بأن يجعل له من السلطة
أكثر مما كان للسير صمويل بيكر باشا ، فقد كان هذا خاضعاً لحكمदार عموم السودان ، لكن
غردون عين حاكماً لإقليم خط الاستواء ، على أن يكون مستقلاً في عمله ، وقصر الخديوي
سلطة حكمदार السودان على الجزء الشمالي لغاية فاشودة ، وجعل الأقاليم الاستوائية التي تمتد من
جنوبي فاشودة^(٢٢) إلى خط الاستواء تحت سلطة غردون ، وفي هذا من إطلاق يده في الجزء
الجنوبي من السودان وإضعاف سلطة الحاكم العام المصري ما لا ينبغي عن البال ، كل هذا
بسعى السياسة الإنجليزية وتدبيرها .

جاء الكولونيل غردون إلى مصر سنة ١٨٧٤ ، وقابل الخديوي وكلفه الرحلة إلى السودان
لتولى منصبه فيها ، وكان حكمदार السودان وقتئذ (إسماعيل باشا أيوب) ، فأرسل له الخديوي
أوامره في هذا الصدد ، وأمره بتفويضها والخفاوة بغردون عند قدومه ، وإيجابته إلى كل
ما يطلبه ، فأضطر للعمل بهذه الأوامر على ما فيها من غضاضة .

وأنعم الخديوي على الكولونيل غردون سنة ١٨٧٥ برتبة الفريق ، فصار يعرف بغردون باشا ،
وصارت رتبته العسكرية مساوية لرتبة حكمदार السودان ، مع أن منصبه الرسمي لم يزد عن كونه
(مدير خط الاستواء) .

توسيع نطاق الحكم المصري في مديريةية خط الاستواء

مضى الكولونيل غردون إلى السودان عن طريق البحر الأحمر وسواكن ، ولما بلغ الخرطوم
أعد حملة من الجيش المصري صحبته إلى مقر سلطته ، فتحرّكت الحملة جنوباً على ظهر
(٢٣) لم توضع حدود دقيقة بين مديريتي فاشودة وخط الاستواء ، ويقول فوزي باشا إن جهات خط الاستواء تبدأ من
ملتقى نهر سوبايط بالنيل . ويرى آخرون أنها تبدأ من (شامبه) على بحر الجبل (انظر الخريطة ص ١٢٥) .

البواخر المصرية . وصحبه من الخرطوم إبراهيم أفندي فوزي ، أحد ضباط الجيش المصري
الذي صار فيما بعد اللواء إبراهيم باشا فوزي ، وشهد وقائع السودان من سنة ١٨٧٤ إلى شيوب
الثورة المهديّة . وشهد معظم وقائع الثورة إلى سقوط الخرطوم ومقتل غردون سنة ١٨٨٥ ،
وحضر استرجاع السودان سنة ١٨٩٨ ، وله في ذلك كله كتابه المشهور (السودان بين يدي
غردون وكنتشر).

وصلت الحملة إلى فاشودة . بعد مسير سبعة أيام في النيل ، فاستقبلها مديرها بالخفاوة
اللائقة ، وشهد غردون وإبراهيم أفندي فوزي « ما وصلت إليه البلاد وقتئذ من العمران
والتقدم والحضارة بعناية الحكومة »^(٢٤) .

وتابعت الحملة سيرها حتى وصلت إلى محطة سوبايط ، وهي الكائنة على ملتقى نهر سوبايط
بالنيل ، ثم سارت جنوباً حتى بلغت الإسماعيلية (غندكرو) حيث يقم رءوف بك ، الذي
استخلفه السير صمويل بيكر في الحكم وقيادة الجند بمديرية خط الاستواء ، فقابل غردون
بالخفاوة والتكريم ، وأطلعته على أحوال البلاد وشؤونها ، وقد أبقاه غردون قليلاً ، ثم ما لبث
أن أقاله من عمله وأمره بالعودة إلى مصر .

وقد رأى غردون أن مناخ الإسماعيلية ليس صحياً ، فنقل مركز الحكومة إلى (اللاذو) ،
فصارت من ذلك العهد عاصمة مديريةية خط الاستواء .

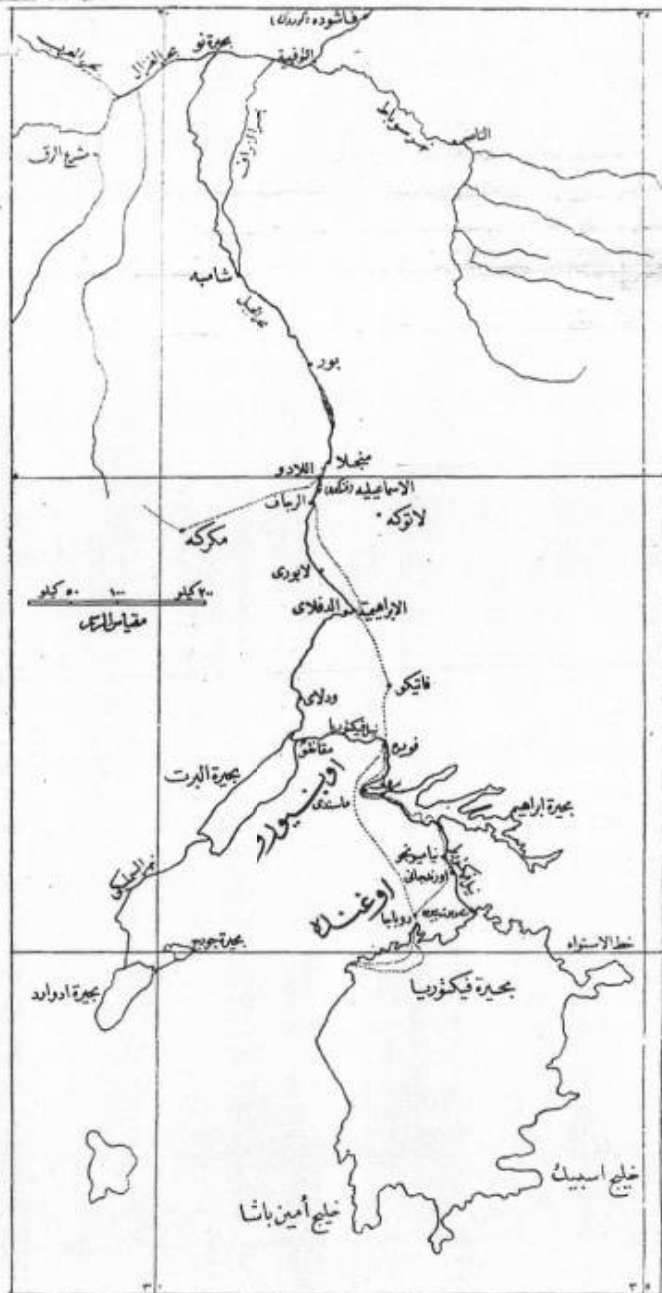
وبعد أن تولى شؤون الحكومة في تلك الجهات تابع السير جنوباً حتى بلغ بحيرة (ألبرت) ،
واستولى على عشرة مراكب من سفن الاهلين ، استخدمها لاكتشاف شواطئ البحيرة ،
واستقدم من الخرطوم العدد الكافي من البواخر النيلية ومن آلات الترسانة المصرية بالخرطوم
وعمالها ، وأنشأ بالدغلاي شمالي بحيرة ألبرت (ترسانة) لتنظيم الملاحة في أعالي النيل وفي
البحيرة ، واستطاع عمال الترسانة أن يفكوا أجزاء بعض البواخر ، ويركبوها ثانية في البحيرة ،
ولما تم تركيب أول باخرة ، استقلها الكولونيل غردون باشا وحاشيته وإبراهيم فوزي (باشا) ،
فساروا بها في لحج البحيرة ، فكانت هذه أول مرة رأت فيها بحيرة ألبرت السفن البخارية ،
وقد كان منظر الباخرة موضع دهشة الأهلين ، قال إبراهيم فوزي (باشا) في هذا الصدد :
« كان الأهالي يقفون على شواطئ البحيرة كلما اقتربنا منها صفوفاً معجبين مندهشين من رؤية
الوايوور . إذ لم يكونوا قد رأوا السفن البخارية من قبل ، وكان يزيد عجبهم كلما شاهدوا
(٢٤) السودان بين يدي غردون وكنتشر ج ١ ص ٥ .

فخامته وبحارون في كيفية نقله مع جسامته إلى البحيرة .
وهكذا كان الفتح المصري يحمل معه أيها سار أسباب الحضارة وال عمران .
وقد أنشأ الكولونل غردون باشا عدة نقاط عسكرية حصينة على شاطئ النيل ، وحصن النقطة
التي أنشأها بيكر باشا من قبل ، فلما أنشأه : نقطة (سوبات) على ملتقى نهر سوبات بالنيل ،
و (الناصر) على نهر سوبات ، و (شامبه) و (بور) و (اللاذو) و (لابوري) و (الرجاف)
و (الدفلاي) على النيل الأبيض (بحر الجبل) . و (مكركة) جنوبي بحر الغزال ،
و (مروى) على نيل فيكتوريا ، و (مقائفو) الواقعة على مصب نيل فيكتوريا في بحيرة ألبرت
(انظر مواقع هذه البلاد على الخريطة الملحقه بهذا الفصل ص ١٢٥)
وقد لقي الجنود المصريون في هذه الحملات البعيدة المتاعب المضنية لبعده المسافات وصعوبة
المواصلات ورداءة الطقس ، وكانت الأمطار تهطل عليهم ليل نهار كأفواة القرب ، واستهدفوا
للمخاطرات والمفاجآت الجممة ، واحتملوا كل هذا العناء بصبر وثبات وشجاعة تسجل لهم في
أنصع صفحات تاريخنا القومي .

بسط حماية مصر على مملكة أوغنده (سنة ١٨٧٤)

بسطت مصر حمايتها على مملكة أوغنده سنة ١٨٧٤ ، على يد الكولونل شابي لونج بك
Chaille Long bey ، وهو ضابط أمريكي ، دخل في خدمة الجيش المصري سنة
١٨٧٠ ، وعين سنة ١٨٧٤ رئيساً لأركان حرب غردون باشا حين ولايته على مديريةية خط
الاستواء ، وأخلص النية لمصر ، وخدمها بتزاهة وأمانة أثناء مقامه في السودان ، ودافع بعد
ذلك بقلمه ولسانه عن حقوق مصر الخالدة في كتب قيمة ، تعد من أهم المراجع في تاريخ
السودان الحديث ، منها : كتاب (مصر ومديرياتها المفقودة) ، و (الأنبياء الثلاثة غردون
والمهدى وعراي) ، و (أفريقيه الوسطى) ، عدا ما نشره في المجلات الكبرى دفاعاً عن مصر
واستنكاراً لمطامع الأنجليز في وادي النيل .

ذكر شابي لونج بك في كتابه (مصر ومديرياتها المفقودة) أنه هو الذي انفضه غردون إلى
عاصمة الملك (امتيسي) ملك أوغنده ، وأنه أدى مهمته ، ووصل إلى عاصمة أوغنده .



خريطة مطبوعة على الأشرطة وأصلها المطبوع على الورق الذي سلك الكولونل شابي لونج بك في سنة ١٨٧٤
أرضه حيث عقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ المعاهدة التي قبل بمقتضاها حماية مصر على ملكها .

و عقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ ، معاهدة بمقتضاها قبل وضع مملكتها تحت حيازة مصر ، وقد أرسل المعاهدة إلى الخديو إسماعيل ، وهذا أبلغ الدول أن مصر ضمت إليها جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت (٢٥) ، وقال (ص ٢٥) إن هذه المعاهدة أودعت محفوظات وزارة الخارجية ، ولكنها فقدت بعد ذلك ، وذكر أن أحد ضباط الجيش البريطاني أحرقها (بعد الاحتلال) ضمن وثائق أخرى نفيسة .

وقال في موضع (آخر ص ٢٦) إنه لما وصلت البعثة الإنجليزية إلى أوغنده في ابريل سنة ١٨٧٥ وجدت بمحاوية الملك اميتسي ، ارست ليناى دى بلقون (ابن ليناى باشا) الذى أرسله غردون بعد معاهدة الحماية مندوبا عن الحكومة المصرية فى بلاط الملك (٢٦) وذكر أن نفوذ مصر قد امتد إلى كل الأصقاع التى تحيط ببحيرة فيكتوريا ، وخاصة مملكة أوغنده ، وإن الملك اميتسي كان يفتخر بتبعيته لسلطان مصر (٢٧) .

مذكرة شريف باشا إلى الدول عن امتلاك مصر منطقة البحيرات

وأورد فى كتابه (ص ٢٦) المذكرة التى أرسلها شريف باشا (الوزير المشهور) وزير خارجية مصر فى ذلك الحين إلى الدول خاصة بضم منطقة البحيرات إلى مصر ، وخلاصتها أن غردون استولى على منطقة (مرولى) الواقعة على نهر سومست (٢٨) ، وأن الجنود المصرية أسسوا محطة فى (ماسندى) عاصمة مملكة (أونيورو) ومحطة أخرى فى (أورندجانى) على نهر السومست ، بالقرب من بحيرة فيكتوريا ، وأخرى على بحيرة فيكتوريا ذاتها بالقرب من شلالات (رييون (٢٩) ، وأخرى فى كل من (ماقتفو) و(الدفلاى) ، وعلى ذلك بسطت

(٢٥) مصر ومدبرياتها المفقودة ص ١٢ للكولونيل شامى لونج بك

L'Egypte et ses Provinces Perdues par Chaille Long bey

(٢٦) وقد قتل فى عودته من أوغنده إلى الرجاف فى أغسطس سنة ١٨٧٥ .

خريطة مديرية خط الاستواء والخط المنقوط يمثل الطريق الذى سلكه الكولونيل شامى لونج بك فى سيره إلى أوغنده حيث عقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ المعاهدة التى قبل بمقتضاها حيازة مصر مملكتها

(٢٧) مصر ومدبرياتها المفقودة للكولونيل شامى لونج بك ص ٢٠٤ .

(٢٨) هو الاسم الذى أطلقه الرحالة اسبيك على النيل بين منبعه من بحيرة فيكتوريا إلى مصبه فى بحيرة ألبرت ، ويسمى أيضاً نيل فيكتوريا .

(٢٩) حيث يخرج النيل من بحيرة فيكتوريا .

مصر سلطتها على جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا ، وبحيرة ألبرت . وسنشر نص هذه المذكرة فى قسم الوثائق التاريخية .

ونشرت (الوقائع المصرية) البيان الآتى عن أوغنده : «ورد تلغراف من المعية أنسية من سعادة غردون باشا فى ٢ أغسطس سنة ١٨٧٦ يتضمن أن الملك اميتسي طلب منى عساكر لأجل إقامتها فى بندر حكومته ، فأرسلت إليه مائة وخمسين عسكرياً ، ورتبت ثلاثين عسكرياً فى بلدة (أورندجانى) ، ومثلها فى بلدة (بكتيشة) . فكانت تلك الجهات والحالة هذه فى حوزة الحكومة المصرية ، وقد وصلنا إلى (ماقتفو) فى ٢٧ جادى الثانية (سنة ١٢٩٢) بعد سفر سبعة أيام من (روفلى) ، والبحر هناك (٣٠) جيد صالح لسير السفن فيه بسهولة ، وشطوطه معمورة بكثرة الناس فيه ، وأراضيه صالحة للزراعة .»

«وبعد ثلاثة أيام نتوجه إلى (مرولى) و(أورندجانى) و(اميتسي) عاصمة أوغنده ، ويمكننا الوصول إلى سائر تلك الجهات بغاية الراحة التامة والسهولة» (٣١) .

هذا ما ذكرته «الوقائع المصرية» ، وهى الجريدة الرسمية للحكومة ، وفيها تأييد للحقائق التى أوردها شامى لونج بك ، ومن كل ذلك يتبين انضمام أوغنده ومنطقة البحيرات إلى مصر فى عهد الخديو إسماعيل .

موقف غردون

ذكر غردون فى رسائله إلى أخته : أن شامى لونج بك ، أرسل إلى الخديو إسماعيل تقريراً امتدح فيه ولاء اميتسي ، فقال رضاه الخديوى وأرسل إلى لونج بك عربة جميلة هدية للملك (٣٢) .

وظاهر من شجة غردون فى رسائله إلى أخته أنه لم يكن مرتاحاً إلى إحكام مصر روابطها بأوغنده ، ومذمها . فقد ذكر (٣٣) أن الملك اميتسي أقسم بيمين الولاء لمصر فى مارس سنة ١٨٧٦ ،

(٣٠) بريد النيل .

(٣١) الوقائع المصرية عدد ٦٧٤ الصادر فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٢ . (سبتمبر سنة ١٨٧٦م) .

(٣٢) رسائل الكولونيل غردون إلى أخته ص ١٤٢ .

(٣٣) رسائل الكولونيل غردون إلى أخته ص ١٦٨ .

وأنه (أى غردون) كان يبغى بقاء ملك أوغنده مستقلاً، ولكنه هو الذى دعا الحامية المصرية التى كان غردون معتزماً جعلها فى (أورندجانى) إلى الاستقرار فى عاصمة أوغنده (دوباجا) (٣٤)، وقد استقرت بها فعلاً فى أغسطس سنة ١٨٧٦ (٣٥).

وغنى عن البيان أن غردون لم يكن يبغى من استقلال أوغنده دفاعاً عن مصلحتها . بل كان ما يبغيه أن تكون بعيدة عن التبعية المصرية ، حتى تصير فيما بعد لقمة سائغة لإنجلترا . وقد بسطت فعلاً حمايتها عليها بعد فصل السودان ، وهكذا يتبين لك أن غردون لم يكن خالص النية لمصر مثل شايى لونج بك ، بل كان يخدم النياحة الإنجليزية أثناء تقلده منصب الحكم فى مديرية خط الاستواء ، وكذلك عند ولايته حاكماً عاماً للسودان سنة ١٨٧٧ كما سيجىء بيانه .

اكتشاف بحيرة (إبراهيم)

(سنة ١٨٧٤)

اكتشف الكولونيل شايى لونج ، سنة ١٨٧٤ ، بحيرة (إبراهيم) إحدى البحيرات التى ينبع منها النيل ، وهى الواقعة شمال بحيرة فيكتوريا ، وقد سماها بحيرة (إبراهيم) باسم إبراهيم باشا أبى الخديو إسماعيل ، وكانت تسمى من قبل بحيرة (كيوجا) ، وقد غلب عليهم الاسم الأصيل فى مصورات الجغرافية (الأطالس) الحديثة وكتبتها ، لأن معظم الجغرافيين من الإفرنج يابون أن يطلقوا اسماً عربياً مصرياً على منابع النيل ، أما البحيرات الأخرى فيسبغون عليها أسماء أوروبية ويسمونها بحيرة (فيكتوريا) وبحيرة (ألبرت) ، وبحيرة (جورج) وبحيرة (إدوارد) ، أما بحيرة (إبراهيم) فلهذا يروق لهم تسميتها بمثل هذا الاسم المصرى فيبقون اسمها القديم (كيوجا) ، وهذا لعمرى ليس من الحق ولا من الإنصاف فى شيء .

ومن واجب مهندسى مصر وأسائذة الجغرافيا والتاريخ أن يعيروا عن هذه البحيرة باسم (بحيرة إبراهيم) ، ويتخذوه علماء لها فى مباحثهم ودروسهم ومؤلفاتهم وأطالسهم حتى يرسخ هذا الاسم فى أذهان النشء والجمهور ، وفى وثائق الحكومة وخرائطها ، ويذيع بين الناس فى

(٣٤) وتسمى أيضاً انبسى على اسم الملك .

(٣٥) رسائل غردون إلى أخيه ص ١٧٦ .

مصر والشرق . ثم فى أوروبا ، كما ذاعت أسماء بحيرة (نيكتوريا) وما إليها . وإن سم بحيرة (إبراهيم) أحتق بالإذاعة من الأعلام الإنجليزية التى أطلقت على البحيرات لاستوائية الأخرى ، فإن اكتشاف هذه البحيرة تم على يد ضابط من ضباط الجيش المصرى . باسم مصر ولحساب مصر ، فى عهد إسماعيل بن إبراهيم ، وبجهوده ورعايته ، ومكتشفها قد اختار لها هذا الاسم تحقيقاً لرغبة الخديو إسماعيل ذاته ، فواجب الوفاء والمنطق يقضى باحترام هذه التسمية واتباعها (انظر الخريطة ص ١٢٥) .

وقد ذكرها العلامة جورج شونفرت Schweinfurth فى خريطته التى وضعها لبيان خط سير أرنتس لينان دى بلفون من الرجاف إلى بحيرة فيكتوريا سنة ١٨٧٥ ، وسماها باسمها الصحيح (بحيرة إبراهيم) ، وكتب بجانبها العبارة الآتية (اكتشفها لونج بك فى أغسطس سنة ١٨٧٤) ، وتجد هذه الخريطة ملحقة بالعدد الأول من السنة الأولى لمجلة الجمعية الجغرافية الخديوية (نوفمبر سنة ١٨٧٥ - فبراير سنة ١٨٧٦) ، وسماها غردون فى خريطته (بحيرة كيوجا أو بحيرة إبراهيم) ، وهى تشمل كيوجا وبحيرة كوانيا المتصلة بها .

وللكولونيل شايى لونج بك رسالة مسهبة فى مجلة الجمعية الجغرافية (مجموعة ٣ عدد ٧ سبتمبر سنة ١٨٩١ ص ٥٤٠) اعترض فيها على إغفال اسم بحيرة إبراهيم ، وذكر وثائق هامة عن اكتشافه وخدماته لمصر فى مديرية خط الاستواء .

وفى الحق أن الكولونيل شايى لونج بك يجب أن يقترن اسمه بأسماء مكتشفى منابع النيل ، فالرحالتان (اسبيك) و(جرانت) اكتشفا بحيرة فيكتوريا ومنبع النيل منها ، والسير (صمويل بيكر) اكتشف بحيرة ألبرت ، و(شايى لونج بك) اكتشف بحيرة إبراهيم ، وبحرى النيل من أورندجانى إلى مرولى ثم إلى فويره .

وقد ذكر فى كتابه «مصر ومديرياتها المفقودة» ص ١٤٨ أنه بعد أن اكتشف بحيرة (إبراهيم) قصد إلى (ماسندى) عاصمة (أونيوروى) ، فألقى ملكها القديم (كابريقه) بناصب الحكومة العداة . وأن كابريقه هذا هاجمه فى قرة من ٦٠٠ مقاتل . فانسحب لونج بك إلى (فويره) الواقعة على نيل فيكتوريا .

وذكر غردون باشا (٣٦) أن كابريقه أخلى (ماسندى) فى يناير سنة ١٨٧٦ وأن المواصلات أعيدت إلى هذه العاصمة .

(٣٦) فى رسالته إلى أخيه ص ١٦٥ - ١٧٦ .

استعفاء غردون من منصبه

(سنة ١٨٧٦)

بقى الكولونيل غردون مديراً لعموم خط الاستواء إلى أن استعفى من منصبه سنة ١٨٧٦ ، وعاد إلى القاهرة ، ومنها إلى إنجلترا ، ولعله رحل إليها ليطلع حكومته على أحوال المنطقة التي تولى حكمها ، وليتلقى تعليماتها الجديدة فيما تأمره به ، لأنه لم يلبث في إنجلترا ثلاث سنوات إلا قليلاً ، حتى تدخلت الحكومة الإنجليزية لدى الخديو لتعيينه في منصب أكبر من منصبه القديم ، إذ جعله حاكمًا عموم السودان . فصارت أقاليم السودان تحت مطلق سلطته كما سيجيء بيانه .

مصر مديرية خط الاستواء

عندما غادر غردون باشا منصبه الأول سنة ١٨٧٦ استخلف في خط الاستواء وكيله الكولونيل « بروت » Prout ، وهو ضابط أمريكي التحق بخدمة الجيش المصري وخدم تحت لواء غردون ، وفي عهد حاكمية غردون باشا للسودان جعل إبراهيم بك فوزي مديراً لخط الاستواء ، ثم فصله وعين مكانه الدكتور إدوار اشتزر Eduard Schnitzer وهو طبيب ألماني صحب غردون في السودان واعتنق الإسلام ، وعرف بأمين بك ، وأخلص لمصر ، فبقى يتولى الحكم في خط الاستواء إلى شوب الثورة المهدية ، ولم تستطع نوات المهدي أن تستولى على هذه المديرية وظل أمين بك يحكمها باسم الحكومة الخديوية ، ونقل عاصمتها من اللاذو إلى ودلاي جنوباً ليكون بعيداً عن غزوات المهديين ، وبقى في مركزه حتى اضطرت الحكومة المصرية بضغط الإنجليز إلى إخلاء السودان ، وأنعم عليه الخديو توفيق برتبة الباشوية جزاء إخلاصه لمصر ، فصار يعرف بأمين باشا ، وأرسل إليه نوبار باشا رئيس مجلس الوزراء وقتئذ يبلغه قرار الجلاء عن السودان وتركه وشأنه ، فأثر البقاء في منصبه ، مخلصاً لمصر وحكومتها ، معتمداً على ولاء الضباط والجنود المصريين والسودانيين الذين تحت إمرته ، ولكن الإنجليز أبوا عليهم البقاء ، فأرسلوا الرحالة استانلي بحجة « إنقاذ أمين باشا » . والواقع لإجلاله عن مديرية

خط الاستواء والنقصاء على سلطة مصر فيها ، فاضطره استانلي سنة ١٨٨٩ إلى الجلاء عنها ، وبانسحاب أمين باشا من مديرية خط الاستواء تقلص ظل السلطة المصرية عن هذا الإقليم ، وانتهزها إنجلترا فرصة فاحتلت أوغندا وجعلتها تحت حمايتها (سنة ١٨٩٣) وألحقت بها الجزء الجنوبي من مديرية خط الاستواء .

ولما تم استرجاع السودان ١٨٩٨ أكرهت مصر على توقيع اتفاقية سنة ١٨٩٩ الباطلة التي جعلت إدارة السودان مشتركة بين مصر وإنجلترا ، وعدلت حدوده طبقاً لأهواء الإنجليز . فبعد أن كانت حدود السودان المصري تنهى عند بحيرة نيكتوريا صارت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ تنتهى عند (منجلا) شمالي غندكرو ، والآن تنتهى عند (نيمولي) - الأبراهيمية - وبذلك اغتصبت إنجلترا معظم مديرية خط الاستواء القديم ، وخسرت مصر تلك المديرية الشاسعة بعد أن بذلت في سبيل فتحها وتعميرها ما بذلت من الجهود والأموال ، والضحايا والرجال .

منع الاتجار بالرقيق

كان الاتجار بالرقيق ممنوعاً من عهد محمد علي ، ولكن هذا المنع لم يكن إلا اسمياً ، وبقيت تجارة الرقيق في السودان قائمة إلى عهد سعيد باشا ، بعين الحكومة وبصرها ، وتأييد موظفيها ، وكان يتولاه تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجر في حاصلات السودان وفي الرقيق ، وتربح من كل ذلك الأرباح الطائلة ، وكان تجار الرقيق لما لهم من النفوذ والسطوة والمال يقيمون في مختلف الجهات معازل حصينة اتخذوها مراكز للتجارة واصطياد الرقيق . فلما تبوأ إسماعيل عرش مصر اعتزم أن ينضم إلى حركة العاملين على تحرير الأرقاء في أنحاء العالم ، وأن يكتسب ثناء الإنسانية في مقاومة تجارة الرقيق ، وبذل جهوداً كبيرة في هذا السبيل .

ففي سنة ١٨٦٣ أرسل إلى موسى باشا حمدي حاكم السودان وقتئذ يأمره بتعقب تجار الرقيق وحرهم ، فصدع الحاكم بالأمر . وضبط سبعين سفينة مشحونة بالأرقاء بين « كاكابا » و « فاشوده » وأطلق سراحهم ، وأعادهم إلى بلادهم ، واعتقل التجار الذين جلبوهم ، ولم يفرج عنهم إلا بعد أن أعطوه العهود والمواثيق ألا يعودوا إلى النخاسة . وكان لاحتلال فاشوده سنة ١٨٦٥ أثر كبير في سد طريق النيل في وجه تجار الرقيق الذين

كانوا يقتنصون الأرقاء في جهات بحر الغزال وخط الاستواء ويشحنوهم في السفن وأصدر إسماعيل أمره بتحرير كل عبد أو جارية يشت على سيدهما أنه أساء معاملتها .
وفي عهد حكمدارية جعفر مظفر باشا وإسماعيل أيوب باشا بذلت الحكومة جهوداً موفقة في محاربة تجارة الرقيق ، وقد عهد الخديو أيضاً إلى السير صمويل بيكر ثم إلى غردون باشا من بعده العمل على تحقيق هذه الغاية كما تقدم بيان ذلك تفصيلاً .

ففي الحق أن الخديو إسماعيل قام بعمل مجيد ، وأسدى إلى الإنسانية خدمة جليلة في منع هذه التجارة المقنونة .

لكن من الحق أن نقول أيضاً أن عمله كان في حاجة إلى شيء من الحكمة والروية فإن تجارة الرقيق كان يقوم بها أناس أقوياء في السودان ، لهم من أعيان البلاد أنصار وتتألف منهم طبقة كبيرة من الأهلين .

كانت هذه التجارة مصدر ثروتهم ، فضلاً عن أن الأيدي العاملة في الزراعة ورعى الماشية وغير ذلك كان معظمها من الرقيق ، وقد ألفت أعيان السودان والطبقة المتوسطة من أهله استخدام الأرقاء كأتباع لهم وموال ، ونظموا حياتهم على هذا الأساس ، ففاجأة السودان بتحرير الأرقاء دفعة واحدة كانت مجازفة لا تحمد عواقبها ، هذا إلى أن الخديو قد جعل على رئاسة مقاومة الاتجار بالرقيق جماعة من الأجانب ، فاستثار وجودهم عواطف الأهلين الدينية . وكرهيتهم للحكومة ، فاجتمعت هذه العوامل وكانت من أسباب قيام الثورة المهدية . فالأمر إذن كان في حاجة إلى التأني والحكمة ، اعتبر ذلك في أن الحكومة الإنجليزية حينما قررت إبطال الرقيق في أملاكها خصصت عدة ملايين من الجنيهات لتعويض موال الأرقاء المحررين .

فكان من الواجب على إسماعيل باشا أن يأخذ في مشروعه بالهوادة وبعد النظر ، وحسن السياسة ، لكنه لم يفعل ، واعتزم مقاومة تجارة الرقيق ومنع الاسترقاق فحسب فاستهدفت الحكومة لعداء طبقة كبيرة من أعيان السودان وتجاره ، مما ظهر أثره في نجاح دعوة المهدي أوائل عهد توفيق باشا إذ انضم إلى الثورة تجار الرقيق في السودان .

وفي هذا الصدد يقول المسيو « داريل » Daryl في مقدمة « رسائل غردون إلى أخته » ما يأتي : « عهد الخديو إسماعيل إلى الكولونل غردون مطاردة تجار الرقيق في السودان ، ولكن الجهود العنيفة التي بذلها ذلك الضابط الإنجليزي لم يكن لها من نتيجة عملية سوى إثارة

الطبقة التي كانت مصر تعتمد عليها في السودان » .
وقد أبرم إسماعيل في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة مع الحكومة الإنجليزية^(٣٧) للتعاون على منع الاتجار بالرقيق . احتوت نصوصاً تمكن الإنجليز من الاتفاقيات عن سيادة مصر ومصالحها . إذ أباح لهم الرقابة على السفن الحاملة للراية المصرية وتفتيشها وضبطها بحجة تغاطبها بتجارة الرقيق ، فكانت معاهدة لا خير فيها ، ولا فائدة منها لمصر .

ظهور الزبير باشا رحمت (٣٨)

كان الزبير أكبر تجار السودان ، وخاصة في تجارة الرقيق ، وله نفوذ واسع وسلطان كبير في إقليم بحر الغزال .

وقد شبت حرب بينه وبين أحد ملوك بحر الغزال انتهت بهزيمة هذا الملك . فامتلك الزبير بلاده ، واتخذ عاصمته مقراً له ، وسماها (ديم الزبير) ، فصار فيها ملكاً ، ودانت له جهات بحر الغزال ، وتقاطر الناس إليه للانتظام في خدمته ، فجمع لنفسه جيشاً قوياً لتأييد سلطته ، واقتنص الرقيق ، وفتح طريق التجارة من بحر الغزال إلى كردفان .

وفي سنة ١٨٦٩ جاء بحر الغزال رجل يدعى (اللبالي) قادماً من الخرطوم ومعه نفر من الجند لاحتلال هذا الإقليم باسم الحكومة الخديوية ، معه فرمان بتسميته مديراً لبحر الغزال ، ولكن الزبير جمع جيشه ، وكمن أتباعه لللبالي فقتلوه ، ثم خشي الزبير عاقبة عدائه الحكومة المصرية ، فجنح إلى مسلمتها ، وأظهر ولاءه لها واعترف بسلطة الخديو .

واتسع سلطانه ، ففتح بلاد (شكا) الواقعة بين بحر الغزال ودارفور . ووضع بين يدي الحكومة الخديوية الأقاليم التي دانت له لتنصب لها الحكام ، وجعل تقدمته لها دليلاً على ولاءه ، وقد أخلص فعلاً لمصر وبقي على ولاءه طول حياته .

(٣٧) مجموعة المعاهدات لدى مارتانس . سلطة جديدة ج ٢ ص ٤٩٣

De Martens. Nouv. Recueil gen. des Traites 11 p. 493

ومجد نصها العربي في قاموس جلال ج ٢ ص ٢٣٨ طبعه سنة ١٩٠٠ .

(٣٨) استخلصنا ما ذكرناه عن الزبير من ترجمة حياته بقلمه المنشور في كتاب السودان لنعمو بك شفر ج ٢ ص ٦٧ .

وما ذكره إبراهيم باشا فوزي في كتابه ج ١ ص ١٣٦ .

فشكره الخديو على إخلاصه ، وأنعم عليه برتبة بك ، وعهد إليه حكم البلاد التي فتحها باسم الحكومة الخديوية ، وهي بحر الغزال وشكا فصار مديراً لبحر الغزال ، وجعلت مدينة شكا عاصمة للمديرية .

فتح سلطنة دارفور

(سنة ١٨٧٤)

رغب الزبير باشا إلى حاكم دار السودان « إسماعيل باشا أيوب » فتح دارفور ، وكانت إلى ذلك العصر مملكة مستقلة ، ولئن أدخلتها فرمانات الصادرة لمحمد علي ضمن أملاك مصر (انظر عصر محمد علي ص ٣٤٧) إلا أنها بقيت مستقلة فعلا عن الدولة المصرية إلى ذلك الحين ، وكان عليها ملك يسمى السلطان إبراهيم بناوي الزبير ويعمل على إجلائه عن « شكا » فأيدت الحكومة مشروع الزبير ، وعهد الخديو إلى إسماعيل باشا أيوب فتح دارفور باشتراكه مع الزبير بك .

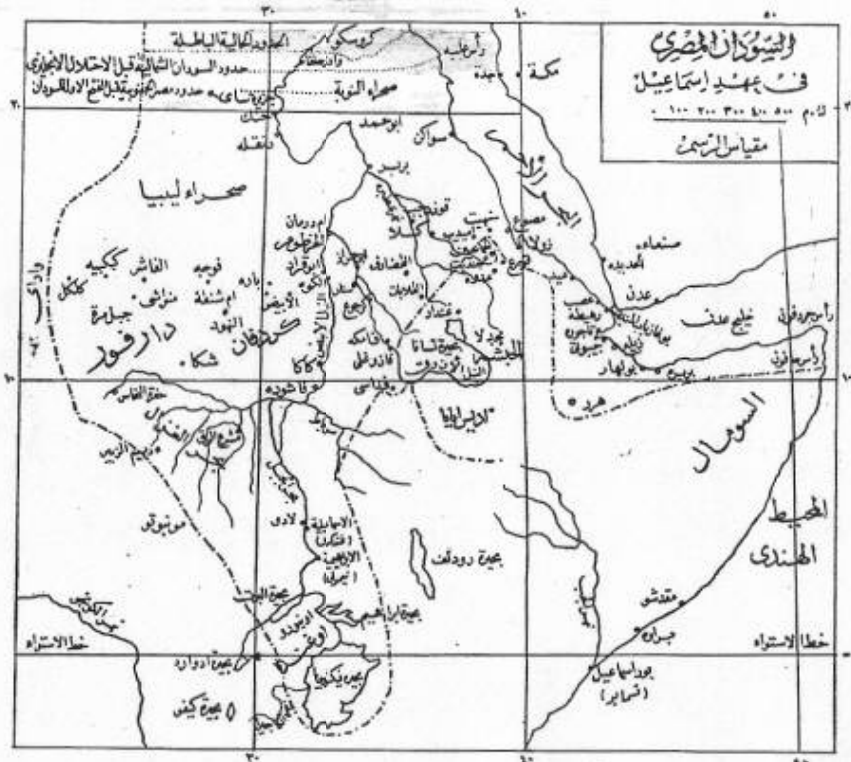
معركة منواشي

(٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٤)

فجهز جيشاً في كرفان ، وعهد إلى الزبير بك حشد جيشه في بحر الغزال كي يحاط بدارفور من الشرق ومن الجنوب ،

فسار الزبير من الجنوب . وتلاقى مع قوات سلطان دارفور ، وكانت تتألف من نحو عشرين ألف مقاتل . فهزمها الزبير غير مرة ، واشتبك الجمعان في « منواشي » حيث نشبت بينها في ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٤ معركة فاصلة ، انتهت بانتصار الزبير انتصاراً ميبئاً ، وقتل السلطان إبراهيم ونشنت جيشه . فدانت البلاد للحكم المصري ، ودخل الزبير مدينة الفاشر عاصمة دارفور .

ثم جاء إسماعيل باشا أيوب على رأس الفرقة الراحقة من الشرق ، فدخل المدينة في ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤ (٢٧ رمضان سنة ١٢٩١) . وانتهت الحرب بضم سلطنة دارفور إلى أملاك مصر .



السودان المصري وحدوده

في عهد إسماعيل

وأرسل الحكمدار يبشر الخديو بأخبار الفتح . فأنهج بهذا النصر المبين ، وأنعم على إسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان برتبة الفريق ، وعلى الزبير برتبة اللواء فصار يعرف بالزبير باشا . وعهد إلى الحكمدار بتبليغ أفراد الجيش الذي تولى هذا الفتح ثناءً وتغنياته ، لما أبلوه في فتح دارفور . فلما تلقى الحكمدار هذه الرسالة جمع الجيش في الفاشر ، وتلا عليهم تبليغ الخديو في احتفال عسكري مهيب ، وأطلقت المدافع ابتهاجاً وإجلالاً^(٣٩) .

ويفتح دارفور زاد عدد سكان الدولة المصرية نحو ثلاثة ملايين نسمة .

وأقام إسماعيل باشا أيوب حصناً متيناً في الفاشر ، وبني داراً للحكومة ، ومنزلاً للحاكم ، وثكنة للجند ، ووطد دعائم الأمن والطمأنينة ، وأقام في المدينة سوقاً عامرة للتجارة . على أن الزبير باشا شكى من فداحة الضرائب التي فرضها إسماعيل باشا أيوب على الأهليين ، فاستاء الحكمدار من هذه الشكوى ، ورفع الأمر إلى الخديو ، فأرسل يأمر الزبير باشا بعدم التعرض للحكمدار في إدارة البلاد ، فطلب الزبير من الخديو أن يجيء إلى مصر ليعرض عليه حقيقة الحال ، ويفضى إليه بأرائه في تنظيم الإقليم ، فأجابه الخديو إلى طلبه وأذن له بالحضور ، فسار إلى مصر ، واستخلف ابنه سليمان في قيادة جنده .

ولما جاء مصر أكرم الخديو وقادته ، ولكنه لم يأذن له بالعودة إلى السودان ، فأدرك أن المراد من إبقائه أن يكون رهينة لولائه للحكومة ، فأذعن للبقاء والإقامة في مصر مشمولاً بعطف الحكومة وإكرامها .

ضم زيلع وبربرة

(سنة ١٨٧٥)

« زيلع » و « بربرة » من بلاد الصومال الشمالية الواقعة على خليج عدن ، ذكرهما باقوت في معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٦ وج ٤ ص ٤٢٥ .

وأهم مدنها ثغور « زيلع » و « بربرة » و « بوهار » . وتعد الأولى ميناء سلطنة هرر على خليج عدن ، وملتقى متاجر هذه البلاد من البن وسن القليل والجلود وريش النعام والصبغ العربي والمر وغير ذلك . ولهذا الثغور عامة أهمية بحرية ، لأن من يملكها يتسلط على الملاحة في

(٣٩) عن الوقائع المصرية - العدد ٥٨٥ الصادر في ٣ ديسمبر سنة ١٨٧٤ .

خليج عدن إلى مدخل البحر الأحمر .

ومن بلاد زيلع بلدة (جريت) التي نشأ منها أجداد (الجبرتي) المؤرخ المصري المشهور . فقد ارتحل جده السابع (الشيخ عبد الرحمن) إلى مصر في أوائل القرن العاشر للهجرة . واستطوت أسرة الجبرتي مصر من ذلك العهد .

كانت زيلع وبربرة من أملاك تركيا ، تابعتين للواء (الحلبدة) باليمن ، ففكر الخديو إسماعيل في ضمها إلى أملاك مصر حينما اعترفت سلطنة (هرر) لأن زيلع هي ميناء هرر كما قدمنا . فسمى إلى ذلك لدى الحكومة العثمانية ، ونجح في مسعاه ، إذ صدر له فرمان من السلطان في أول يولييه سنة ١٨٧٥ (٢٧ جمادى الأولى سنة ١٨٩٢) بالتنازل له عن (زيلع) وملحقاتها ، وذلك مقابل زيادة في الجزية السنوية قدرها ١٥,٠٠٠ جنيه عثمانى^(٤٠) (١٣,٣٦٥ جنيه مصري) ، ويدخل في ملحقات زيلع ثغور « بربرة » و « بوهار » و (تاجوره) .

وقد جعل الخديو من هذه البلاد محافظتين عرفتا بمحافظة « زيلع » ، ومحافظة « بربرة » ، وأرسل الحاميات المصرية إلى الثغرين المذكورين ، فجاءت زيلع كتيبة من الجند بقيادة محمد رعوف باشا الذي مر ذكره في الكلام عن مديرية خط الاستواء ، وجعل رعوف باشا محافظاً لزيلع ، والأميرال رضوان باشا محافظاً لبربره ، وكان هذا الأميرال يقود السفينة الحربية المصرية التي أقلت الحامية إلى الميناء المذكور .

وجعل الأمير أبو بكر إبراهيم أمير زيلع السابق وكيلاً لمحافظة وملحقاتها ، وأنعم عليه بالرتبة الثالثة^(٤١) ثم رقى إلى منصب المحافظ^(٤٢) .

وعين الحكام العسكريين والملكيون في المحافظتين ، وعنوا بعمرانهما . فأقاموا بها عدة مبان للحكومة وللجارك والثكنات العسكرية ، وأنشأوا مسجداً في « بربره » وصهرجا لحزان المياه العذبة بها ، ومدوا أنابيب الماء فيها ، وأنشئت مكاتب للبريد في كلا الثغرين ، قال غردون باشا في رسالته ص ٢٧ ، إن المنشآت التي أقيمت في بربره كلفت مصر سبعين ألف جنيه . وبضم زيلع وبربره امتدت سلطة مصر من سواحل البحر الأحمر إلى سواحل خليج عدن الشمالية . أي من سواكن إلى مصوع ، فزولا ، فعيد ، فعصب ، فتاجوره . فزيلع ،

(٤٠) الوقائع المصرية العدد ٦٦٥ (١٥ يولييه سنة ١٨٧٥) .

(٤١) و (٤٢) لوقائع المصرية العدد ٦٢٨ - ١٧ أكتوبر سنة ١٨٧٥ . والعدد ٦٣١ - ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ .

فيغار . فبريره ، ثم وصلت إلى رأس جردفون (جردفوى) على المحيط الهندي .
وقد بقيت محافظتنا زيلع وبربره ملكاً لمصر . إلى أن اغتصبها الإنجليز بعد شيوب الثورة
الهندية . إذ أكرهوا الحكومة المصرية على الجلاء عن السودان ، وشمل القرار هاتين
المحافظتين . فأخلفتها الحامية المصرية في مايو سنة ١٨٨٥ ، واحتلها الإنجليز من ذلك الحين ،
وما زالوا يحتلوها إلى اليوم (١٩٣٢) ، ولكنه احتلال غير شرعي ، لأن مصر لم تتنازل عن
حقوقها في تلك البلاد ، ولم تقر الاحتلال الإنجليزي بها .

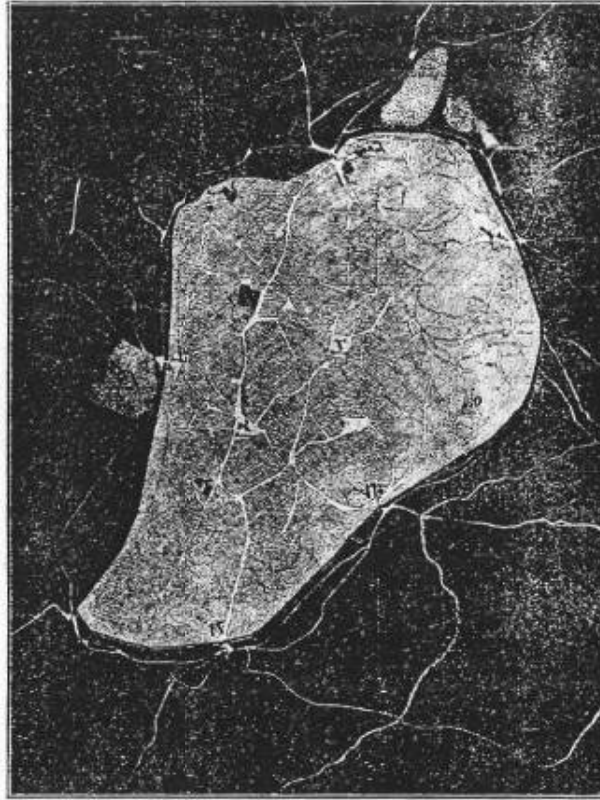
فتح هرر

(سنة ١٨٧٥)

تقع سلطنة (هرر) شرق الحبشة وغرب زيلع ، وهي إمارة إسلامية مستقلة ، يبلغ عدد
سكانها نحو مليوني نسمة ، وأرضها زراعية ، تجود فيها زراعة البن والقمح والذرة والفول
والعدس والموز والفاكهة والقصب ، ويزرع فيها أيضاً القطن وهو أقل مرتبة من القطن
المصرى ، وتنتج منه أقمشة متينة ، وأهم حاصلاتها البن الذي لا يقل جودة عن البن البنغلي .
وتبادل هرر المتاجر مع الخارج ، فتصدر البن والصمغ وريش النعام والزعفران والمر
والزبد والجلود على اختلاف أنواعها ، وتستورد الأقمشة والمنسوجات والنحاس والزجاج
وما إلى ذلك .

وعاصمتها مدينة « هرر » الواقعة على بعد ٢٣٢ ميلاً من زيلع وهي من المدن العامرة ،
يسكنها ٣٥ ألف نسمة ، وهم على جانب من الحضارة ، ذكر عنهم اللواء محمد مختار باشا أن
التعليم منتشر بينهم ، وفيهم الشعراء والأدباء ، وأن جميع الصغار فيهم يتعلمون القراءة
والكتابة والرياضيات والفقه على مذهب الإمام الشافعي ، وأن عادة تعدد الزوجات معدومة
بين أهلها . والطلاق نادر فيهم ، قال : إنه قضى في المدينة ستة كاملة (من أواخر سنة ١٨٧٥
إلى ١٨٧٦) لم يشهد فيها حادثة طلاق واحدة^(٤٣) ، وكان على هرر قبل الفتح المصري أمير
يدعى محمد عبد الشكور ، سار في حكمه سيرة ظلم ، وإبرهاق ، فنقم منه الأهليون اعتسافه
وتحتوا أن يُبدل منه .

(٤٣) انظر بحث اللواء محمد مختار باشا عن هرر ، تلاء بالجمعية الجغرافية بجلد ٢ فبراير سنة ١٨٧٧ ونشر بمجلة
الجمعية بمجموعة ١ عدد ٣ ص ٣٥١ و ٣٦٦ .



خريطة مدينة هرر سنة ١٨٧٦

مصغرة عن خريطة بالفرنسية وضعها محمد مختار بك « باشا » وعبد الله بك فوزي « باشا » من ضباط أركان
حرب الجيش المصري في حملة هرر ، وتجد بالخرائط العالم الآتية :
١ سوق المدينة - ٢ ميدان ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ - مساجد - ٨ و ٩ سور المدينة - ١٠ باب السلام (من أبواب
المدينة) - ١١ باب الحاكم - ١٢ باب النصر - ١٣ باب الفتوح - ١٤ باب الرحمة -
١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ حدائق - ٢١ مدافن - ٢٢ نهر هرر

واعترف إسماعيل فتح هذه السلطنة لما لموقعها من الأهمية . ولأنها تعد من البلاد المكلمة لسودان . فأخذت الجنود المصرية المرابطة في زيلع تستطلع أحوالها وتعرف طرق الوصول إليها . وبعد أن تم هذا ذلك وحفت فرقة من الجيش المصرى بقيادة محمد رفوف باشا في سبتمبر سنة ١٨٧٥ قاصدة إلى « هرر » عاصمة الإمارة ، ورافق الحملة بعض ضباط أركان الحرب بقيادة البكباشى محمد مختار بك ، وهو الذى صار فيما بعد اللواء محمد مختار باشا صاحب الكتاب القيم « التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ المحجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية » ، وله المحاضرات الثمينة في الجمعية الجغرافية .

لم تلق الفرقة في زحفها مقاومة تذكر ، اللهم إلا ما كان من بعض قبائل الجلا إذ اعترضوا زحفها ، واصطدموا بالحملة في معركتين ، دامت إحداهما سبع ساعات وانتهت بتسليم القبائل^(٤٤) ، واستأنفت الحملة سيرها إلى أن وصلت إلى مدينة هرر . وتحتها في ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ ورفعت العلم المصرى على أبوابها وفوق قصر أميرها ، وبذلك ضمت تلك السلطنة إلى أملاك مصر^(٤٥) .

ثم ظهرت بوادر الانتفاض بين بعض قبائل الجلا التي كانت لها الصولة والسطوة في عهد الأمير محمد عبد الشكور ، فطلب رفوف باشا مدداً من الجند على سبيل الاحتياط ، فجهاه المدد من السويس إلى زيلع على ظهر الباخرة (المحروسة) ، ووصل الجند إلى هرر فأذعن القبائل ، واستتب الأمن في أنحاء البلاد ، وانتظمت الإدارة فيها .

وجعل رفوف باشا حاكماً عاماً لهرر ، وعين أميرها السابق محمد عبد الشكور محافظاً لمدينتها^(٤٦) ، واطمأن الأهليون إلى الحكم المصرى .

لكن رفوف باشا لم يلبث أن تنكر لأمر هرر وقتله ، بعد أن كان يثنى عليه في تقاريره إلى الحكومة ويمتدح ولاءه ، ولم يعرف السبب الذى دعاه إلى قتله . ولكن الآراء متفقة على أن قتله كان عملاً لا مبرر له ، ويقول غردون باشا في رسائله^(٤٧) إن هذا العمل لم يكن له

(٤٤) هرر في ظل الحكم المصرى للأستاذ بوليتشكى Paulitschke عن الجمعية الجغرافية بمجموعة نمره ٢ عدد ١٠ (مارس سنة ١٨٨٧) ص ٥٧٥ والسير بوليتشكى هذا هو عالم نسوى جاء هذه البلاد في بعثة علمية وشهد الحكم المصرى

(٤٥) الوقائع المصرية العدد ٦٣١ ، ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ .

(٤٦) الوقائع المصرية العدد ٦٣١ ، ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ .

(٤٧) رسائل غردون إلى أخيه ص ٢٧٤ .

مسوغ . وأن ابن الأمير ذهب إلى مصر ليشكو الحكمدار إلى الخديو فغضب إسماعيل لهذا العمل ، لكنه لم يفعل شيئاً .

وقد رسم الضباط المصريون الذين شهدوا فتح هرر خريطة تلك البلاد . ومن هؤلاء الضباط محمد مختار بك (باشا) وعبد الله فوزى بك (باشا) ، وخططوا المعالم والمواقع بين زيلع وهرر والجهات المجاورة .

وفي عهد الحكم المصرى بنيت دار للحكومة ، وأقيم مسجد جديد ، وشيدت أربع ثكنات لإقامة الجند ، وعدة منازل للموظفين ، ولم يسخر أحد من الأهلين في إقامة هذه المباني ، بل تولى الجنود المصريون إقامتها .

وبقي رفوف باشا يتولى الحكم إلى أن أقاله غردون باشا حين عين حاكماً عاماً للسودان وأعادته إلى مصر ، وعهد بالحكم إلى رضوان باشا محافظ بربره ، ثم خلفه سنة ١٨٨٠ محمد نادى باشا ، فعنى بضبط الأمن وتحصين المدينة . وبقي يتولى الحكم إلى أن شبت الثورة العرابية في مصر ، ثم الثورة المهديية في السودان ، فلم يضطرب حبل النظام بين الجند في هرر ، وفي سنة ١٨٨٢ عين على رضا باشا ، خلفاً لنادى باشا ، وظل الحكم المصرى مستقراً في تلك البلاد ، إلى أن أكرهت إنجلترا حكومة مصر على إخلاء السودان وملحقاته ، فأرسلت تدعو القوات المصرية إلى الجلاء عن هرر ، فصدعت بالأمر وانسحبت منها سنة ١٨٨٥ ، وكان عددها حين الجلاء ٣٤١١ جندي ، يصحبهم ١٦٠ من الموظفين ورجال البوليس والعمال و ٥٠٠٠ من النساء والأطفال من عائلات الجند والموظفين ، فكان مجموع المصريين الذين انسحبوا من هرر ٨٥٧١ قصدوا إلى زيلع ، وأقلعت بهم البواخر إلى مصر .

طوى العلم المصرى من تلك البلاد ، بعد أن ظل يخفق على ربوعها عشر سنوات سويماً ، كان في خلالها رمزاً للنظام والحضارة ، فقد استتب فيها الأمن ، وانتظمت الإدارة ونشطت الزراعة والتجارة ، وعود المصريون الأهالي بعض الزراعات والفواكه المصرية كالعنب والحوخ واللوز والليمون . وقصب السكر والبطاطس والخضر وما إلى ذلك . وازدادت عدد القوافل التي تنقل المتاجر من داخل البلاد إلى السواحل ، فبينما كان عددها سبعين قافلة على عهد الأمراء السابقين . بلغت اربعائة قافلة كل سنة في عهد الحكم المصرى^(٤٨) .

ولما جلا المصريون عن هرر تسلم سلطة الحكم فيها أمير من سلالة الأمراء الذين كانوا

(٤٨) بوليتشكى . المرجع السابق .

تكونها قبل الفتح المصري . ثم أغار عليها ملك الحبشة وأخذها عنوة وضمها إلى أملاكه ، وما زالت تابعة لها إلى اليوم (١٩٣٢) .

حملة الصومال

(سنة ١٨٧٥)

اعتزم الخديو إسماعيل فتح بقية بلاد الصومال^(٤٩) ، فجرد لهذا الغرض سنة ١٨٧٥ حملة ، مقصدها فتح بقية شواطئ الصومال . والوصول إلى مصب نهر جوبا (الجب)^(٥٠) .

ثم فتح الطليق من هناك إلى منطقة البحيرات ، لكي تتصل مصر بأملأها في هذه المنطقة ، من طريق البحر الأحمر والمحيط الهندي ، فضلاً عن الطريق الذي يتبع مجرى النيل . ففي الوقت الذي أنفذ فيه حملة هرر ، جهز حملة الصومال بقيادة الأدميرال ماكيلوب باشا مدير الموانئ والمنازل المصرية ، وتولى قيادة جنود البر في هذه الحملة الأدميرال شامبي لونيغ بك ، ذلك الضابط الشهيم الذي تكلمنا عنه آنفاً ، وكان غردون باشا إذ ذاك حاكماً لخط الاستواء ، فعهد إليه إسماعيل الاتصال بالحملة .

أقلعت العمارة المصرية من السويس ، نقل الجنود المصريين ، في فبراير سنة ١٨٧٥ ، واجتازت البحر الأحمر ، ثم بوغاز باب المندب ، فخليج عدن ، ورسّت في ميناء بربره ، ريثما تستريح وتأخذ أهبها ، وتنتقل معداتها ، ثم أقلعت ثانية ، وانجهدت إلى المحيط الهندي ، فوصلت إلى رأس (حافون) جنوبي رأس جردفون (جردفوي) ، وركز قائد الحملة العلم المصري هناك ، ودعا رؤساء القبائل إلى الدخول في طاعة الحكومة المصرية ، فلبوا الطلب طائعين ، ثم أقلعت العمارة تخوض عباب المحيط الهندي ، حتى وصلت إلى بلدة (براوه) الواقعة شرقي نهر الجوبا (الجب) ، فأذعنت القبائل هناك للحكم المصري ، وترك بها ماكيلوب باشا حامية من الجنود . وعين عليها محافظاً ، ثم اتجه إلى بلدة « قسايو »^(٥١) ،

(٤٩) تطلق بلاد الصومال على الجهات الواقعة في الثلث الذي تنهى إليه إفرقيبه بين خليج عدن والمحيط الهندي .

(٥٠) نهر يتبع جنوبي الحبشة ويصب في الأفيانوس الهندي شمال زنجبار .

(٥١) جنوبي خط الاستواء . وقد سميت في الخريطة التي وضعها ضباط أركان حرب الجيش المصري « بور إسماعيل » .

الواقعة على مصب الجب فتحتها ، وسارت القوارب تحمل الجنود في نهر الجوبا نحو ١٥٠ ميلاً ، ولكن الملاحاة تعذرت فيه ، فرجعوا إلى بلدة قسايو « بور إسماعيل » ، وتأهبت الحملة البرية للسير غرباً ، قاصدة بحيرة فيكتوريا . وفقاً للخطة المرسومة لنام من قبل ، ولكنها أبطلت في الزحف من قسايو ، ويقول شامبي لونيغ بك : إن من أسباب إخفاقها إغضاء غردون عن الاتصال بها رغم الأمر الصادر له من الخديو إسماعيل .

ويتنب لونيغ بك هذا الإغضاء إلى احتمال وصول تعليقات من الحكومة الإنجليزية إلى غردون توجب عليه عدم التعاون مع هذه الحملة^(٥٢) ، وهذا يدل على عدم إخلاص غردون لمصر ، وعدم ولائه للحكومة المصرية ، وقد اعترف غردون في رسالته أنه بالرغم من تكليف الخديو ماكيلوب باشا وشامبي لونيغ بك انتظاره على نهر الجوبا « فإن انتظاره سيكون على غير جدوى »^(٥٣) ، فكأنه كان مُصراً على إهمال العمل بأوامر الخديو .

وكانت هذه الحملة قد أزعجت الإنجليز ، فخابرت إسماعيل في الكف عنها ، وأرسل وزير خارجية إنجلترا إلى الخديو مذكرة بهذا المعنى ، فخشى عواقب المشاكل بينه وبين الحكومة الإنجليزية ، وكان في الوقت نفسه يجهز الحملة على الحبشة ، فاستدعى ماكيلوب باشا ، وانسحبت الحملة من الجوبا في يناير سنة ١٨٧٦ ، وعادت إلى مصر^(٥٤) .

وهكذا أخفقت تلك الحملة ، ولم تصل إلى تحقيق غايتها ، وهي بسط نفوذ مصر على شواطئ المحيط الهندي ، ومنها إلى منابع النيل ، وذهبت الجهود التي بذلت فيها سدى ، ويرجع إخفاقها كما ترى إلى تدخل السياسة الإنجليزية ، ومعارضتها الخديو في الاستمرار فيها ، وكان إسماعيل قد استغرق في الديون ، وشعر بحاجته إلى إرضاء الإنجليز وبجاملتهم فاضطر تحت تأثير هذه الحاجة إلى الإذعان للتدخل الإنجليزي ، والعدول عن الحملة .

اعتراف إنجلترا بسلطة مصر في الصومال

على أن الحكومة الإنجليزية اعترفت بامتلاك مصر بلاد الصومال الشمالية الواقعة على خليج عدن . ذلك أنها عقدت وإياها معاهدة في ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧^(٥٥) ، اعترفت فيها لمصر

(٥٢) كتاب « مصر ومدبرياتها المفقودة » للكولونيل شامبي لونيغ بك ص ١٢٤ .

(٥٣) رسال غردون إلى أخيه ص ١٦٤ .

(٥٤) مصر ومدبرياتها المفقودة للكولونيل لونيغ بك ص ١٥١ .

(٥٥) منشورة في قاموس الإدارة والقضاء لليليب وجلاد (النسخة الفرنسية) ج ٢ ص ٤٩٠ .

بامتلاكها سواحل بلاد الصومال لغاية رأس جردفون « جردفوى » ثم رأس « حَقُون » الواقع جنوبيه على المحيط الهندي .

وقد وقع على المعاهدة كل من شريف باشا وزير خارجية مصر بالنيابة عن الحكومة المصرية ، والمستر « فيبيان » قنصل إنجلترا العام بالنيابة عن الحكومة الإنجليزية . أقرت الحكومة الإنجليزية في هذه المعاهدة سلطة الحكومة المصرية في سواحل الصومال . وقبلت مصر أن تبقى « بربرة » و « بولهار » تغرين حرين ، وألا تعطى فيها أى امتياز أو احتكار لأحد ما ، ولا تأذن بإجراء أى عمل يعطل حركة التجارة فيها ، وألا تأخذ رسوماً عن الواردات أكثر من خمسة في المائة ، ولا تزيد الرسوم الجمركية عن واحد في المائة في موانئ « تاجوره » و « زيلع » وسائر سواحل بلاد الصومال التابعة لها ، وأن تعامل مصر عالياً إنجلترا وسفنها في تلك الجهات معاملة دولة ممتازة ، وتمهد الخديو بالألا يعطى أى قطعة من هذه البلاد إلى أية دولة أجنبية « بند ٢ » .

ورخصت مصر للحكومة الإنجليزية تعيين مأمورى قنصليات في جميع الثغور والبلاد الكائنة على سواحل البلاد المذكورة ، على أنه لا يجوز لها تعيين مأمورى قنصليات من أهالى البلاد أو من أهالى البلاد المجاورة لها .

ففي هذه المعاهدة إقرار من إنجلترا بسلطة مصر في بلاد الصومال الشمالية ، ومن تهكم القدر أن الدولة التى أقرت بذلك سنة ١٨٧٧ وأخذت على مصر عهداً بالألا تنازل لدولة أجنبية عن جزء من تلك البلاد ، هى ذاتها التى اغتصبها بعد أن أكرهت مصر على إخلاء السودان ، فوضعت يدها على زيلع وبربره وملحقاتها وأخذتها من أسلاب مصر ، كما أخذت فرنسا تاجوره وملحقاتها ، وإيطاليا رأس جردفون « جردفوى » .

التراع بين مصر والحبشة

للتراع بين مصر والحبشة في عهد إسماعيل صفحة طويلة ، خلاصتها أن العلاتق بين البلدين لم تكن ودية طيلة مدة حكمه . بل كان يشوبها الجفاء والحصام ، ثم الحرب والصدام .

ويرجع الخلاف إلى أن إسماعيل بعد أن ظفر بضم محافظتى سواكن ومصوع نهائياً إلى

مصر ، اعترم أن يصل بين مصوع وكسله بخط حديدي ، يمر بسنيت^(٥٦) ، وبسهل سبيل المواصلات بين السودان والبحر الأحمر . ويسط رواق العمران في شرق السودان . وكان يعد البلاد الواقعة بين البلدين وخاصة مدينة « سنيت » أرضاً مصرية منذ الفتح الأول « في عهد محمد على » .

ولكن النجاشى « تيودورس » ملك الحبشة عارض الخديو في ذلك ، وادعى أن سنيت أرض حبشية ، فوقع الجفاء بينها .

الحرب بين الإنجليز والحبشة

(سنة ١٨٦٧ - ١٨٦٨)

وظهر أثر هذا الجفاء في موقف الخديو تجاه الحبشة حين قام الخلاف بينها وبين الإنجليز سنة ١٨٦٧ ، فقد اعتقل الملك « تيودورس » بعض التجار الإنجليز وسبهم المستر كامرون قنصل إنجلترا ، ففضبت الحكومة الإنجليزية من هذا العمل العدائى ، وطالبت بإطلاق سراح المعتقلين ، فرفض النجاشى إجابة طلبها ، واشتد الخلاف بين الدولتين ، فانحاز الخديو إلى جانب الإنجليز وأرسل إلى النجاشى كتاباً^(٥٧) ، من إنشاء عبد الله باشا فكرى ، يطلب إليه فيه أن يحسم الخلاف بإطلاق سراح المعتقلين وإرسالهم إلى مصوع ، وحذره عواقب إصراره على اعتقالهم ، وتهدهه بنشوب الحرب بينه وبين الإنجليز ، ويأنه في هذه الحالة لا يمانع الإنجليز في اجتياز الأراضي المصرية لهاجمته .

فأصر النجاشى على الرفض ، فجردت إنجلترا على الحبشة سنة ١٨٦٧ حملة عسكرية بقيادة اللورد نابيه Napier . وانتهز الخديو هذه الحرب فأمد الإنجليز فيها بالمعونة والتأييد ، وأمر عبد القادر باشا الطوبجى محافظ مصوع وقتئذ بمعاونة الجيش الإنجليزي في نزوله إلى البر ، ووضع الأسطول المصرى تحت تصرف الإنجليز لينقل مهاجمهم ومؤونتهم من السويس إلى مصوع .

(٥٦) شمال مصوع . وتسمى أيضاً كبر . Keren ووردت بهذا الاسم في معظم مصورات الجغرافية ، وهى عاصمة إقليم « البرغوس » .

(٥٧) بتاريخ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٤ (سبتمبر ١٨٦٧) .

وانتهت هذه الحرب بفوز الإنجليز واحتلالهم مدينة « مجدلا » شمالي أدبس أبابا ، وقتل
النجاشي تيودورس سنة ١٨٦٨ ، ثم عاد الإنجليز إلى بلادهم .
وآل عرش الحبشة إلى الملك « يوحنا » الذي كان يعاونه الإنجليز ضد الملك تيودورس
والملك يوحنا هو من أعظم ملوك الحبشة شأنا ، وأشدهم بأسا ، وفي عهده وقعت الحرب بين
مصر والحبشة كما سيجيء بيانه .

فلما خلف يوحنا الملك تيودورس على عرش الحبشة اغتم الخديو فرصة انصرافه إلى محاربة
قبائل « الجلا » لتحقيق غرضه الأول وتوسيع أملاك مصر من ناحية الحبشة .

منزجر باشا Munzinger pacha

وقد استحثه على تحقيق هذا الغرض المسيو منزجر قنصل فرنسا في مصوع .
ومنزجر هذا له شأن كبير في تاريخ العلاقات بين مصر والحبشة في عهد إسماعيل ، وهو
رجل سويسري الجنس ، جاء مصر ، ثم جاب أنحاء السودان والحبشة ، وأقام في مصوع منذ
سنة ١٨٦٠ ، وتزوج بسيدة حبشية من أهالي البوغوس ، ثم شغل منصب قنصل فرنسا في
ذلك الثغر ، وعاون الإنجليز في حربهم مع الحبشة بما له من الدراية بأحوال البلاد ولغتها
ومسالكتها (٥٨) .

وفي سنة ١٨٧٠ عينه الخديو محافظاً لمصوع ، ثم أسند إليه فيما بعد منصباً أعلى ، إذ جعله
محافظاً لسواحل البحر الأحمر ومديراً لشرق السودان ، وأتم عليه برتبة البكوية ، ثم
الباشوية ، فصار يعرف بمنزجر باشا ، وعين أراكيل بك نوبار من أقرباء نوبار باشا محافظاً
لمصوع تحت إمرته (وهو غير أراكيل بك الذي تكلمنا عنه ص ٤٥) .

ومنزجر باشا هو الذي زين للخديو إسماعيل فكرة فتح الحبشة ، وألقى في روعه أنه لطول
مكثه في هذه الجهات قد سبر غورها ، وعرف أسرارها ، وأقنعه أن فتح الحبشة لا يكلف مصر
عناء كبيراً ، لما كانت عليه من الضعف والفوضى والانقسام .

فأعجب إسماعيل بالفكرة ، وشرع في تحقيقها ، وعهد إلى منزجر ذاته فتح إقليم
(البوغوس) وعاصمته سنهيت .

(٥٨) عن ترجمة منزجر باشا . بقلم المسيو دوريك في مجلة الجمعية الجغرافية ، العدد الأول من السنة الأولى ، نوفمبر سنة
١٨٧٥ . فبراير سنة ١٨٧٦ ص ١٢١ .

فتح سنهيت وضم إقليم البوغوس

فسار منزجر باشا من مصوع في قوة من ألف وخمسمائة مقاتل ، وقصد إلى سنهيت وفتحها
باسم مصر .

ووسع نطاق مصر من هذه الناحية ، فتم على يده فتح بلاد البوغوس ، وضمها إلى مصر .
واشترى مقاطعة (بيت) الواقعة بين مصوع والخامسين من حاكمها الذي كان خلاف مع
النجاشي . وشملت سلطة منزجر سواكن ومصوع وبلاد البوغوس ، والتاكا ، والقضارف ،
والقلايات ، وأميديب ، وبركة ، أي السودان الشرقي في أقصى حدوده .
وقد نعم الملك يوحنا من مصر هذا التوسع ، وازدادت العلاقات بين البلدين توتراً ،
وكادت الحرب تشب بينها ، لولا اشتغال الخديو بفتح هرر والحملة على الصومال .

حرب الحبشة

(سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦)

هي الحرب العقيم التي خاضتها مصر في عهد إسماعيل ، والعقبة الكأداء التي اصطدمت بها
فتوح مصر في حوض النيل وملحقاته ، ومن أي ناحية نظرنا إليها نجد أن مصر لم تكن في حاجة
إليها . ولا مصلحة لها في خوضها ، وإنما ساق إليها التزق ، وسوء التدبير ، فانهت بالهزيمة
والخسران .

رأيت مما تقدم بيانه ، أن مصر قد ضمت الجهات الواقعة بين الحبشة والبحر الأحمر
وفتحت (سنهيت) وبلاد (البوغوس) الواقعة شماليها ، و (هرر) المجاورة لها من الجنوب
الشرقي ، فأحاصها من الشمال والشرق والجنوب . فضلاً عن مجاورتها لها من الغرب منذ عهد
محمد علي .

فهذه المواقع كان يكتفى مصر أن تثبت سلطانها وتدعم نفوذها فيها ، وبذلك تبقى الحبشة
مسنة لها . إذ تخرج إليها للوصول إلى البحر الأحمر ، ولكن إسماعيل حدثه نفسه بفتح
الحبشة ، واكتساحها من طريقه ، دون أن يقدر صعوبة هذه المهمة وعواقبها الوخيمة .
فأحبشة كما يعرفها ندين خبروها وسبروا غورها . بلاد جبلية لا يسهل على دولة أجنبية أن

تحتها أو تجتاز جبالها الوعرة ومفاوزها الجرداء ، فضلاً على أن حربها لا تفيد مصر بحال من الأحوال ، بل تخلق لها من المشاكل وتكبدها من الخسائر والضحايا ما هي في غنى عنه . لم يجاهر إسماعيل بنيته في فتح الحبشة ، ولكن سياسته إزاءها كانت تتم عن هذه الغاية ، فقد تحرش بها ، وعمل على إثارة الحرب معها . على غير جدوى ، ووقع القتال على غير استعداد من مصر ، فحلت الهزيمة بالجيش المصري ، وأصابته الخسائر الفادحة ، وكبدت الحرب الخزانة المصرية الأموال الطائلة ، في وقت ارتبكت فيه أحوالها ، واشتد بها الضيق ، فكانت حرب الحبشة عقياً من كل ناحية .

اعترم إسماعيل تجريد حملتين في وقت واحد على بلاد الحبشة ، الأولى تهاجمها شمالاً من طريق مصوع ، والأخرى جنوباً من طريق ميناء « تاجوره » الواقعة على خليج عدن ، وعهد بقيادة الأولى إلى الكولونل أرنديروب بك^(٥٩) Arendrup . والثانية إلى مترنج باشا .

حملة أرنديروب بك

(سنة ١٨٧٥)

زحفت الحملة الأولى من مصوع ، وكانت مؤلفة من ٣٢٠٠ مقاتل^(٦٠) مزودين ببطاريتين من المدافع ، واقتحمت حدود الحبشة ، واستولت على « الحماسين » الواقعة جنوبي سنهت ، دون أن تلقى مقاومة تذكر ، وتقدمت قاصدة « جونديت » ولما علم الملك يوحنا بزحفها حشد جموعه ، وأعد جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل ، سار به قاصداً مصادمة الجيش المصري . وأرسل أرنديروب بك رسالة إلى الملك يوحنا يطلب إليه فيها جعل نهر الجاش حداً فاصلاً بين الحبشة ومصر ، فلم يعأ بالرسالة ، وسجن الرسولين الذين أوفدهما إليه أرنديروب بك ، فتقدم الجيش المصري ليسبق الأحباش إلى الهجوم .

(٥٩) هو من ضباط أركان الحرب . أصله دانمركي . ثم جاء مصر وتعرف إلى الجنرال استون باشا ، رئيس أركان الحرب . فرغب إليه الخدمة في الجيش المصري قتل . ثم تول قيادة الحملة كما ترى في سياق الكلام .

(٦٠) إحصاء المسيو سوتزارا Suzzara قصر الحسا عدم في مصر على عهد إسماعيل في تقريره المسهب عن حرب الحبشة ، وقد نشر هذا التقرير في مجلة مصر Revue d'Egypte للمسويجياردويش عدد مارس وأبريل ومايو سنة ١٨٩٦ ص ٦٢٦ و ٦٢٣ و ٧٢٧ .

هزيمة جونديت

(نوفمبر ١٨٧٥)

فاشتبك الجيشان في جونديت يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ . وكان جيش الحبشة أكثر عدداً وأشد حماسة من الجيش المصري ، فحمى وطبيس القتال ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش المصري . وقتل معظم رجاله ، ولم ينج منهم إلا التز اليسير ، وكان من بين القتلى أرنديروب بك وإراكيل بك نوبار محافظ مصوع . وارتدت قلوب الحملة منهزمة إلى مصوع .

حملة مترنج باشا

أما الحملة الأخرى فقد تولاها مترنج باشا ، فأبحر من مصوع على رأس ثلاثة بلوكات من الجنود المصرية والسودانية ، ونزل في « تاجوره » ليستكمل منها معدات الحملة من الإبل ، وترك معظم الجند في تاجوره حتى يتم إعداد الحملة ، وأقلع هو في قوة صغيرة من الجند بصحبة الرأس « بورو » الذي كان على خلاف مع الملك يوحنا ، ونزل في رأس « جيلا جيفو » الذي يبعد عن تاجوره غرباً بحمسة عشرة ميلاً ، وقصد إلى بحيرة « أوسا » Aoussa الواقعة في الجنوب الشرقى من الحبشة ، ووصل إليها يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، بعد مسيرة سبعة أيام .

مقتل مترنج باشا

(نوفمبر سنة ١٨٧٥)

قابل مترنج باشا في طريقه إلى بحيرة « أوسا » ابن الشيخ محمد الحدة أمير ذلك الإقليم ، فتظاهر له بالولاء للحكومة المصرية ، ولكنه كان يضمر له السوء ، فاطمأن إليه مترنج ، واتخذ مرشداً ونصيراً . وسارت الحملة إلى أن عسكرت بالقرب من شاطئ البحيرة ، فقبا كان الجنود نياما (ليلة ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥) هجم عليهم رجال القبائل غيلة بقيادة الشيخ محمد الحدة . وأعملوا فيهم السيف ، وقتكوا بهم تكاً ذريعاً ، وشبت الواقعة في جناح الظلام

أجرت الحملة من السويس نقلها بواسطة الشركة الحديدية والسفن الحربية المصرية ، ووزنت في ميناء (مصوع) . وأخذ جيش زحف على حينة .

هزيمة قورخ

(٧ مارس سنة ١٨٧٦)

أوغل المصريون في غناور الحينة . دون أن يظلموا أسوأ مما رصفوا قوات الأعداء وبواقعهم . فوصل الجيش في زحفه إلى بلدة « قورخ » (٢٧) التي تبعد عن مصوع نحو ٥٥ ميلا ، فسكر فيها ، وأخذ يقيم فيها الاستحكامات . فبنى حصناً بها ثم حصنين في أول السهل الواصل إليها من (فيخور) . وقد أمد الملك يوحنا جيشاً كبيراً بلغ نحو أربعين ألف مقاتل ، وسار لمهاجمة المصريين في « فياخور » وكانت تحتلها قوة من الجيش المصري . ونجحوا استحكامات منيعة لم يتكفروا الأحباش على مهاجمتها .

فصلوا مهاجمة مركز الجيش المصري في (قورخ) ، ونشبت بها يوم ٧ مارس سنة ١٨٧٦ معركة كبيرة ، انتهت بهزيمة الجيش المصري . ونشبت نسله ، وقتل معظم رجاله ، ولم يتمكن القائد العام والأمير حسن باشا وأركان حربها من النجاة إلا بعد أن عابوا الموت ، وكاد الأحباش يشكون بهم ، وأسروا من المصريين نحو ٢٥٠ أسير . وقد خسر الأحباش في هذه الواقعة خسائر فادحة لا تقبل في عددها عن خسائر المصريين ، ولكنهم فازوا بانتصر الميز .

عقد الصلح

وكان ضمن الأسرى المصريين محمد بك زومت رئيس القلم التركي بديوان الجهادية ، وقد راقب الحملة صحبة السردار . فأخذ يسمى في عقد الصلح مع الملك يوحنا ، على أن تنسحب

(٢٧) جاء اسمه مكاناً في توقيع المصرية عدد ٦٤٩ وكان معظم المؤلفين يكتبها « قورخ » وهذا الوضع « قورخ » يراقب النطق الفرنسي Gourn

دون أن يأخذ المصريون عدتهم لها ، فأوقع بهم الأحباش وقتلوا متزوج وزوجه ومعظم رجاله ، وارتدت قلوب الحملة في أسوأ حال إلى « زيلع » بقيادة البكاشي محمد أفندي عزت ، وكان عدد الباقين منهم ١٥٠ مقاتل .

الحملة الكبيرة بقيادة راتب باشا

(سنة ١٨٧٦)

وصلت أنباء هذه الغزاة إلى مصر ، فقويت بالرجح والدهشة ، وترزنت لها هبة الجيش المصري ، وغضب إسماعيل لهذه الغزاة ، ونحى عواقبها المنوية والسياسية ، فأراد أن يزيل تأثيرها بتجريد جيش جرار على الجبهة ينسل الإهانة التي لحقت بمصر ، وفي الحق أن الموقف كان عصياً ، لأن هزيمة مصر أمام الجبهة تسقط هيبتها في وقت كانت تكتنفها المطامع الأوروبية ، ولكن الحديوي لم يأخذ في أمره منذ البداية بالأناة وحسن الاستعداد وتقدير الموقف من كل وجوهه ، فلما جاءت أخبار الغزاة الأولى ، تعجل بإعداد حملة منسرة ، مؤلفة من نحو خمسة عشر ألف مقاتل ، دلت مقدماتها على أنها سائرة حتماً إلى الغزيرة والخسران ، وأهم عيب في تأليفها افتقارها إلى كفاءة القيادة وحسن النظام .

فقد عقد الحديوي لوامها للسردار راتب ، وهو ضابط صغير من الكفاءة وحسن التدبير . وجعل على رأسه أركان الحرب الجنرال لورنج باشا Loring من القواد الأمريكين في الجيش المصري ، ولم يكن التفاهم سائلاً بين القائد العام ورجة أركان الحرب ، ففقد الجيش أهم عوامل النجاح ، وهي وحدة القيادة وكفائها .

وصحب الحملة الأمير حسن باشا أحد أمثال الحديوي ، وكان قد عاد من ألمانيا بعد أن درس بها قليلاً من الفنون الحربية ، ولم يكن له من الكفاءة والخبرة ما يجعل منه قائداً يعتمد عليه في مثل هذه الحرب .

وقد تطوع في القسم الطبي للحملة بعض كبار أطباء مصر في ذلك العصر ، كالدكتور محمد علي باشا البقل ، الذي أتى مصرعه فيها (٢١) ، والدكتور محمد بك بدر .

(٢١) راجع ترجمته في كتابنا «عصر محمد علي» ص ٥١٢ (من الطبعة الأولى) .

جند المصرية من أرض الحبشة ، ويرد الملك الأسرى إلى مصر ، ويفتح طريق النجاة بين مصوع وحبشة .

فأسفرت مساعي رفعت بك عن عقد الصلح وبقيت سنيت في أملاك مصر^(٦٣) ، وعاد هو وباقي الأسرى إلى مصوع ، وأبحرت فلول الحملة إلى السويس ، وبلغت خسائر مصر من الرجال في الحملات التي جردتها على الحبشة ٨,٥٠٠ قتيل .

نتائج حرب الحبشة

تكبدت مصر في هذه الحرب العقم خسائر فادحة في الرجال والمال ، وتصعدت هيبتها لما أصابها من الهزائم المتوالية ، وكلفت الخزانة المصرية نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات^(٦٤) ، في وقت كانت تنوء فيه بالديون الجسيمة ، وتعاني أشد ضروب الارتباك المالي .

وليس يخفى أن هذه الحرب وقعت في الوقت الذي تحفزت فيه الدول الاستعمارية ، وخاصة إنجلترا ، للتدخل في شئون مصر المالية والسياسية ، فانهزام الجيش المصري ، في تلك الحرب ، قد ضاعف آمال إنجلترا في التطلع إلى احتلال مصر ، ذلك أنها كانت تحسب حساباً كبيراً لقوة الجيش المصري ، منذ تبينت مكائنه ووسائله في المعارك التي خاض غارها تحت لواء إبراهيم باشا ، ولكن هزيمته في الحرب الحبشية كشفت عن ضعفه ، وعن القوضى الضارية أطنابها في نظامه ، ففقد المهابة التي كانت له من قبل .

فالخرب الحبشية كانت تجربة مؤلمة ، أظهرت ضعف قوة مصر الحربية ، ولم يكن من سبيل إلى تجديد هذه القوة في وقت أشرفت فيه الحكومة على العجز والعسر المال ، في أواخر عهد إسماعيل ، وليس ثمة شك في أن هذه النتيجة كان من شأنها أن تغرى إنجلترا بتحقيق أطماعها في مصر ، فلا جرم أن تضاعف مساعيها في وضع يدها على البلاد ، وما زالت تدأب على تلك الخطة مدى خمس سنوات حتى وقعت الحوادث العراقية التي انتهت بالاحتلال الإنجليزي .

(٦٣) أخذتها إيطاليا بعد إخلاء مصر للسودان وجعلتها جزءاً من مستعمرة أريتريا .

(٦٤) إحصاء السير سوتزارا قنصل النمسا في مصر على عهد إسماعيل في تقريره المسهب الموزع بوليه سنة ١٨٧٧ السابق

حكمدارو السودان في عهد إسماعيل

انتهينا من بيان الحوادث الهامة في السودان على عهد الخديو إسماعيل ، والآن نذكر نبذة عامة عن حكمداري السودان على النحر الذي اتبعناه في كلامنا عن عهد محمد علي باشا (عصر محمد علي ص ١٧٧ من الطبعة الأولى) .

موسى باشا حمدي

كان على السودان حين تولى إسماعيل الحكم (موسى باشا حمدي) ذو الأعمال الجمة والمآثر الحسنة ، وقد سر الخديو من أعماله ، وأنعم عليه برتبة الفريق ، فذهب إلى مصر في يولييه سنة ١٨٦٣ ليؤدى واجب الشكر ، وأطلع الخديو على أحوال البلاد التي يحكمها ، فلقى من إسماعيل باشا عطفاً كبيراً ، ثم عاد إلى مقر عمله بالخرطوم .

وعنى بزيادة عدد الجند فوصل عددهم في عهده إلى ثلاثين ألفاً من الجنود النظاميين والباشيوزق ، وسار في حكمه بهمة ودراية ، وبقى حكمداراً للسودان إلى أن توفي سنة ١٨٦٥ بالخرطوم ، ودفن بها .

جعفر صادق باشا

(١٨٦٥ - ١٨٦٦)

ثم خلفه جعفر صادق باشا . وفي عهده فتح الجنود المصريون فاشوده سنة ١٨٦٥ كما تقدم البيان .

إخماد ثورة كسلا

وفي عهده أيضاً أخمدت ثورة شبت بين الجنود السودانيين المرابطين في (كسلا) وعدتهم نحو أربعة آلاف جندي .

ظهرت هذه الثورة في أواخر عهد موسى باشا حمدي ، وترجع أسبابها إلى سوء إدارة الحكام ، وتأخير دفع رواتب الجنود ثمانية عشر شهراً ، فثاروا وعصوا الأوامر وتمردوا على

رؤسهم . وقتلوا بعض الضباط ، ونهبوا أموال الأهلين ، وخرّبوا بعض القرى ، فأخذتهم الحكومة باخيلة تارة ، وبالعنف والقسوة تارة أخرى ، ولما بلغ الخديو إسماعيل نبأ هذه الثورة أهتم بأمرها اهتماماً كبيراً ، وبعث بجعفر صادق باشا حاكماً على السودان ، وأرسل أوامره إلى السلطات المحلية بإمداد قوات الحكومة في كسلا لإخماد الفتنة .

وقد كان الفضل في إخمادها لضابط سوداني كبير يسمى (آدم بك) . وهو من خيرة ضباط جيش المصري ، تلقى التعليم الحربي في مصر على عهد محمد علي باشا ، ورافق إبراهيم باشا في حروبه بسوريا ، واشتهر بالبسالة والإقدام ، إلى المهارة والكفاءة ، وقد أرسل إليه الخديو خطاباً يدل على تقديره لشجاعته استحثة فيه على العمل لإخماد الفتنة وختمه بقوله : « وإني أعلم بسالتك وحسن سياستك ، منذ كنت مع المرحوم والدنا في سوريا ، فحقق آمالنا بك ، وعند انتهاء الثورة احضر إلى مصر والسلام » سبتمبر سنة ١٨٦٥ (٦٥) .

أدى آدم بك مهمته خير أداء ، أخذ الثائرين بالخصي ، ووعدهم بأن يحصل لهم على عفو من الخديو ، فأخذوا إلى الطاعة ، ثم جاء حسن باشا القائد العام للجند ، وعقد مجلساً عسكرياً للنظر في أمر العصاة ، فقرر تجريدهم من السلاح ، واعتقالهم جميعاً حتى يرد أمر الخديو في شأنهم ، فثارت ثائرتهم من جديد ، بسبب غطرسة بعض ضباط الباشيزوق فأطلق الجند الرصاص على الثائرين فقتل كثير منهم ، واعتقل الباقون .

جعفر مظهر باشا

(١٨٦٦ - ١٨٧١)

ثم حضر جعفر مظهر باشا وكيل الحاكم ، فحقق أسباب الثورة ، وأوقع العقاب بمن اشتركوا فيها . وانتهى على يده إخمادها .

وأنعم الخديو على آدم بك برتبة اللواء مكافأة له على ما بذله من الهمة في إخماد الثورة . وفي غضون ذلك مرض جعفر صادق باشا وعاد إلى مصر ، فعين جعفر مظهر باشا حاكماً للسودان ، فسار سيرة عدل وإصلاح ، وكان من خيرة حكام السودان . وتنظم

(٦٥) عن كتاب السودان لنعم بك شقير ج ٢ ص ٤٢ .

الإدارة ، وأصلح دار صناعة الخرطوم ، وأنشأ بعض المدارس وفتح عدة محاكم للفصل في منازعات الناس .

وفي عهده عين آدم بك الضابط السوداني المتقدم ذكره قائداً عاماً للجيش المصري بالسودان ، وأنعم عليه بالباشوية ، فسار يعرف بآدم باشا . وقد أظهر ولاء صادقاً لمصر والحكم المصري .

وفي عهده أيضاً نشطت الحكومة المصرية في مطاردة تجار الرقيق ، وزحف صمويل بيكر باشا بقوة من الجيش المصري على إقليم خط الاستواء وضمه إلى أملاك مصر كما أسلفنا ، وكان مظهر باشا يعاونه في مهمته .

واشتهر مظهر باشا بالعدل والتزاهة ، ولا غرو فهو أعظم ولاة السودان شأنًا ، وأحسنهم سيرة ، وكان يقرب إليه علماء السودان ويكرمهم ، ذكر عنه إبراهيم باشا فوزى أنه فارق الخرطوم وعليه دين يربى على ألف جنيه ، وهذا من أقوى الدلائل على نزاهته ، وقال أن راتبه لم يكن يفي بمحاجاته ، لكثرة ما كان ينفقه على الفقراء والمعوزين ، وما كان يقيمه من الأدب للعلماء وذوى الفضل ، قال ولا يزال السودانيون يذكرون له هذه الميزات ، وهم مجمعون على أن أيام ولايته كانت غرة في جبين السودان (٦٦) .

وقد عين في سبتمبر سنة ١٨٧١ عضواً بمجلس الأحكام بمصر (٦٧) فانفصل عن منصبه في السودان ، وعين في مكانه ممتاز باشا .

ممتاز باشا

(١٨٧١ - ١٨٧٣)

هو من ضباط الفرسان في الجيش المصري ، وكان سبباً في السيرة ، مرتكباً للرشوة فشكاه الأهليون إلى الخديو ، فأمر بالتحقيق معه ، وسجن بالخرطوم رهن التحقيق . ومات بالسجن ، والأثر الوحيد الذي تركه أنه علم الأهلين زراعة القطن .

(٦٦) السودان بين يدي غردون وكشتر . ج ١ ص ٦٧ .

(٦٧) الوقائع المصرية العدد ٤٢٦ الصادر في ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٧١ .

إسماعيل باشا أيوب

(١٨٧٣ - ١٨٧٧)

في عهده اتسعت فتوح مصر اتساعاً عظيماً . فتحت سلطنة دارفور على يد الزبير باشا رحمت ، وضمت زيلع وبربره . وفتحت سلطنة هرركا بيناه في موضعه ، وله فضل كبير في بسط رواق العمران في السودان . فقد أمن السبل ، ووطد دعائم الأمن في واديه ، ونشط الزراعة والتجارة والصناعة ، وعلى يده أنشئت محطات عسكرية بين الخرطوم ودارفور إلى حدود واداي ، وبين بربر على النيل وسواكن على البحر الأحمر ، لتأمين سبل المواصلات ، مما كان له أثره في تنشيط التجارة ، وعلى بتوسيع زراعة القطن وأنشأ معملين لحليج الأقطان ونسجها ، وفي عهده أنشئت عدة مكاتب للبريد في أهم العواصم ، وقد بقى ن منصبه إلى أن تدخلت السياسة الإنجليزية ، وأوعزت إلى الخديو إسماعيل بتعيين غردون باشا مكانه ، فنقل إسماعيل باشا أيوب عضواً بالمجلس الخصوصي العالي (مجلس الوزراء) ، وهذا التعيين وإن كان دليل الرضا عنه ، لكنه أدى إلى إقصائه عن السودان ، ثم ترقى في المناصب ، إلى أن صار وزيراً للداخلية عقب الاحتلال الإنجليزي ، وإليه ينسب امتناع الحكومة عن إرسال النجدة التي طلبها عبد القادر باشا حلمي حاكم السودان لإخماد الفتنة المهدية ، ثم استدعاؤه من السودان سنة ١٨٨٣ ، مما كان سبباً في استفحال الثورة ، وخدمة المطاعم الإنجليزية ، كما سببته في موضعه ، وتوفي سنة ١٨٨٤ .

غردون باشا

(١٨٧٧ - ١٨٧٩)

لم ينقطع الكولونل غردون عن السودان طويلاً ، فبعد أن استعفى سنة ١٨٧٦ من منصبه الأول وعاد إلى إنجلترا ، سمعت الحكومة الإنجليزية لدى الخديو كي يعين حاكماً عاماً للسودان ، وهكذا تدرجت السياسة الإنجليزية في تدخلها في شؤون السودان ، فبعد أن كان غردون حاكماً لحظ الاستواء ، صار الحاكم العام للأقاليم السودانية جميعها ، وهذه أول مرة

ولى فيها هذا المنصب الخطير حاكم أجنبي . وهو ليس حاكماً أجنبياً فحسب ، بل ينتمى إلى دولة لها في مصر مآرب استعمارية لا تحصى . إذ كانت تنطلق إلى مصر ، وتعمل على إنشاء إمبراطورية إفريقية إنجليزية تنبنيها على أنقاض الإمبراطورية المصرية .

فتعيين غردون حاكماً عاماً على السودان هو فوز كبير للسياسة الإنجليزية . ودليل على مبلغ ما أدركته من النفوذ السياسي في بلاد إسماعيل . ولا يخفى أن هذا التعيين وقع سنة ١٨٧٧ ، أي بعد أن خطت إنجلترا الخطوات الأولى للتدخل في شؤون مصر ، إذ بدأ تدخلها الفعلي بشرائها أسهم مصر في قناة السويس سنة ١٨٧٥ . وأعقب ذلك تدخلها والدول في شؤون مصر المالية بإنشاء صندوق الدين ، ثم فرض الرقابة الثنائية على مالية الحكومة سنة ١٨٧٦ . فتعيين غردون هو من آثار ارتباط مصر المالي ، ومن نتائج سياسة إسماعيل المالية ، فقد كان يظن أنه يستطيع بمثل هذا التعيين كسب عطف إنجلترا ، لتعاونه في محنته ، لكنه لم ينل أي مقابل لهذه المنحة العظيمة ، وعلى العكس ، كانت إنجلترا أشد عليه وطأة من الدول الأخرى ، وكذلك شأن السياسة الإنجليزية في مصر ، تأخذ كل ما تستطيع أخذه ، دون أن تعطى شيئاً . ويستفاد من رسائل غردون أن إسماعيل كان متردداً في إسناد هذا المنصب الخطير إليه ، ولكن غردون رفض أن يذهب إلى السودان ما لم يعين حاكماً عليه ، وكان يظن أن الخديو لا يقبل هذا الشرط^(٦٨) ولكن ضغطت السياسة الإنجليزية ، واتماس الخديو النجدة منها في محنته المالية ، كل ذلك مال به إلى التساهل والتسليم ، وأصدر في ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ فرماناً لغردون باشا بالولاية على جميع أصقاع السودان بما فيها دارفور ، وبحر الغزال ، وخط الاستواء ، وهرر ، وسواحل البحر الأحمر مع مصوع ، وسواكن ، وزيلع ، وبربره^(٦٩) ، ونحوه في حكمه سلطة مطلقة ، عسكرية ومدنية ، وكان سلطان مصر في السودان قد بلغ وقتئذ أقصى مداه ، إذ امتد من سواحل البحر الأحمر وخليج عدن والإقيانوس الهندي شرقاً ، إلى حدود واداي غرباً . والبحيرات الاستوائية جنوباً .

لم يكن غردون على كفاءة للاضطلاع بأعباء المنصب الكبير الذي تولاه ، بل كان سريع التأثر ، سهل الانقياد لمن يثق به ، كثير التضارب في آرائه ، ولم يقترن اسمه إلا بمحاربة الاتجار بالرقيق ، واحتكار العاج ، لكنه أسرف في عمله ، ولم يأخذ الأمور بالحكمة وبعد النظر .

(٦٨) رسائل غردون إلى أخيه ص ١٩٥ .

(٦٩) كما وردت في : الوقائع المصرية ، بالعدد ٦٩٨ و ٦٩٩ الصادرين في ٢٥ فبراير و ٤ مارس سنة ١٨٧٧ .

قال شاي لونج بك : « إن أمر غردون باحتكار الحكومة محصول العاج قد أثار تجار
سودان على الحكومة ، وهؤلاء التجار كانوا سادات السودان الحقيقيين ، فكان هذا العمل
سخطى على الظلم النواة الأولى للثورة المهديّة ، وكانت إدارته فوضى ، وبالجملة فقد تولى
حكم السودان ، والأمن واليسار بسودانه ، ولما غادره سنة ١٨٧٩ ، كان بنوه تحت أعباء
تديون ، والثورة تتمخض في أحشائه (٧٠) .

وقد جعل غردون اعتماداً على الموظفين الأجانب في تلك الأصقاع النائية ، فعين
مسالياً بك Messedaglia مديراً للفاشر (دارفور) وكان إيطالياً ، وجيسى باشا Gessiani
pacha الإيطالي مديراً لبحر الغزال . وفرديك روسى Rosset فنصل ألمانيا في الخرطوم
مديراً لدارفور ، وشارل ريجولي Rigolei الفرنسي مديراً لداره ، واميليانى Emiliani
مديراً لكبيكيه ، والدكتور زورنجين مفتشاً للصحة ، والضابط (سلتين) أحد ضباط الجيش
النموى مفتشاً للمالية ، وهو الذي صار فيما بعد سلاطين باشا صاحب الواقف المشهورة أثناء
الثورة المهديّة ، وجيكلر باشا النموى ، مديراً عاماً لمنع تجارة الرقيق ، وهلم جراً .
وكان الكولونل (بروت) الأمريكانى يتولى الحكم في مديرية خط الاستواء ، فعين بدله
إبراهيم فوزى (باشا) ، ثم ما لبث أن أقاله وعيّن في مكانه الدكتور شتر الألمانى الذى عرف
بعد ذلك بأمين باشا .

وأهم غردون شأن المقاطعات الاستوائية ، ولم يعن بتوطيد سلطة الحكومة المصرية فيها ،
فكأنه كان يعنى إقصاءها عن الحكم المصرى ، تمهيداً لإدخالها في منطنة النفوذ الانجليزى .
وأقلل المدارس التى فتحتها الولاة من قبل ، وتدرج إلى ذلك بقلة المال ، ومنع إرسال
الطلبة الناجحين بمدرسة الخرطوم إلى مصر ، وعزل الموظفين منهم .
وشغلت الفن والثورات معظم مدته ، وكان عهده نديراً بشوب الثورة المهديّة ، وساعد
على شوب الفن تشده في إبطال الرقيق ، وتقص قوة الجيش المصرى في السودان ، بما
أخذته الحكومة من صفوفه من الأمداد التى أرسلتها إلى تركيا في حرب البلقان (سنة
١٨٧٧) .

ثار سليمان بن الزبير باشا سنة ١٨٧٧ انتقاماً لأبيه ، إذ كان ممنوعاً من الرجوع إلى السودان ،

(٧٠) مصر ومديرياتها المفقودة ، للكولونل شاي لونج بك ص ١٨٦ .

وطمع في الاستقلال ببحر الغزال . فأنفذ إليه غردون باشا حملة طارده وأوقعت به .
ثم عاد يقاوم الحكومة ، فأنفذ إليه غردون حملة بقيادة جيسى باشا ، انتهت بهزيمة سليمان
ومقتله (يولييه سنة ١٨٧٩) . وقد حزن عليه أبوه الزبير باشا حزناً شديداً ، لكنه بقى موالياً
للحكومة المصرية .

وثار قائد من قواد جيش الزبير يدعى (الصباحى) ، فطارته الجنود المصرية حتى
أدرسته ، وحوكم أمام مجلس عسكري وحكم عليه بالإعدام (مارس سنة ١٨٧٩) .
وثار في دارفور أمير من سلالة سلاطينها يدعى هارون ولقب نفسه بالرشيد ، وبابعه
الأهلون سلطاناً عليهم في أوائل سنة ١٨٧٧ ، فحاربه الجنود المصرية حرباً طويلة ، انتهت
بقتله في أوائل سنة ١٨٨٠ (٧١) ، وسعى غردون في الاتفاق مع يوحنا ملك الحبشة على تحديد
التخوم بينه وبين مصر ، فلم يوفق إلى ذلك ، وفي أواخر سنة ١٨٧٩ جاء إلى مصر ، وكان
ذلك في أوائل حكم الخديو توفيق باشا ، وقدم استعفاءه من منصبه ، فعينت الحكومة محمد
رموف باشا حاكماً للسودان خلفاً له ، وهو آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة
المهديّة ، وفي عهده ظهرت بوادر تلك الثورة المشتومة التى قضت على نفوذ مصر في السودان ،
ومهدت للحكم الانجليزى في أرجائه .

التقسيم الإدارى

دخل على التقسيم الإدارى في عهد إسماعيل تعديلات أفضى إليها في الغالب التوسع في
الفتح وضم بلاد جديدة إلى السودان .
فصار مؤلفاً من المديرىات والمحافظات الآتية (٧٢) :

المديرىات والمحافظات	العاصمة
مديرية الخرطوم	الخرطوم
مديرية سنار وفازوغلى	سنار
مديرية بربر	بربر

(٧١) دارفور في عهد غردون باشا لساليا بك . مجلة الجمعية الجغرافية بمجموعة ٣ عدد ١ ص ٦٧ (مايو سنة ١٨٨٨) .
(٧٢) انظر إحصاء شيلو بك Chwlu Bey كبير مفتشى الرى بالسودان في كتابه (النيل والسودان ومصر) ص ٩٧ .
وتعوم بك شفير في كتابه السودان ج ١ ص ٦٧ .

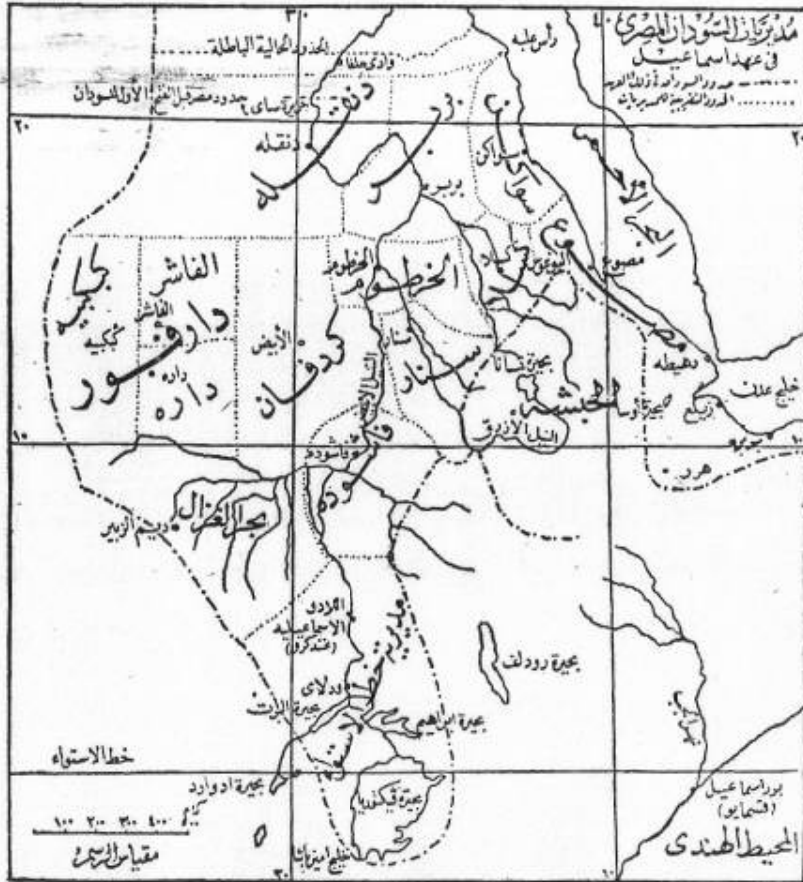
المديرية والمحافظات	العاصمة
مديرية دنقلة	دنقلة
مديرية كسلا أو التاكة	كسلا
مديرية فاشوده	فاشوده
مديرية كردفان	الأبيض
مديرية الفاشر	الفاشر
مديرية داره	داره
مديرية كيبكيه	كيبكيه
مديرية بحر الغزال	ديم الزبير
مديرية خط الاستواء	الإسماعيلية (غندكرو) ثم اللادو ثم ودلاي
	وكانت مقسمة إلى مأموريات لانوكا، وبور، ومكره، ومنبوتو ودلاي، وفويره
محافظه سواكن	سواكن
محافظه مصوع	مصوع
حكمدارية هرر	هرر
محافظه زيلع	زيلع
محافظه بربره	بربره

الجيش المصرى فى السودان

بلغ الجيش المصرى فى السودان على عهد إسماعيل نحو ٣٠ ألف مقاتل موزعين على المراكز الآتية :

دنقلة ، بربر ، الخرطوم ، سنار ، القلابات ، الجيرة . (بالقرب من حدود الحبشة)
القضارف . كسلا ، أميديب ، سنيت ، سواكن . كردفان ، دارفور . بحر الغزال ، خط الاستواء . مصوع ، هرر ، زيلع ، بربره .

(٧٣) ذكرها مسداليا بك مدير دارفور فى عهد غردون باشا فى بحثه للشور بمجلة الجمعية الجغرافية القديوية بمجموعة ٣ عدد ١ (مايو سنة ١٨٨٨) من ٤٦ مع تسمية مديرية كيبكيه باسم كلكل ويوافق التقسيم الوارد فى خريطة مسداليا بك ذاته عن السودان الملحقه بالكتاب الأزرقى الإنجليزى Blue Book سنة ١٨٨٣ ج ١١ ص ٣٨ .



وزرع الدخان في القصارف ، وأنتج صنفاً لا يقل جودة عن دخان الأناصول ، واستعمله المدخنون في جميع نواحي السودان^(٧٥) وأتت أمين بك (باشا) حقولاً للتجارب الزراعية بجوار (الرحاف)^(٧٦) .

وكثير النخيل في دقته ، وزاد محصول التركل سنة ، وكان ينقل إلى بربر والخرموم ومن هناك يرسل إلى أقاصى السودان حتى خط الاستواء والجنبة .

طرق المواصلات

نشطت المواصلات بين مختلف بلدان السودان في عهد الحكم المصرى ، واليك أهم الطرق التى كانت تسلكها القوافل أو السفن^(٧٧) .

- ١- من الخرطوم إلى الأبيض عاصمة كردفان - ١٢ مرحلة بسير القوافل .
- ٢- من الخرطوم إلى القاشر عاصمة دارفور - ٣٢ مرحلة بسير القوافل .
- ٣- من الخرطوم إلى عندكرو (الإسماعيلية) بطريق النيل والمسافة بينها بالبواخر في ثمانية عشر يوماً .
- ٤- من الخرطوم إلى قوز رجب على نهر عطبرة - ست مراحل .
- ٥- من الخرطوم إلى دقته - ٨ مراحل .
- ٦- من الخرطوم إلى أبو حراز فالقصارف وتقطع المسافة بينها في ثلاثة أيام بالبواخر ثم خمسة أخرى على ظهور الجمال .
- ٧- من الخرطوم إلى قوز رجب فكسلا في ثمانية أيام بالجمال .
- ٨- من القصارف إلى القلابات في أربعة أيام على ظهور الجمال .
- ٩- من القصارف إلى (الجيرة) في يوم ونصف على الجمال .
- ١٠- من القصارف إلى كسلا في خمسة أيام بالجمال .

(٧٥) النيل والسودان ومصر للسير شيلر بك ص ١١٥ .

(٧٦) مجلة الجمعية الجغرافية عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص ٣٢ .

(٧٧) كما ذكرها الكولونيل ستوارت في تهريبه النشر بالكتاب الأورق الإنجليزي عن مصر سنة ١٨٨٣ ج ١١

أعمال العمران

بينما في عصر محمد على^(٧٨) ص ١٨٠ وما بعدها طيبة أولى عمران السودان في عهد محمد على ، ثم ذكرنا في الفصل الثاني من كتابنا الحال ما تم على يد سعيد باشا من الإصلاح ، والآن نذكر أعمال العمران التى تمت في عهد إسماعيل ، عدا ما ذكرناه فيما تقدم من البيان .

استتباب الأمن

كان من أول ما عنى به الحكم المصرى في السودان بسط رواق الأمن ، وهو قوام العمران وأساس تقدم الزراعة والتجارة ، ويكتفى دليلاً على فضل الحكم المصرى من هذه الناحية كسيرة صمويل بيكر في هذا الصدد ، قال : « إن السائح الأوروبى يمكنه أن يجوب تلك الأضلاع البعيدة ، دون أن يخشى على نفسه أكثر مما يخشاه من يتتوه بعد غروب الشمس في حديقة هايدبارك بلندن » .

الزراعة

وانشرفت الزراعات الحديثة في أنحاء السودان وخاصة في عهد إسماعيل باشا أيوب ، فقد عمل على توسيع مناطق زرع القطن ، واستقدم لهذا الغرض كثيراً من آلات الري لتوفير المياه اللازمة للقطن ، وأتفق في هذا السبيل أمولا طائلة لشراء الآلات ونقلها عن طريق سواكن ، وأنشأ معملين لطحيد القطن في كسلا والخرموم^(٧٩) ، وكان في نيته إنشاء معمل آخر في (بربر) لكنه فصل عن حكمدارية السودان سنة ١٨٧٦ ، وعين بدله غردون باشا .

وانشرفت زراعة القطن في السودان الشرقى ، وأنشئت أسواق لبيع محصوله في كسلا والقصارف (أوسن) والقلابات ، وصلر لكسلا أهمية تجارية كبيرة لكثرة مزارع القطن حولها ، فضلاً عن موقعها الحرى .

(٧٨) ذكرت الرقاع المصرية عدد ٥٤٨ الصادر في ١٠ مارس سنة ١٨٧٤ وأبور طحيد الأقطان بكسلا . وجاء ذكر وأبور الخرموم في كتاب شيلر بك ، النيل والسودان ومصر ، ص ١٠٥ .

- ١١- من قوز رجب إلى سواكن في أحد عشر يوماً على ظهور الجمال .
- ١٢- من مصوع إلى سببت (عاصمة اليوغوس) في خمسة أيام على الجمال .
- ١٣- من سببت إلى كسلا في سبعة أيام بالجمال .
- ١٤- من غندكرو إلى الدفلاي سيراً على الأقدام في تسعة أيام .
- ١٥- من غندكرو إلى منبوتو في ٣٤ يوماً سيراً على الأقدام .
- ١٦- من غندكرو إلى فويره في ١٨ يوماً سيراً على الأقدام .
- ١٧- من غندكرو إلى لاتوكا في سبعة أيام سيراً على الأقدام .
- ١٨- من غندكرو إلى مكركا في سبعة أيام سيراً على الأقدام .
- ١٩- من الفاشر إلى أسيوط في أربعين يوماً على ظهور الإبل .

المواصلات النيلية ودار الصناعة بالخرطوم

وأصلح مجرى النيل في شلال (عبكه) جنوبي وادي حلفا ، ونسفت الصخور والعقبات التي كانت تعترض السفن فيه ، فصار صالحاً للملاحة النيلية ومرور السفن الشراعية والبواخر ، فسهلت المواصلات بين مصر والسودان^(٧٨) وأزيل جزء من السدود على النيل الأعلى^(٧٩) . وأصلحت ترسانة الخرطوم التي كان إنشاؤها في عهد محمد علي ، وكثرت بها البواخر النيلية ، وبلغ عددها ١٥ باخرة وعدة ذهبيات مصنوعة من الحديد والخشب ، وقد أرسلت هذه البواخر من مصر إلى الخرطوم بطريق النيل عدا الباخرة (الإسماعيلية) التي اتخذها الحكمدارون لركوبهم فإنها نقلت قطعاً مفككة وركبت في ترسانة الخرطوم وانشئت في هذه الترسانة أربع بوآخر جديدة^(٨٠) .

الملاحة البحرية والقنارات

وأنشئ في ميناء (بربره) على خليج عدن لمداية السفن وتسهيل الملاحة . وبني بها أيضاً رصيف لإيواء السفن بمعرفتها .

(٧٨) الوقائع المصرية العدد ٣٦٧ .

(٧٩) الوقائع المصرية العدد ٥٥٢ (٧ أبريل سنة ١٨٧٤) .

(٨٠) شيلو بك ص ١٧١ .

وعهد الخديو إسماعيل سنة ١٨٧٨ إلى الكولونل جريفز Graives والقائم مقام محمد مختار بك (باشا) ارتياد شواطئ الشمال تسعة لمصر والواقعة على المحيط الهندي لاختيار موقع يقام فيه فنار يرشد السفن في ضيقه بين المحيط وخليج عدن . وقد اضطلع بهذه المهمة وخطط القائم مقام مختار بك خريضة هذه الجهة ومكان الفنار . وهو يقع على بعد ثمانية أميال جنوبي رأس جردفون (جردفوي)^(٨١) وعلى مسافة ثمانمائة متر من مصب نهر صغير يجري فيه الماء العذب بواد يعرف بوادي الشخوم ولكن الفنار لم ينشأ ، لانتهاء حكم إسماعيل في يونيه سنة ١٨٧٩ .

وتجهد بالصفحة الآتية خريضة رأس جردفون وموقع الفنار الذي كان مزماً بإنشاؤه كما خططها القائم مقام محمد مختار بك .

مشروع السكة الحديدية

وعهد الخديو إسماعيل إلى جماعة من المهندسين تخطيط السكة الحديدية التي تصل السودان بمصر .

وشرع في مد الخط الحديدى على طول النيل من وادى حلفا إلى (حنك) ، وأتفق في ذلك نحو ٤٠٠ ألف جنيه ، ومد من الخط نحو ٥٧ كيلومتراً فقط من وادى حلفا ، ومهد الطريق على بعد ٤٧ كيلومتراً أخرى ، ثم وقف العمل سنة ١٨٧٨ بسبب ارتباك الحكومة المالى .

المدارس

وأنشئت بعض المدارس لتهديب الأهلين وتنقيفهم ، وعهد بالتدريس فيها إلى المتخرجين من مدرسة الخرطوم التي أنشئت في عهد عباس الأول .

وقد رأينا في (الوقائع المصرية)^(٨٢) وصف احتفال فخم أقامته مدرسة (بربر) الابتدائية . بمناسبة امتحانها النهائى ، أشد فيه نجباء التلاميذ القصائد المنظومة ، وتم الاحتفال

(٨١) النظر مجلة الجمعية الجغرافية بمصر ١ عدد ٩ (أغسطس - نوفمبر سنة ١٨٨٠ ص ٢٩) .

(٨٢) العدد ٦١١ - ٢٠ يونيه سنة ١٨٧٥ .

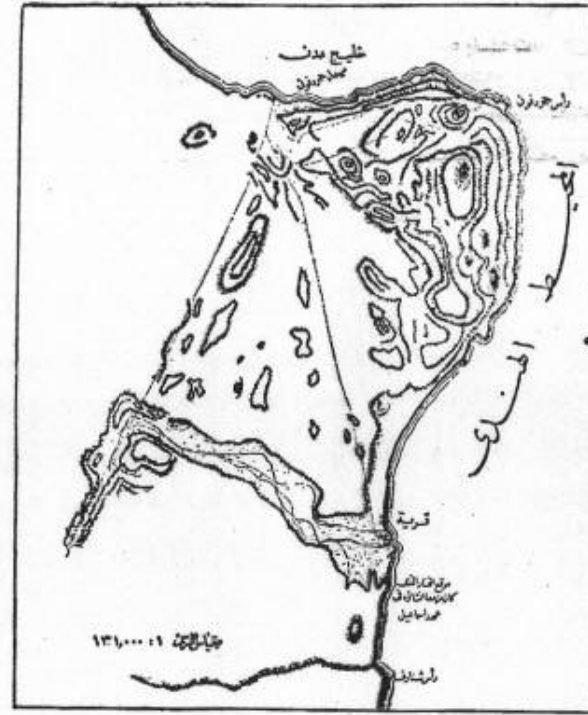
التجارة

بسط الحكم المصري رواق الأمن في السودان ، فنشطت حركة التجارة في بلدانه ، واتسع نطاق المواصلات التجارية بينه وبين مصر ، وانشئت فيه بيوت تجارية كبيرة تتولى إصدار متاجر السودان إلى مصر وأوروبا وتجلب إلى السودان واردات أوروبا ومصر ، وقد أثرت هذه البيوت ، وصار لها شأن يذكر ، وأكبرها بيت السيد أحمد العقاد ، وبيت على أبي عموري ، وفرج الله الموصلي ، والحواجة غطاس ، وجيليو ، وامروز وغيرهم ، وقد مد هؤلاء تجارتهم إلى أقصى السودان ، وصار لكل منهم قوة مسلحة من السودانيين ، وأماكن للتجارة في مختلف الجهات تسمى «مشارع» ، يقيمونها على شكل مربع من عروق الأشجار ، ويقم التاجر أو كيله فيها بحراسة رجاله المسلحين ، ول هؤلاء الحراس مهمة أخرى ، وهي اقتناص الرقيق للتجارة بهم في أسواق مصر ، وقد درت عليهم تجارة الرقيق ثروات كبيرة لما فيها من الأرباح الطائلة ، وما يدل على اتساع نفوذ هذه البيوت التجارية أن (الزبير باشا) الذي صار له شأن كبير في السودان كان في بداية أمره وكيل بيت على أبي عموري .

ولما اعترم الخديو إسماعيل منع تجارة الرقيق عهد إلى ولاية السودان الاتفاق مع أصحاب «المشارع» على أن يتخلوا عنها للحكومة مقابل تعريضات تدفع إليهم . وكانت هذه البيوت تتولى إصدار متاجر السودان ، كالعاج ، وريش النعام ، والتبر ، والصمغ ، والجلود ، والغنم ، والمواشي ، والتمر الهندي ، والبن ، والكحل ، وقرن الخريت ، وما إلى ذلك .

وظلت التجارة مزدهرة في ظل الحكم المصري ، وبلغ عدد البيوت التجارية المملوكة للمصريين في السودان ثلاثة آلاف بيت ، والمملوكة للأوروبيين ألف بيت ، وبلغت واردات السودان في السنة مليونين من الجنيهات وصادراته تعادل هذا القدر^(٨٤) .

(٨٤) عن بيان قدمه التجار الوطنيون والأجانب في مصر احتجاجاً على إخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، وضحا فيه أن إخلاء يؤدي إلى يوار متاجرهم فيه (كوشري - المركز الدولي لمصر والسودان ص ٢٨٦) .



رأس جردقون - جردقوى

وكان من أملاك مصر على المحيط الهندي في عهد الخديو إسماعيل ، وترى موقع القنار الذي اعترم إسماعيل باشا إنشائه سنة ١٨٧٧ وهذه الخريطة مصفورة عن خريطة وضعها بالفرنسية اللواء محمد مختار باشا ونشرت في مجلة الجمعية الجغرافية سنة ١٨٨٠ .

على نظام الحفلات المدرسية في عهد إسماعيل .

وأنشأ أمين بك (باشا) في اللاذقية عاصمة مديرية خط الاستواء مدرسة لتعليم أبناء الأهلين ومستشفى ومسجداً^(٨٣) .

(٨٣) مجلة الجمعية الجغرافية - عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص ٣٢ .

البريد

عهد الخديو إسماعيل إلى موتشى بك مدير مصلحة البريد المصرية إنشاء مكاتب منتظمة للبريد في عواصم السودان ، فصدع بالأمر وأنشأ بها عدة مكاتب ، وأنشئت إدارة للبريد في الخرطوم سنة ١٨٧٣ احتفل بافتتاحها احتفالا فخماً^(٨٥) .
وأنشئت مكاتب منتظمة للبريد في الخرطوم ، ودنقلة ، وبربر ، وكسلا ، وفتحت أيضاً مكاتب أخرى في سنار ، والمسلمية ، والقضارف ، وفازوغلى ، وكرجوع ، وفاشوده ، والأبيض ، والقاشر ، وبقيت هذه المكاتب تؤدي مهمتها ، إلى أن تعطلت بعد شوب الثورة المهديّة سنة ١٨٨٣ ، وظل مكتب الخرطوم مفتوحاً إلى أن سقطت المدينة في أيدي الثوار سنة ١٨٨٥ .

التلغرافات

بلغت الخطوط التلغرافية التي انشئت في السودان لغاية سنة ١٨٧٠ ، ٢١١٠ كيلومتر ، وبلغ عدد مكاتب التلغراف في مدن السودان ٢١ مكباً ، وذلك سنة ١٨٧٧ .
وهاك بيان الخطوط التلغرافية والمدن التي وصلت بينها^(٨٦) .

- ١ - مصر - دنقلة - بربر - الخرطوم .
- ٢ - الخرطوم - أبو قراد - الأبيض - فوجه .
- ٣ - الخرطوم - أبو حراز - المسلمية - سنار - فازوغلى .
- ٤ - المسلمية - الكوه .
- ٥ - أبو حراز - القضارف - كسلا - سنهت - مصوع .
- ٦ - كسلا - قوز رجب (على نهر عطبرة) - بربر .
- ٧ - سواكن - كسلا .

(٨٥) الوقائع المصرية العدد ٥٤٨ (١٠ مارس سنة ١٨٧٤) .

(٨٦) تقرير الكولونيل سنوارت عن السودان المنشور في الكتاب الأزرق الإنجليزي Blue Book عن مصر سنة ١٨٨٣ ج ١١ ص ٨ .

٨ - القضارف - دوكة - جنوبي القضارف - القلابات .

٩ - القضارف - الجيزة (بالقرب من حدود الحبشة) .

وكان مركز هذه الخطوط في الخرطوم وقد ظلت قائمة إلى أن عطلت في عهد الثورة المهديّة .

ميزانية السودان

ذكر غردون باشا في رسالته « ص ٢٨١ » أن ميزانية السودان سنة ١٨٧٨ . تتألف من الأرقام الآتية :

٣٢٧,٠٠٠ جنيه دين السودان .

٥٧٩,٠٠٠ جنيه إيرادات الحكومة .

٦٥١,٠٠٠ جنيه مصروفاتها .

٠٧٢,٠٠٠ جنيه العجز .

الرحلات والبعثات الجغرافية

إن بسط سيادة مصر وسلطانها على وادي النيل قد مهد الطريق للاكتشافات والتحقيقات الجغرافية والعلمية في أرجاء السودان ، فحفل عصر إسماعيل بالبعثات والحملات التي أنفذها الخديو لهذا الغرض على نفقة الحكومة المصرية ، وقوامها ضباط أركان حرب الجيش المصري . فكان لهم الفضل الكبير في مدرواق الحكم المصري ، ونشر لواء الحضارة في السودان ، ولهم فضل لا ينكر في تقدم علم الجغرافيا والاكتشافات ، بما أضافوا إليها من الحقائق الهامة ، والبيانات المبتكرة ، والحرائط والرسوم الدقيقة .
وإنا ذاكرون بالفخر والإعجاب موجز أعمال هذه البعثات والحملات المصرية ، وما وصلت إليه من الاكتشافات الجغرافية .

فأول هذه البعثات حملة صمويل بيكر باشا إلى منابع النيل وقد أسلفنا الكلام عنها .
وفي سنة ١٨٧١ قامت بعثة برئاسة الأميرالاي (بوردي بك) Purdy أحد ضباط أركان حرب الأمريكان في الجيش المصري ومعه طائفة من الضباط المصريين ، فجابوا

الجهات الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، من القاهرة والسويس شمالاً، إلى قنا والقصر جنوباً، واكتشفوا طرق المواصلات ومناجم المعادن والحاجر في تلك الجهات. وفي سنة ١٨٧٣ سار الأميرالاي بوردي بك بحراً إلى موقع برنيس (برنيقه) القديمة على البحر الأحمر (غربى رأس بناس) ولحقه بها الأميرالاي كولستن Colston أحد الضباط الأمريكان في الجيش المصرى من طريق قنا براً، وخططا الجهات المقفرة الواقعة بين برنيس و(بربر) على النيل وقضيا في هذه المهمة نيفا وسبعة أشهر^(٨٧).

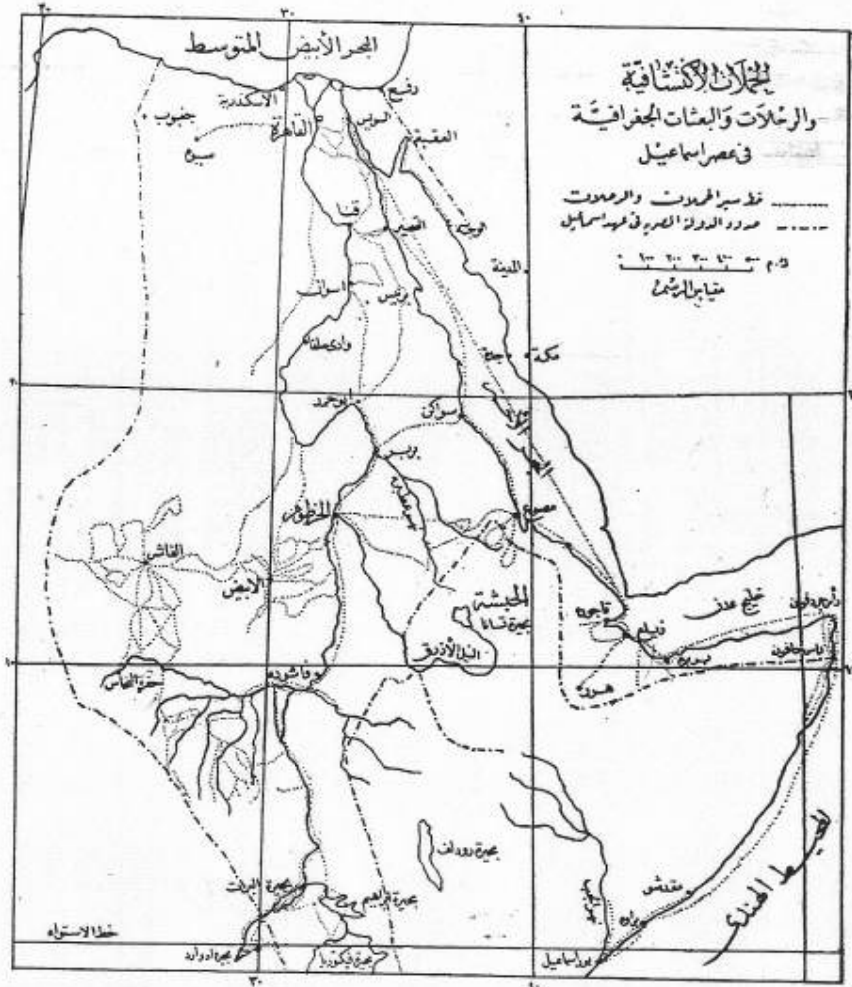
وفي سنة ١٨٧٤ اكتشف الأميرالاي شاني لونج بك Chaille Long بحيرة إبراهيم كما بيثا في موضعه، واكتشف معظم مجرى النيل المعروف بنيل فيكتوريا، وحقق نقطة كانت غامضة وهى أن نيل فيكتوريا يصب في بحيرة ألبرت، ورسم الطريق بين اللادو وبكره جنوبى بحر الغزال.

وبعد أن تم فتح دارفور سنة ١٨٧٤ أنقذ الحديد ثلاث بعثات كبرى مؤلفة من ضباط أركان الحرب لاكتشاف جهات كردفان ودارفور.

البعثة الأولى: برآسة الأميرالاي بوردي بك، ومن أعضائها القائم مقام ميزون بك Maison من الضباط الأمريكان في الجيش المصرى، والملازمون محمود أفندى صبرى (باشا)، ومحمد أفندى سامى، وسعيد أفندى نصر (باشا)، وخليلى أفندى حلمى، والدكتور محمد أفندى أمين، ومهمتها اكتشاف جهات دارفور، فكشفت المواقع وطرق المواصلات بين النيل و(حفرة النحاس) بأقصى حدود دارفور جنوباً بغرب^(٨٨)، وجابت أرجاء هذا الإقليم العظيم، وكشفت من الطرق ما طوله ٦٥٠٠ ميل، وحققت ٢٢ موقعاً من المواقع الفلكية، ورسمت خريطة دقيقة لهذه البلاد.

والبعثة الثانية: برآسة الأميرالاي كلستون، ومن أعضائها الصاغ أحمد أفندى حمدى (باشا) والأميرالاي بروت Prout من الضباط الأمريكان في الجيش المصرى، والملازمون عمر أفندى رشدى (باشا)، ومحمد أفندى ماهر (باشا)، ويوسف أفندى

(٨٧) راجع تقرير الأميرالاي بوردي عن هذه الرحلة في مجلة الجمعية الجغرافية بمجموعة ثمره عدد ٨ ص ٤٣٦، وتقرير الأميرالاي كولستن بأخلة المذكورة بمجموعة ثمره ٢ عدد ٩ (أغسطس سنة ١٨٨٦) ص ٤٨٩، وبحث الأستاذ كورا عن رحلة كولستن من قنا إلى برنيس وخريطة الرحلة في مجلة الجمعية بمجموعة ٣ عدد ٧ (سبتمبر سنة ١٨٩١) ص ٥٢٣.
(٨٨) راجع بحث الأميرالاي (اللواء) بوردي باشا عن هذه البعثة بمجلة الجمعية الجغرافية بمجموعة ٨ عدد ٨ (مايو سنة ١٨٨٠) ص ٥ وخريطة الملحق بهذا العدد.



وفي سنة ١٨٧٧ جاب الأميرالاي ميزون بك Maison بحيرة (أبوت) وأم الاكتشاف الذي بدأه فيها السير صمويل بيكر ووضع خا خريطة دقيقة^(٩١) وأخذ الخلبو سنة ١٨٧٧ بنة براسة المستربرتون لاكتشاف المعادن التي يجمات (مدين) بجزيرة العرب .

وحقق ضباط أركان الحرب براسة الكباشي عبد الله بك فوزي (باشا) حادود الحبشة الشمالية والطرق بين مصوع والخرطوم ورسنوا خريطةها .

وحقق جيسي باشا مواقع بحر الغزال .
وجاب الأميرالاي محمد مختار بك (باشا) نواحي السودان الشرق حين كان رئيساً لأركان حرب السودان سنة ١٨٨٠ بصحبه من ضباط أركان الحرب خليل بك فوزي واللزامان محمد خير الله وعلى خيرى ، وله مبحث مسهب في تخطيط أبو حراز ، والقضارف (أبوسن) ، والقلايات ، وطومات ، وأميديب وغيرها من مدن السودان الشرق^(٩٢) .

واكتشف أمين باشا مدير خط الاستواء نهر السليكي الواصل بين بحيرة ابوارد وبحيرة ألبرت .

ورسم ضباط أركان حرب الجيش المصرى سنة ١٨٧٧ خريطة لأفريقية ، وهى أدق خريطة عرفت إلى ذلك الحين . اشترك في رسمها كل من الأميرالاي لوكت **Lochett** ، والقائمقام محمد مختار بك (باشا) . والصاغ عبد الله بك فوزي ، وعبد الرزاق بك نظفى ، والقضايب محمود صبرى (باشا) ، وأحمد فاتح (باشا) ، ومصطفى كامل ، وأحمد فهمى ، وحسن حارس (باشا) ، وحسن صفوت ، وإبراهيم حلمى ، ومحمد جودت ، ومحمد خير الله ، ويوسف ضيا (باشا) ، وعلى حيدر (باشا) ، وأحمد رشيد .

وهذه الخريطة مودعة ضمن محفوظات الجمعية الجغرافية الملكية .
ذكر الجنرال استون باشا رئيس حرب الجيش المصرى في عهد إسماعيل أن الجهات التي جابها ضباط أركان الحرب وحققوها ، ورسنوا مواقعها ، تبلغ في اتساع مداها مجموع مساحة فرنسا وألمانيا والنمسا وانجر^(٩٣) مجدودها القديمة ، هذا يدل على عظم الاكتشافات

(٩١) مجلة الجمعية الجغرافية عمود ١ عدد ٥ (مايو سنة ١٨٧٧ - فبراير سنة ١٨٧٨) ص ٥ .

(٩٢) مجلة الجمعية الجغرافية عمود ١ عدد ١١ (فبراير سنة ١٨٨١) ص ٥ .

(٩٣) الرحلات المصرية في أفريقيا للجنرال استون باشا - مجلة الجمعية الجغرافية عمود ٢ عدد ٧ (مايو ١٨٨٥)

حسى . وبخيل أفندى فوزى . والدكتور بغوند Pfund العالم الطبيعى ، وقد اكتشفت حيث كردون . وحقت مواقعها ومدنها وطرق المواصلات فيها ، ورسمت خريطة دقيقة عد . ومرض رئيس هذه البعة خلال الرحلة فتول الراسة بدله الأميرالاي بروت .

وقضى غشاء البعثن ثلاث سنوات يقظون المراحل ويطورون القداقد ويستهدفون بحسب الغيبة في سبل الامتلاخ بمهمته .

والبعثة الثالثة : براسة المهندس الأمريكى مثل Michel^(٩٤) يصحبه الضابط عبد الفتاح أفندى فضي لاكتشاف المعادن بين النيل والبحر الأحمر ، وقد كشفت هذه البعة منجم للذهب في (الحمامة) شمال قنا ، ثم عرجت بتفوز البحر الأحمر وتخليج عدن ، كالتقصير . ومصوع ، وتاجوره ، وزيلج ، وأوغلت في الداخل ، ثم عادت إلى مصوع وكشفت الجهات الشرقية من الحبشة .

ورسم أرنست ليان دى بلتون (ابن ليان باشا) الطريق بين غداكرو ودوباجا عاصمة أوغنده ، وقد قل وهو عائد من مهمته ، ومن بياناته وضع العلامة جورج شونرت خريطة عن تلك الجهات .

ورسم الكباشي محمد أفندى عزت أحد ضباط متجنر باشا خريطة الجهات الواقعة بين تاجوره وبحيرة أوساء بالحبشة .

ورسم محمد مختار بك (باشا) وعبد الله بك فوزي (باشا) خريطة بلاد هرر ، ورسم الأول خريطة المدينة ، ووضع خريطة أخرى لرأس جردفون^(٩٥) (جردفوى) وموقع الفئار الذي أزعج إسماعيل إنشاهه في تلك الجهة كما تقدم بيانه .

ورسم ضباط أركان حرب ناضى باشا الجهات الواقعة بين هرر وزيلج .
ووضع القائمقام عبد الرزاق بك نظفى خريطة بروره وملحقاتها .

وكشفت حملة السومال التي أنفذها إسماعيل سنة ١٨٧٥ سواحل البلاد الواقعة على المحيط هداى وجهات قساير (بور إسماعيل) ونهر الجوبا . وهى الجهات التي قصدت إليها الحملة كما فصلناه في موضعه .

(٩٤) عام في طبقات الأرض وهندس نامم وكان لمطابقاً باسم أركان حرب الجيش القصرى وتجد تقريره عن هذه

بعت في مجلة الجمعية الجغرافية الجغرافية عمود ١ عدد ٦ (أكتوبر سنة ١٨٧٨) ص ٧ و ١٥ .

(٩٥) الاسم الصحيح (جردفون) كما حقق العلامة أحمد زكى باشا .

والتحقيقات التي تمت على أيديهم .

وقد ضاع كثير من مباحث هذه البعثات ، لأن الاحتلال الإنجليزي نعد أن يبدد أعمالها وخرايطها ومجاميعها النفيسة ، وذلك لكي يقطع الصلة بين جيشنا القديم المجيد بالجيش الذي ألفه الإنجليزي بعد الاحتلال ، على أن المباحث الباقية لأعضاء هذه البعثات تسجل لضباط الجيش المصري أجل الخدمات للعلم والحضارة والعمران ، فإن الاكتشافات والحملات البعيدة المدى التي اضطلعوا بها جديرة بأن تعد من مفاخر تاريخنا القومي ، ومن الصفحات المشرفة في تاريخ الجيش المصري والضباط المصريين .

الحكم المصري في السودان وشهادة الثقافات من الأجانب

ذكرنا في كتاب « عصر محمد علي » (ص ١٨٣ من الطبعة الأولى) أقوال الثقافات من الأجانب فيما بلغه السودان من العمران على عهد محمد علي .

والآن نذكر ما شهدوا به عن عمران السوداني على عهد خلفائه وخاصة في عصر إسماعيل .

قال السير صمويل بيكر سنة ١٨٧٣ في كتابه (الإسماعيلية) : « أن مصر وحدها هي التي تستطيع تمدين أفريقية النيلية بإنشاء حكومة نظامية ، وحسبنا أن تمد حدودها إلى خط الاستواء ، وبذلك تضمن حياة السائح في تلك الأقطار ، واليوم قد أصبح امتداد حدودها الجنوبية إلى خط الاستواء أمراً واقعاً ، فانفتحت أفريقية الوسطى للحضارة والعمران » (٩٤) .

وقال المسيو سوتزارا Suzzara فنصل النمسا على عهد إسماعيل : « إذا علنا ما كانت عليه الشعوب في تلك الأقطار من الحمجية ، وجب علينا أن نعد خضوعها لسلطة الخديو تدرجا نحو التقدم ، فإن هذه الشعوب أخذت تألف الإدارة المنتظمة القائمة على قواعد الاستقرار والنظام ، ومن جهة أخرى فإن الأقطار السودانية التي كانت مغلقة قد فتحت للتجارة والرحلات ، مما مهد السبيل لدخول الحضارة إليها » (٩٥) .

وقال رودلف سلاطين (باشا) في كتابه (النار والسيوف في السودان) الذي وضعه سنة

(٩٤) الإسماعيلية للسير صمويل بيكر ص ٤١٢ .

(٩٥) تقرير سوتزارا المنشور في مجلة Revue d'Egypte للمسيو جالاردو بك عدد مارس سنة ١٨٩٦ ص ٦٢٩ .

١٨٩٥ عقب خلاصه من أسر التعايشي (٩٦) .

« إن السودان المصري يحكمه الآن (سنة ١٨٩٥) الخليفة عبد الله التعايشي : الرئيس المستبد لدعاة المهدي ، وقد كانت السنوات العشر من حكم المهديين كافية لنشر العبودية في نواحيه ، ومن الحق أن نقول إن السودان ظل سبعين سنة ونيفاً ، منذ عهد محمد علي مستظلاً بالحكم المصري ، مفتوحاً للحضارة والمدنية ، والمتاجر المصرية والأوروبية تزدهر في عواصمه ، والدول الأجنبية توفد قناصلها إلى الخرطوم ، والسائحون على اختلاف أجناسهم يجوبون خلال البلاد ، دون أن يلقوا بممانعة ، بل كانوا يلقون عطفاً ورعاية من ولاة الأمور ، وانتظمت طرق المواصلات والتلغرافات وإدارة البريد ، فسهلت الاتصال بين أرجاء السودان القاصية ، وأدى الناس الشعائر الدينية بملء الحرية سواء في المساجد أو الكنائس ، وقامت مدارس البعثات إلى جانب مدارس الحكومة ، وعلى الرغم من تعدد القبائل التي تسكن السودان وما كان بينها من العداة ، وتحفزها للاقتتال ، فإن حزم الحكومة وسطوتها كانا كافيين لتوطيد دعائم الأمن والسلام في مختلف أصقاعه » .

وقال في موضع آخر يصف تبدل الحال بعد غلبة الثورة المهديّة :

« لقد شهدنا في السودان منظرًا محزنًا ، إذ رأينا الحضارة الجديدة التي دخلت مع الحكم المصري ، تتداعى أركانها ويندك صرحها بأيدي أقوام جهلاء بكادون يكونون من الهمج ، فأسسوا على أنقاض هذه الحضارة حكومة وضعوا لها نظاماً يشبه في بعض أشكاله نظم الحكم المصري ، ولكنهم قضوا على ما ازدان به من العدل والتهديب ، فأقاموا في السودان صرح الظلم والانهطاط ، ولا يكاد المرء يشهد في التاريخ الحديث بلاداً أخرى سادت فيها الحضارة الناشئة زهاء نصف قرن من الزمان ، ثم انقلبت إلى حالة أقرب ما تكون إلى الحمجية ، فإن الخليفة والقبائل التي تناصره ، بعد أن اغتصبوا سلطة الحكم وانتزعوها من أيدي المصريين ، يحكمون الآن الأهلين التعماء حكماً جائراً ، ويسوقونهم بعضاً من حديد ، ويسومونهم من الحسف والنكال ما جعلهم يتوقفون إلى التخلص من هذه الدولة ويتطلعون إلى حكومة يحدون في ظلها الراحة والسلام ، وليس أدل على مبلغ ما عاناه السودان في عهد المهديين أكثر من فناء ما يقرب من ثلاثة أرباع أهله ، ممن اجتاحتهم الحروب والمجاعات ، والأمراض المختلفة . والتفتيل والتنكيل » .

(٩٦) النار والسيوف في السودان . النسخة الفرنسية ج ٢ ص ١٨٤ وما بعدها .

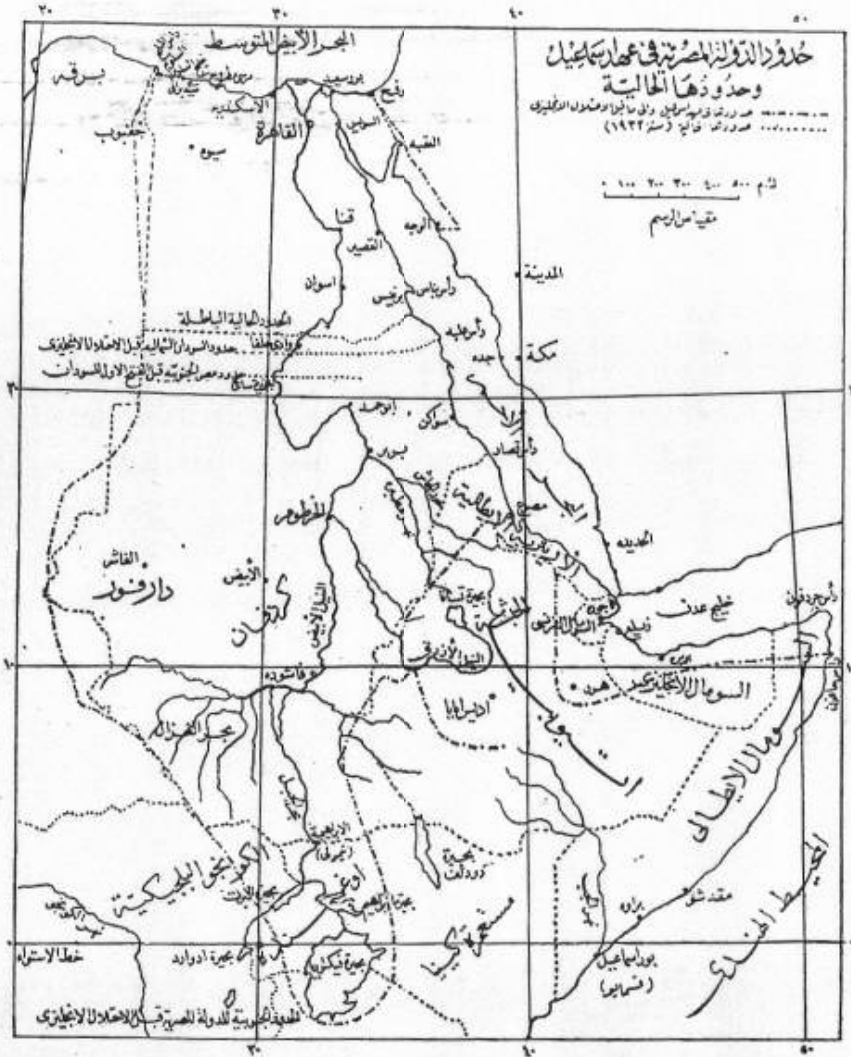
وقال في موضع آخر : « لقد بعد العهد بحالة السودان تحت حكم إسماعيل ، إذ كانت الحكومة المصرية تحمل في ربوعه لواء الحضارة والمدنية ، على حين كانت البقاع الخارجة عن منطقة النفوذ المصرى في حالة الانحطاط والتأخر ، فالسودان بعد أن دخلته الحضارة في ظل الحكم المصرى قد تطرقت إليه الحمجية على عهد المهديين » .
 وقال ما يأتى عن ارتباط السودان بمصر ، مما يجدر بنا أن نذكره « على الدوام وتتخذة عبرة وعظة لنا وقاعدة لا تتبدل لسياستنا في السودان :

« أرى واجباً على أن أبين وجهة نظرى في أهمية السودان وقيمته لمصر ، وأبدي الرأى الذى ثبت في قرارة نفسى فأقول ، إن الأسباب التى دعت محمد على منذ خمس وسبعين سنة إلى امتلاك السودان لا تزال قائمة إلى اليوم ، فالسودان هو مصدر الحياة لمصر ، وكل جهودها يجب أن تتجه إلى صيانة وادى النيل من أبة غارة أجنبية ، فإن كل خطوة تحطرها دولة أخرى نحو النيل ينظر إليها بعين الفرع من كل من يقدر خطر السيطرة الأجنبية على ذلك النهر العظيم وما تجره من تضحية سعادة مصر وتقدمها وتعريضها لأعظم المضار » .

حدود السودان المصرى أمس واليوم

اكتمل الفتح المصرى في السودان وبلغت الدولة المصرية حدودها الطبيعية على عهد إسماعيل ، فشملت جنوباً بحيرة ألبرت وبحيرة فيكتوريا والبلاد التى بينها ، إذ ضمت مملكة أونبورو وسطت حمايتها على مملكة أوغنده ، وبلغت شرقاً سواحل البحر الأحمر وخليج عدن ، ووصلت حدودها الجنوبية الشرقية إلى المحيط الهندي ، وضمت إليها في هذه النواحي سواكن ومصوع وزيلع وبربره وهرر وسواحل السومال الشمالية ، وصارت جميع شواطئ البحر الأحمر الغربية من السويس شمالاً إلى بوغاز باب المندب جنوباً ملكاً لمصر وامتدت سلطتها إلى شواطئ خليج عدن ، من بوغاز باب المندب إلى رأس جردفون (جردفوى) ثم إلى رأس حافون الواقعين على المحيط الهندي . وبلغت حدود الدولة المصرية غرباً إلى مملكة واداي الواقعة غربى درافور .

وإليك ما ذكره الكولونل ستوارت Stewart عن حدود السودان المصرى سنة ١٨٨٢ ، في تقريره الذى قدمه إلى البرلمان البريطانى سنة ١٨٨٣ (بعد الاحتلال الإنجليزي)



سنة وبنيت فيها لواء الأمن والحضارة والعمارة . وبنيت فيها ما بنيت من الجهود والأرواح والقضحايا والأمور .

وتراجع الحد بين مصر والسودان ، فصار ينهى عند الخط ٢٢ من خطوط العرض ، وأصبح حد السودان الشبان يبدأ عند (فوس) شمال وادي حلفا ، بعد أن كان الحد الجنوبي لمصر قبل الفتح الأول للسودان (في عهد محمد علي) يصل إلى جزيرة (ساي) جنوبي وادي حلفا ، وكان ينهى قبل الاحتلال الإنجليزي عند « سرس » جنوبي وادي حلفا أيضاً . وصارت سواكن . وودادى حلفا وما يليها جنوباً . تابعة لإدارة السودان المشتركة بمقتضى

الاتفاق الباطل للبرم في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ .

• • •

وهو يقرب من التحديد الذي ذكرناه ، قال :

« تبدأ حدود السودان المصري من ضواحي برنيس على البحر الأحمر (صحح من رأس عليه) ، وتتبع الخط ٢٤ من خطوط العرض الشبان إلى نقطة غير معينة في جوف الصحراء اللبية ، بالقرب من الخط ٢٨ من خطوط الطول . ومن هناك يتجه الحد جنوباً غرب ، حتى ينلق بالركن الشمالي الغربي من دارفور حيث الخط ٢٣ من خطوط الطول ، ثم يتجه جنوباً حتى يصل إلى ما بين الخط ١١ - ١٢ من خطوط العرض ، ثم جنوباً بشرق ماراً بمونبوتو وبحيرة البرت إلى أن يتصل بحيرة فيكتوريا ، ومن هناك يصعد شمالاً بشرق ويشمل إقليم هرر ، ثم يصل إلى شواطئ المحيط الهندي عند رأس جردفون (جردفوى) ، ومن ثم يعود عادياً الشاطئ ، حتى يصل إلى برنيس » (١٧) .

ومعنى ذلك أن جميع سواحل البحر الأحمر الغربية وسواحل السودان الشمالية الواقعة على خليج عدن كانت من أملاك مصر ، وقد ألحق الكولونيل ستوارت بتقرير ، خريطة مسداليا بك (مدير دارفور) عن السودان بهذه الحدود ، وهي منشورة في الكتاب الأزرق المتقدم ذكره ص ٣٨ .

وغير خاف أن هذه الحدود قد تراجمت بعد الثورة المهدي والاحتلال الإنجليزي ، إذ توأمت إنجلترا مع الدول الأخرى على انقراض مصر من أطرافها ، فاحتلت إنجلترا أوغنده وأونديرو ومنطقة البحيرات والجزء الجنوبي كله من مديرية خط الاستواء ، وصار الحد الجنوبي للسودان ينهى الآن عند نيمول (الإبراهيمية) بعد أن كان يشمل بحيرة فيكتوريا وبحيرة البرت ، واغتصبت إنجلترا أيضاً محافظتي زيلع وبربره ، وأخذت إيطاليا مصوغ والاريزيه ورأس جردفون (جردفوى) ، وفرنسا تاجوره وجيون ، والحجسة بلاد هرر وبني شنتول من أعمال فازوغل .

ولم تكف إنجلترا بالتآمر على أقسام أسلاب الإمبراطورية الإفريقية العظيمة التي أسسها مصر بدمائها وأموالها وجهودها ، بل شاركت مصر في سيادتها على السودان باتفاق ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ . ذلك الاتفاق الباطل الذي جعل السودان شركة بين مصر وإنجلترا ، واتخذته هذه سيلاً إلى الانفراء بحكم السودان ، وإقصاء نفوذ مصر الشرعي عن بلاد فتحها منذ مائة

(١٧) الكتاب الأزرق الإنجليزي عن مصر سنة ١٨٨٢ ج ١١ ص ٦ .

الفصل السادس

الجيش

خلاصة تاريخ الجيش في عهد إسماعيل أنه عني بتربيته وتنظيمه ومضاعفة قوته ، والوصول به إلى مستوى الجيوش الكبيرة للأمم الحديثة ، وعني أيضاً بنهضة التعليم الحربي ، فأنشأ المدارس الحربية على أرقى طراز حديث ، واختار لها أكفأ المدرسين والضباط ، وأحسن المناهج الدراسية ، فكان التقدم في نظام الجيش يسير مطرداً مع تجديد التعليم في المدارس الحربية .

ولكنه في السنوات الأخيرة من حكمه أهمل شؤون الجيش جملة واحدة ، فاختل نظامه ، ثم أقفل معظم المدارس الحربية التي أنشأها ، وذلك لتضروب معين المال ، وارتباك أحوال الحكومة بسبب فداحة الديون التي اقترضها من غير حساب ، بحيث لم ينته عهده حتى كان الجيش المصري قد وصل إلى درجة محزنة من الضعف والارتباك .

تلك كلمة إجمالية عن حالة الجيش والمدارس الحربية في عصر إسماعيل ، فالشطر الأول من ذلك العصر هو دور التقدم ، والشطر الثاني يمثل عهد التأخر والاضمحلال .

ففي الشطر الأول بذل الخديو جهوداً كبرى ل تنظيم الجيش ، وأرسل إلى فرنسا بعثة حربية يتألف من خمسة عشر ضابطاً من خيرة ضباط الجيش^(١) ليقضوا زمناً في مشاهدة نظام الجيش الفرنسي ، واقتباس خبرة قواده وضباطه ، فأبحرت هذه البعثة على ظهر السفينة الحربية المصرية « شير جهاد » وأقلتهم إلى فرنسا . فاستقبلتهم الحكومة الفرنسية بالحفاوة ، ودرسوا النظم العسكرية الفرنسية والاستحكامات والمناررات العمومية ، وغير ذلك من فنون الحرب والقتال . وجمعوا طائفة من المؤلفات الحربية المشتملة على أساليب الجيش الفرنسي ونظاماته ،

(١) ذكرهم إسماعيل باشا سرهنتك في كتابه ج ٢ ص ٢٠٨ وهم : شاهين باشا ، إبراهيم باشا السوارى ، علي بك رضا الطريحي ، علي بك وهبي . يوسف بك صديق ، محمد بك رضا ، محمود بك سامي ، إسماعيل بك أيوب ، عبد القادر بك حلي ، مصطفى بك فهمي ، عثمان بك غالب ، أحمد أفندي حمدي ، حسن أفندي مظهر ، محمد أفندي .

وعادوا بها ليطبقوها في مصر، وأخذ الخديو إسماعيل في تنظيم الجيش على نظام الجيش الفرنسي الحديث.

ولم يكف بذلك بل أحضر من فرنسا بعثة حربية مؤلفة من بعض الضباط الفرنسيين لتنظيم المدارس الحربية المصرية، فجاءت هذه البعثة إلى مصر سنة ١٨٦٤ برآسة الكولونل مرشر (بك) Mircher ومعه ثلاثة ضباط آخرون وهم رباتيل Rebatal ولارمي (باشا) Larmec، وبولار Polard، وألحق بهم الضابط دويرناردى بك الذى كان يخدم الحكومة من عهد سعيد باشا، فتولى هؤلاء الضباط نظارة بعض المدارس الحربية ونظموا شئونها.

ولما شرع إسماعيل في تنظيم التعليم الحربي نقل المدرسة الحربية التى كانت بالقناطر الخيرية إلى قصر النيل ثم إلى العباسية، وأنشأ بهذه الجهة عدة مدارس حربية أخرى بدل المدارس التى أنشئت في عهد محمد على وعفا أثرها، واختار جهة العباسية لقربها من الصحراء حيث يسهل على التلاميذ القيام بالتمريبات الحربية وضرب النار، ولأنه كان بها السراى الفخمة التى أنشأها عباس باشا الأول، وتقدم الكلام عنها، والمباني الملحقة بها، وكانت تصلح مقرًا للمدارس والمعاهد والثكنات.

وجعل لهذه المدارس إدارة واحدة تدعى «إدارة المدارس الحربية».

وفيما يلي بيان المدارس الحربية التى أنشأها الخديو بالعباسية في أوائل حكمه:

١- مدرسة البيادة (المشاة) أنشأها سنة ١٨٦٤، وكان عدد تلاميذها حين تأسيسها ٤٩٠ تلميذ، وتولى نظارتها محمد أمين بك، ثم دى برنارى بك، ثم منصور أفندى حسن، ثم محمد رعنا أفندى، ثم جعل لها مديرى إدارة وهم على التعاقب: محمد كامل أفندى، ثم إبراهيم عاصم أفندى، ثم محمد صالح أفندى.

٢- مدرسة السوارى (الفرسان)، أنشئت سنة ١٨٦٥ وعدد تلاميذها ١٦١ تلميذ، وتولى نظارتها الضابط الفرنسي بولار ثم ياوربك.

٣- مدرسة الطوبجية (المدفعية) والهندسة الحربية، أنشئت سنة ١٨٦٥ وعدد تلاميذها ٢٨٠، تلميذ، وتولى نظارتها الكولونل لارمى (باشا)، وكان تلاميذها يتتخون من بين طلبة مدرسة المهندسخانة، وهذا يدل على رفى المستوى العلمى لتلاميذها وخريجيها، فلاغرو أن نبغ فيها وفي مدرسة أركان الحرب طائفة من أكفأ الضباط المصريين.

٤- مدرسة أركان الحرب بالعباسية، أنشئت سنة ١٨٦٥، وتولى نظارتها الكولونل مرشير بك، ثم شحاتة عيسى بك أحد خريجي بعثات محمد عمر، ثم لارمى باشا، ويختار تلاميذها من خريجي كلية المدارس الحربية أو المهندسخانة، وتعد هي ومدرسة الطوبجية من أرقى المدرس الحربية التى أنشأها الخديو إسماعيل.

٥- مدرسة الخطرية بالقلعة، أنشئت سنة ١٨٧٤، وهى أهم مدرسة من المدارس المتقدمة والغرض منها تخريج صف الضباط، وتولى نظارتها القائم خويلد عمت بك، ثم كثر هذه المدرسة طويلا.

٦- مدرسة صف الضباط أنشئت سنة ١٨٧٤. وقد خرجت هاتان المدرستان عدداً من صف الضباط الذين استخدمتهم الحكومة في الاكتشافات الجغرافية بالسودان.

٧- مدرسة الطب البيطرى، أنشئت سنة ١٨٦٨، وتولى نظارتها المسيو ليزار، ووكالتها إسماعيل راضى أفندى، وأحيلت نظارتها منذ سنة ١٨٧٠ على ناظر مدرسة الفرسان (السوارى).

٨ و٩- مدرسة قفاوات الشيش، ومدرسة الجيخانجية. وقد أقلت هذه المدارس في أواخر عهد إسماعيل (فبراير سنة ١٨٧٩) لارتباك شئون الحكومة المالية، واضطراب أحوالها الإدارية والسياسية، وأنشئت بدلها المدرسة الحربية المستجدة في أبريل سنة ١٨٧٩، وعين لارمى باشا ناظراً لها، وهى المدرسة لبقية إلى اليوم (١٩٣٢).

هيئة أركان حرب الجيش

عهد الخديو إسماعيل إلى طائفة من الضباط الأمريكيين. أسس هيئة أركان حرب للجيش المصرى، فتألفت هذه الهيئة من الضباط المصريين الذين ماوا من الدول الحربية بفرنسا، ومن الضباط الأمريكيين، وجعل على رأسهم الكولونيل (استون) Stone وهو ضابط أمريكي على جانب كبير من الكفاءة والخبرة، غادر الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب

الأهلية ، وجاء مصر وعرض خدماته على الخديوي إسماعيل فأخفه بالجيش ، وعهد إليه سنة ١٨٧٠ برئاسة هيئة أركان حرب الجيش المصري . - أتته فيه من الكفاءة . وأتم عليه برتبة اللواء ، فصار يعرف بالجنرال استون باشا . واضطلع بنهمة التي استندت إليه ، واستعان على إحياء هذه الهيئة وتنظيمها بطائفة من الضباط الوضيين وبضئمة أخرى من الضباط الأمريكيان ومن الميكانيكيين والمهندسين والخبراء في علم طبقات الأرض . وانشأ في هذه الهيئة قسم للجغرافية مهمته وضع الخرائط الطبوغرافية الدقيقة عن أنحاء مصر والسودان ، وتولى تخطيط هذه الخرائط ضباط أركان الحرب المصريون والضباط الأمريكيان ممن قاموا بالرحلات الاكتشافية التي تكلمنا عنها في موضعها ، فجاءت أعظم غاية في الدقة والاحكام . وانشئت مطبعة خاصة لهذه الهيئة ، لطبع رسوماها وخرائطها ، ومكتبة نفيسة تحوى كتباً قيمة في الفنون الحربية وما إليها ، وألحق بها متحف حربي للأسلحة والتحف والتذكارات الخاصة بالجيش ، وتقدمت هيئة أركان الحرب تقدماً مطرداً لم يوقفه سوى ارتباك الأحوال في أواخر عهد إسماعيل . وقيام الثورة العربية ، ثم الاحتلال الإنجليزي^(٣) .

ولكن من الحق أن نقول أن هيئة أركان الحرب في عهد إسماعيل كان ينقصها الاتصال المتين بالقيادة العامة للجيش ، فلم يتم التعاون بين الهيئتين . بل دب النفور بينهما ، وأدى إليه في الغالب صلف ضباط القيادة العامة ومعظمهم من الشراكة الذين كان من أخص صفاتهم الزهو والخيلاء .. وقد كان هذا التنافر من أهم أسباب إخفاق الحملة الفرنسية في حرب الحبشة ، كما تقدم بيانه ، وكان انفصال هيئة أركان الحرب والقيادة العامة من العوامل التي حالت دون وحدة الجيش ، وأفضت إلى ضعفه واضمحلاله .

الصحافة الحربية

وأنشئت صحيفتان لتثقيف عقول التلاميذ والضباط . إحداهما تدعى (جريدة أركان حرب الجيش المصري) والأخرى (الجريدة العسكرية نصرية) ، تولى تحريرهما ضباط الجيش المصري ، وقد اطلعنا في دار الكتب الملكية على مجموعة من جريدة أركان الحرب ،

(٢) غادر استون باشا مصر نهائياً سنة ١٨٨٢ حين اعتمه الإنجليز وضع يده على الجيش المصري ، وتوفى في نيويورك

وهي مجلة شهرية . صدر العدد الأول منها في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٩٠ (١٠ يولييه سنة ١٨٧٣) ، واستمرت تصدر بانتظام عدة سنوات ، ورأينا مجموعتها كاملة لغاية أكتوبر سنة ١٨٧٨ . وفيها مباحث قيمة للجنرال استون باشا رئيس أركان الحرب ، ولمحمد مختار افندي (باشا) ، وحاجد بك عبد العاطي المدرس بالمدارس الحربية . وعبد الرازق نظمي (بك) ، وأحمد بك عزى ، وعبد الله بك فوزى . من ضباط أركان الحرب وغيرهم ، وكان الشيخ حسن الطويل العالم المشهور يصحح المجلة .

ورأيت في العدد الصادر في ١٥ شوال سنة ١٢٩١ (٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٤) نبذة تاريخية عن الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ وهزيمتها ، استخلص كاتبها وجه العبرة منها بقوله : « وإذا قدر الله بغزو هذه الديار مرة أخرى . فليذكر ضباط الجيش المصري غزوة سنة ١٨٠٧^(٣) ، وليكن كل ضابط مصمماً على المدافعة والذب عن وطنه ، ولا يرتكب العار في التسليم كما ارتكبه أمين أغا ، بل يدافع بنفسه وبمساعره عن كل نقطة يتجه الهجوم إليها ، كما فعل على بك السلايكي الذي اكتسب الفخر والشرف ومنع العدو وصدده عن الوطن في غزو بندر رشيد رحمة الله عليه أمين^(٤) ، فهذه العبارة تدل على الروح التي كانت تمشي في مباحث المجلة ، وكيف كانت تبت في نفوس الضباط روح الواجب والقومية ، ومن المؤلم أن البلاد قد رزمت سنة ١٨٨٢ بغزوة الإنجليزية أخرى كغزوة سنة ١٨٠٧ ، ولكن ضباط الجيش وجنوده لم يقوموا بالواجب الذي ذكروهم به جريدة أركان الحرب سنة ١٨٧٤ ، فكان ما كان من الهزيمة والاحتلال .

تجديد السلاح والمصانع الحربية

أوصى الخديوي إسماعيل سنة ١٨٧٦ معامل الأسلحة الفرنسية بصنع عدة آلاف من البنادق الحديثة ذات الإبر المعروفة ببنادق (شاسبو) نسبة إلى مخترعها ، وسلح بها الجيش المصري . ورم حصون الإسكندرية . وجدد أسلحتها ومدافعها ، وجلب المدافع الضخمة من طراز ارمسترنج ، وركبها في طواحي الثغور ، وخاصة الإسكندرية . وهي المدافع التي كان لها عمل ضئيل أثناء ضرب الأسطول البريطاني مدينة الإسكندرية سنة ١٨٨٢ ، ولم تؤثر في سفن

(٣) راجع وقائع هذه الغزوة في (عصر محمد علي) ص ٤٠ وما بعدها (من الطبعة الأولى) .

(٤) جريدة أركان حرب الجيش المصري العدد ٦ من المجلد الأول للسنة الثانية .

لأستطول لعدم تمرن رماثها على استعمالها بسبب سوء تدبير الحكومة والعرايين .
وعنى إسماعيل بشأن المصانع الحربية ، التي كانت منشأة من عهد محمد على ، فنظم معمل
لخوض الرصاص . وأصلح من شأنه ، وصارت تصب فيه المدافع ، وتصنع فيه الأدوات
والآلات الحربية للجيش .

وشيد بظه معملاً لصنع الأسلحة المدسة ، وآخر لصب المدافع وآخر للبنادق ، عدا
معامل الخرطوش والقنابل ، وأصلح مصانع البارود التي كانت موجودة بمصر حتى أشهر
ذكرها في الآفاق ، وأرسل سلطان مراکش بعثة من المغاربة ليتعلموا في مصر صناعة البارود
والطباعة .
وأصلح معمل الأسلحة بالإسكندرية ووسع نطاقه .

إنشاء ميدان للرماية والتمرينات العسكرية (البوليجون)

وفي عهد وزارة الأمير حسين باشا كامل (السلطان حسين كامل) للحربية وضع لارمى
بك تصميم إنشاء البوليجون للتمرين على ضرب النار ، وأخذت أورطة المهندسين في بنائه
بإشراف لارمى بك وخفاجى بك أحد أساتذة مدرسة أركان الحرب ، وجعل به عدة أقسام
للمتمرين ، منها قسم لتمرين ضباط المدفعية على الرمي بالمدافع ، وقسم لتمرين الضباط المشاة على
الرمي بالبنادق ، وقسم لصف الضباط ، وقسم لتعلم التفراغات العسكرية وقسم للإشارة .

إدخال النظام الألماني

كان النظام الفرنسى هو المتبع في الجيش المصرى ، ولكن الحديو إسماعيل اعترم تدريبه
على أساليب الجيش الألماني ، لما ذاعت شهرته بعد انتصاره على الفرنسيين في الحرب
السبعينية : فأمر بترجمة القوانين والنظامات الألمانية وتعديل الملابس وتغيير الأسلحة ، ولكن
ارتباك شؤون الحكومة المالية في أواخر عهده حال دون الاتفاق على الجيش وتجديده .

إحصاء الجيش

ذكر إسماعيل باشا سرهنتك في كتابه (ج ٢ ص ٣١١) إحصاء الجيش سنة ١٨٧٣ ، ومنه
يتبين أن عدده بلغ نحو ٩٠,٠٠٠ مقاتل من جند وضباط وتلاميذ المدارس الحربية كالبيان
الآتى :

٨٤,٥٣٠ جنود وصف ضباط

٠٢,٦٦٨ ضباط وقواد

١,٨٩٠ تلاميذ المدارس الحربية

٨٩,٠٨٨

وهذا عدا الجيش المرابط في السودان ، وقد بينا أنه بلغ ثلاثين ألفاً ، أى أن تعداد الجيش
المصرى في مصر والسودان بلغ على عهد إسماعيل نحو ١٢٠,٠٠٠ مقاتل .

افتقار الجيش إلى قائد عظيم

رأيت مما تقدم تطور حالة الجيش في عهد إسماعيل وعلمت ما أصابه من الضعف في
السنوات الأخيرة من حكمه ، وترجع أسباب هذا الضعف إلى ارتباك شؤون الحكومة المالية
الذى كان نتيجة لقروض الحديو ، وإلى عدم التعاون بين قيادة الجيش وهيئة أركان الحرب ،
وثمة سبب جوهرى لهذا الضعف ، يترامى في عصر إسماعيل عامة ، وهو عجز القيادة العامة ،
فقد كان الجيش يعوزه قائد كبير يضارع إبراهيم باشا في كفاءته وعبقريته . ويبحث في نفوس
الجند روح البطولة والمجد والبسالة ، ولم يكن إسماعيل على غرار أبيه في النبوغ والعبقرية ،
ولا ورث عنه صفاته الحربية ، ولم يألف خوض غمار القتال ، ولا وجد بين قواده من يسد
الفراغ الذى كان يملؤه البطل إبراهيم ، وغنى عن البيان أن حرمان الجيش مثل القائد العظيم ،
ومثل سليمان باشا الفرنساوى أو القواد الذين ازدان بهم تاريخ مصر الحرنى في معارك مصر
واليونان وسوريا والناضول ، كان العامل الأول فيما أصابه من الضعف .

وقد ظهر الضعف في حرب الحبشة سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦ ، كما بيناه في الفصل السابق ،
وتبين أن أهم أسباب الهزيمة في تلك الحرب عجز القيادة وسوء النظام ، وكانت هذه الهزيمة

موضع دهشة المصريين والأجانب على السواء . فقد كانوا يعتقدون أن الجيش المصرى لم يزل محتفظاً بالمكانة التى نالها فى حروب محمد على أو فى حرب القرم . ولكن حرب الحيشة زلزلت هذه المكانة وكشفت عن أعراض الضعف الذى أصاب الجيش على مر السنين فى عهد خلفاء محمد على .

وقد زاد فى ضعفه ارتباك الحكومة المالى ، وتدخل الدول فى شؤونها ، فإن هذا الارتباك أفضى إلى نقص مخصصات الجيش ، وكان من أعمال وزارة نوبار باشا الأولى تخفيض عدد الجيش ، توفيراً فى النفقات وسداً لعجز الميزانية ، فقررت إحالة ٢٥٠٠ ضابط على الاستداع ، وتسريح عدد كبير من الجنود ، واستمرت أسباب الضعف تزداد وتتفاقم ، إلى أن ظهرت نتائجها مرة أخرى فى وقائع الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢ ، تلك الوقائع التى تعد صفحة مخزنة فى تاريخ مصر الحربى .

• • •

الفصل السابع

البحرية

تولى الخديو إسماعيل الحكم والبحرية المصرية فى حالة سيئة من التأخر والضعف . فقد بدأ اضمحلالها كما قدمنا فى عهد عباس ، ولم يعمل سعيد باشا على إحيائها ، لما لقيه من العقبات من ناحية تركيا .

فأخذ إسماعيل فى أوائل حكمه يعنى بتجديد الأسطول ، فبعث النشاط فى ترسانة الإسكندرية (دار الصناعة) ، « وأحيا معاملها ومصانعها ، وجلب لها العمال من الإسكندرية ومن داخل البلاد ، واستحضر لها الآلات والعتاد ، فعاد إليها نشاطها الذى كان لها فى عهد محمد على .

وأُنشئ بها بعض السفن الحربية فى عهد ولاية عبد اللطيف باشا ، ثم شاهين باشا ، لوزارة البحرية ، وباسم الأول منها سميت البارجة « لطيف » وتم فى عهد الثانى بناء البارجة « الصاعقة » .

وأوصى الخديو بصنع عدة سفن حربية مدرعة فى ترسانات أوروبا . وجدد المدرسة البحرية بالإسكندرية ، وأنشأ مدرسة بحرية أخرى بجوار الترسانة ، أحضر لها المدرسين الأكفاء من مصر وأوروبا ، وعهد بنظارتها إلى ضابط من ضباط البحرية الإنجليزية ، يدعى مكيلوب (باشا) ، ووكيله ضابط مصرى كفاء وهو عبد الرازق بك درويش ، ثم تولى هو نظارتها من بعده^(١) . ومن كبار أساتذتها سليمان قبودان حلاوة^(٢) من مشاهير ضباط البحرية ، وانتخب تلاميذ هذه المدرسة من نهباء طلبة المدارس الأميرية والابتدائية . وكانت تدرس فيها الفنون والعلوم البحرية التى تدرس فى المدارس البحرية الأوروبية . ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، واختارت الحكومة طائفة من خريجها

(١) الوقائع المصرية العدد ٥٩٨ - ٢١ مارس سنة ١٨٧٥ .

(٢) الوقائع المصرية العدد ٤٤١ - ٢٣ يناير سنة ١٨٧٢ .

وأوفدتهم إلى إنجلترا لإتمام العلوم البحرية ، منهم اثنان لتعلم فن إنشاء السفن . وهما حسن فريد أفندي ، وحشمت أفندي ، واثنان لتعلم الميكانيكا البحرية ، وهما محمد أنيس أفندي ، ومحمد عارف أفندي ، ولما عادوا إلى مصر التحقوا بدار الصناعة بالإسكندرية . ومن هذه المدرسة تخرج إسماعيل باشا سرهنگ ، مؤلف كتاب حقائق الأخبار عن دول البحار . وناظر المدرسة الحربية المستجدة .

بذل الحديو إسماعيل كما ترى جهوداً ممدوحة في إحياء البحرية المصرية ، ولكن غقيات جمة اعترضته في سبيله ، ذلك أن الحكومة التركية رأيت البحرية المصرية آخذة بأسباب النشاط والقوة ، وعلمت بأن إسماعيل أوصى على ثلاث مدرعات في فرنسا ، ومدرعتين أخريين في النمسا ، وأن هذه المدرعات قد تم صنعها ، وأرسل الحديو سنة ١٨٦٨ طوائفها من الضباط والبحارة ليتسلموها ، فاعترضت على تسليمها ، وتدرعت بأن الفرمانات لا تبيح لمصر إنشاء السفن الحربية المدرعة ، فانتهى الخلاف بأن ابتاعها تركيا لنفسها .

وكان هذا الاعتراض بإيعاز من إنجلترا التي يسوؤها أن تجدد مصر قوتها البحرية ، فاستخدمت نفوذها لدى الاستانة لتحول دون هذا التجديد ، وقد وقفت إنجلترا هذا الموقف ذاته في عهد عباس ثم في عهد سعيد . وكانت بذلك تعمل على خطة رسمتها لنفسها منذ أنشأ محمد على الكبير الأسطول المصري ، وهي إضعاف قوة مصر البحرية ، لكي تأمن على سلطانها في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر .

خدمات الأسطول

ورغم ما اعترض الأسطول من العقبات ، فإنه أدى خدمات لا تترك ، فقد اشترك في عدة حملات حربية على ظهر البحار ، كحملة كريت ، وحرب البلقان ، فكانت سفنه تقل الجنود المصرية إلى الجهات التي تقصدها . وكان صلة الاتصال بين مصر وبنغورها وأملاكها المترامية على البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي ، وقد أقلت سفنه القوات العسكرية التي أرسلتها مصر إلى تلك الثغور البعيدة . كمصوع ، وزيلع ، وبرره ، ورأس جردفون (جردفوى) ، كما أقلت الحملة التي أنفذتها إلى بلاد الصومال ، ووصلت إلى ثغر قسماير (بور إسماعيل) شمال زنجبار على شاطئ المحيط الهندي .

وظافت بعض سفنه حول القارة الإفريقية ، منتقلة من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر عن طريق الإقianos الأعظم ورأس الرجاء الصالح . قبل أن تشق قناة السويس .

إحصاء الأسطول

أحصى العلامة على باشا مبارك^(٣) الأسطول المصري في عهد الحديو إسماعيل ، فذكر أن عدده ١٤ سفينة حربية ، وهي : اخروسة . مصر . الغربية . محمد على . شيرجهاد . لطيف . دنقله . الطور . سيناء . الخرطوم . أسبوط . وثلاثة مراكب أخرى صغيرة .
ولإسماعيل باشا سرهنگ إحصاء آخر ، فقد قال (ج ٢ ص ٥٥) إن عدد سفن الأسطول ١٨ سفينة حربية ، وذكر (ص ٢٨٧) أسماءها مع ثلاث بواخر حربية أخرى مخصصة لركوب الحديو ، وهذا بيانها :

اسم البارجة	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١ - محمد على (فرقاطة)	أمريكا	حديد وخشب	٢٨
٢ - شيرجهاد	ترستا	خشب	٢٨
٣ - لطيف كورفت	الإسكندرية	خشب	٦
٤ - الخرطوم (مدفعية)	إنجلترا	خشب	٥
٥ - دنقله (مدرعة)	إنجلترا	مدرع	٨
٦ - الصاعقة (كورفت)	الإسكندرية	خشب	٨
٧ - ستار (مدفعية)	إنجلترا	خشب	٧
٨ - زرخ نمرة ١	فرنسا	مدرع	٢
٩ - زرخ نمرة ٢	فرنسا	مدرع	٢

ثلاث بواخر حربية لركوب الحديو

١٠ - اخروسة	لندن	حديد	٨
١١ - مصر	طولون (فرنسا)	حديد	٦
١٢ - الغربية	طولون (فرنسا)	حديد	٤

(٣) في الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٨٣ .

طرادات وسفن للنقل

اسم البارجة	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١٣ - الطور	إنجلترا	حديد	٢
١٤ - أسوان	إنجلترا	خشب	٤
١٥ - شندى	إنجلترا	خشب	٤
١٦ - أسبوط	الإسكندرية	خشب	٢
١٧ - الجعفرية	إنجلترا	حديد	٣
١٨ - سمود	إنجلترا	خشب	٢
١٩ - نور الهدى	إنجلترا	حديد	٢
٢٠ - مخبر	إنجلترا	حديد	٢
٢١ - عجمى	إنجلترا	حديد	٢

فمن هذا الإحصاء ومن مقارنته بإحصاء الأسطول الضخم الذى كان لمصر في عهد محمد على (عصر محمد على ص ٤٣٢) يتبين لك مبلغ ما أصاب البحرية المصرية من الضعف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم إذا قارنت هذين الإحصاءين بحالة أسطول مصر الآن - ١٩٣٢ - (أى بعد الاحتلال الإنجليزي) ويبحث عبثاً أين هو الأسطول ومم يتألف؟ وماذا يعمل؟ يعرّوك الدهش والأسى والألم، لانعدام قوة مصر البحرية في عهد الاحتلال.

الأسطول التجارى

لما وجد إسماعيل ما يعترضه من العقبات في سبيل تجديد الأسطول الحربى، وجه عنايته إلى الأسطول التجارى، فأنشأ شركة للملاحة التجارية، سميت الشركة العزيزية، نسبة إلى السلطان عبد العزيز، أعد بواخرها لنقل المسافرين ونقل المتاجر إلى ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، بعد أن أبطل الشركة المجيدية التى أنشئت في عهد سعيد باشا، وجعل رأس مال الشركة الجديدة موزعاً على أسهم يشترك الأفراد فيها.

فكتب جماعة من سرة المصريين في رأس مالها، وخصص لها الخديوي سبع بواخر كانت موجودة من قبل، وأوصى بإنشاء بواخر جديدة في إنجلترا، وجعل على قيادة هذه البواخر ضباط بحرية القدماء الذين تركوا خدمة الأسطول منذ اضمحلاله، وكذلك بحارته، وابتاعت وزارة البحرية عدة سفن شرعية كبيرة لنقل الأخشاب اللازمة لوزارة البحرية والحربية من بلاد الأناضول، فكان الأسطول التجارى المصرى بنوعيه من البواخر والسفن الشرعية بالغاً درجة كبرى من التقدم.

وكان لبواخر (الشركة العزيزية) فضل كبير في نشاط حركة التجارة الخارجية لمصر، وتسهيل مواصلاتها البحرية مع الأقطار الأخرى. وزاحمت شركات الملاحة الأجنبية في هذا الصدد، ونجحت في عملها، ونمت إيراداتها. وريحت الأرباح الوفيرة، ثم ابتاع الخديوي إسماعيل أسهمها، احتكاًراً لأرباحها، وحولها إلى إدارة من إدارات الحكومة عرفت بمصلحة (وابورات البوستة الخديوية)، فاستمرت مطردة النجاح واتسع نطاق أعمالها، وصار لها من البواخر الكبيرة ست وعشرون باخرة^(٤) تجوب البحار رافعة العلم المصرى، وتنقل الناس والمتاجر والبريد بين ثغور مصر وشواطئ البحر الأبيض المتوسط في سوريا والأناضول وبلاد اليونان، وشواطئ الدردنيل والبوسفور، وثغور البحر الأحمر كسواكن ومصوع وبنبع وجدة والحديدة، وتجتاز بوغاز باب المندب إلى زيلع وبربره.

وقد ألحق بهذه المصلحة الحوض العام الذى أنشئ بميناء الإسكندرية، وخصص لبواخرها معمل (قابريقة) في ترسانة الإسكندرية للقيام بما تحتاجه من الإصلاح. وبقيت هذه الإدارة الكبيرة ببواخرها وملحقاتها كالحوض وقابريقة الترسانة ملكاً للحكومة، إلى أن باعها في عهد الاحتلال، إلى شركة إنجليزية، بأجنس الأثمان، فانتقلت تلك المنشآت البحرية العظيمة. وهذه الثروة القومية الضخمة، إلى أيدي الإنجليز، وأنزل العلم المصرى عن بواخرها، واستبدل به العلم البريطانى، فكانت نكبة، وكان خسراً.

(٤) هي: الرحانية. التاكا. القيوم. البحرية. الشرقية. الدهلية. طنطا. شندى. شين. دوق. كويت. سمود. البيا. الجعفرية. مسير. المنصورة. الخلة. النجيلة. دنهور. الزقازيق. الحجاز. الحديدة. بنبع. القصير. سواكن. مصوع (كتاب إحصاء مصر سنة ١٨٧٣ - ص ٤٧).

إتمام ميناء السويس

إن إتمام أعمال الإصلاح في ميناء السويس ، وإصلاح ميناء الإسكندرية ، وإنشاء القنارات البحرية ، هي من أعمال العمران التي تتصل بالبحرية ، ولذلك نتكلم عنها في سياق الحديث عن البحرية في عهد إسماعيل .

شرح سعيد باشا سنة ١٨٥٦ في إنشاء ميناء جديد بالسويس لسهولة إيواء السفن ، فجعل من الثغر مرفأين ، أحدهما يسمى ميناء إبراهيم ، جعل للبوخر الحربية ، وجعل الثاني للسفن التجارية ، وأقم حاجز من الأحجار لصد الأمواج عن الميناءين ، وبه البوغاز لدخول السفن وخروجها .

وشرع في إقامة حوض لعمارة السفن ، وقد استمر العمل في إتمام هذه المشروعات إلى أن كملت في عهد إسماعيل ، وبلغت نفقات الحوض والجسر الذي يصله بميناء السويس ٢٤٠,٠٠٠ جنيه ، وقد تنازلت عنه الحكومة المصرية في عهد الاحتلال إلى الشركة الإنجليزية التي اشترت وابورات البوطة الخديوية .

إصلاح ميناء الإسكندرية

لما اتسعت حركة العمران وازدادت المواصلات البحرية في الإسكندرية شرع إسماعيل في توسيع مينائها وإصلاحه ، واعتمرم إنفاذ هذا الإصلاح بعدما أنشئت بورسعيد وقارب مشروع قناة السويس التمام ، فقد خشى أن تراحم بورسعيد الإسكندرية ، وتحول إليها حركة التجارة الخارجية ، فاعتمرم توسيع ميناء الإسكندرية لتجذب إليها السفن في غدوها ورواحها . فأول ما بدأ به إقامة حوض عائم من الحديد لإصلاح السفن ، بدل الحوض المبنى بالحجر من عهد محمد علي ، والذي صار مع الزمن لا يبق بإصلاح السفن ، وخاصة كبيرة الحجم ، وقد جلب الحوض الجديد من فرنسا سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) .

ثم أنشأ حاجز الأمواج الضخم الذي يبق الميناء طغيان الأمواج ، ويجعل السفن الراسية به في مأمن من العواصف ، ولا يزال قائماً إلى اليوم ، وهو جسر من الدبش والأحجار الضخمة

والصخور ، ممتد من طرف شبه جزيرة رأس التين إلى جهة العجمي ، وفيه البوغاز لمرور السفن منه ، وأنشأ بداخل الميناء رصيفاً للشحن والتفريغ وأرصفتة أخرى ممتدة في داخل الميناء ، وكانت هذه المشروعات من أعمال العمران الضخمة التي اقتضت جهوداً كبيرة ، وكلفت الخزانة نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات . وقد عهد بها الخديو إلى شركة الإنجليزية تدعى شركة جرتفلد ، وبدء في العمل سنة ١٨٧١ . ولم يتم إلا بعد تسع سنوات سنة ١٨٧٩ .

القنارات

وأنشأ عدة قنارات في ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر لإرشاد السفن ولتسهيل الملاحة البحرية .

وهذا بيانها :

في البحر الأبيض المتوسط : فانار البرلس ، أنشئ سنة ١٨٦٨ ، وفنار رشيد سنة ١٨٦٨ ، وفنار دمياط (تجاه رأس البر) سنة ١٨٦٩ ، وفنار بورسعيد سنة ١٨٦٩ ، وفنار العجمي سنة ١٨٧٣ ، وفنار حاجز الميناء سنة ١٨٧٦ ، وفنار القبارى سنة ١٨٧٧ ، أما فانار رأس التين الكبير فهو منشأ من عهد محمد علي .

في البحر الأحمر : وكان بالبحر الأحمر من القنارات قبل عصر إسماعيل فانار زنوبيا ، وفنار الزعفران جنوبي السويس ، وفنار الأشرقي ، وفنار أبي كيزان ، فرأى الخديو إسماعيل أن هذه القنارات لا تكفى لإرشاد السفن في البحر الأحمر ، لكثرة صخوره ومخاطره ، فأنشأ قنارات أخرى وهي :

فانار السويس . وفنار رأس الغريب جنوبي رأس الزعفران ، وفنار صخور الأخوين الشمالية ، وفنار جزيرة شدوان الذي تم سنة ١٨٨٩ ، وفنار (الوجه) من ثغور الحجاز^(٥) . وأنشأ في خليج عدن بالأقبانوس الهندى فانار بربره السابق الكلام عنه ، وأمر بإقامة فانار في جردفون (جردفوى) سنة ١٨٧٨ ، ولكنه لم ينشأ كما تقدم بيانه (ص ١٦٥) .

• • •

(٥) كانت متصرفية (الوجه) تابعة لحكومة مصر .

الفصل الثامن

حروب مصر في عهد إسماعيل

خاضت مصر في عهد إسماعيل عدة حروب . تختلف في أهميتها وتأثيرها ، ومعظمها مما دعته تركيا إلى تخوض غارها لنجدة جيشها ، ما خلا حروب السودان ، فقد كانت ابتكاراً من الخديوي إسماعيل ، لسيط نفوذ مصر في باطن إفريقيا وشرقها ، والوصول إلى الحدود الطبيعية لوادي النيل ، وحرب الحبشة التي كانت حرباً عقيمياً من كل الوجوه . ولم يكن للحروب التي خاضها مصر لتلبية لطلب تركيا من نتائج عملية لمصلحة مصر سوى أن إسماعيل كان يتخذها في الجملة ، ذريعة لاستصدار مزايا وحقوق جديدة تقرب مصر من استقلالها التام ، ومن جهة أخرى فإنها كانت ميادين لمران الجيش المصري وجنوده وضباطه على ممارسة القتال والإفادة من تجاربه ووقائمه .

١- إخماد ثورة العسير

في أوائل عهد إسماعيل ثار الأمير محمد بن عاتق أمير العسير على الدولة العثمانية ، وقصد الاستيلاء على نهاية اليمن ، فحاربه متصرف الحديدة ، وصدّه في بعض المواقع ، ولكن الأمير استفحل أمره واستولى على بعض المدن ، فاستنجد السلطان عبد العزيز بالخديوي إسماعيل ، وطلب إليه أن ينفذ جيشاً مصرياً لإخماد الثورة . فلى إسماعيل طلبه ، وأنفذ إلى عسير قوة من ثلاث أوط من المشاة ، زودها بالمدافع وكتائب الفرسان ، وعقد لواء قيادتها للأمير الالاي إسماعيل صادق بك ، فلما وصل إلى شتر جدة ، اتفق ووالها على تجريد الحملة المصرية صحة الجنود العثمانية على التوار من جهة (قنفذة) فتمكن من إخماد الثورة ، وقدم الأمير محمد بن عاتق طاعته . ثم عادت الفرقة المصرية طاغرة مشكورة على ما أبلته في القتال ، وأنتم الخديوي على قائدها برتبة اللواء . مكافأة له على ما أبدى من الشجاعة والكمامة في القيادة ، وأرسل السلطان إلى الخديوي كتاب شكر وثناء

على ما بذله من الحمية والولاء ، وتوسط إسماعيل لدى السلطان عبد العزيز في العفو عن الأمير
الثائر ، قبل شفاعته وعفا عنه وأقره في إمارته .

٢- حرب كريت

قامت سنة ١٨٦١ ثورة في ولاية الهرسك إحدى ولايات البلقان بتحريض أمير الجبل
الأسود ، فجردت تركيا جيوشها لمقاتلة الثوار ، ولما تولى إسماعيل عرش مصر طلبت إليه
الحكومة العثمانية أن يعزز جيوشها في الرومللي بجيش مصري حتى لا يقوى ساعد الثوار
ولا تزداد اضطراباتهم في تلك الجهات ، فأنفذ إسماعيل باشا فرقة تولى قيادتها اللواء على غالب
باشا ، فوصلت الحملة المصرية إلى الاستانة ، وعرضها السلطان ، ثم سارت عن طريق
(سلانيك) إلى (مناستر) وربطت هناك .

ثم نشبت ثورة عامة في جزيرة (كريت) سنة ١٨٦٦ ، وعجزت تركيا عن إخمادها إذ كان
جنودها موزعين في ولايات البلقان ، ولم تقو الحامية التركية في الجزيرة على مقاومة الثورة ،
فاستنجدت بمصر ، وأرسل السلطان عبد العزيز إلى الخديوي يطلب إليه إنفاذ بعض فرق الجيش
المصري إلى الجزيرة لمقاتلة الثوار ، فلبى الطلب ، وأنفذ جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف مقاتل
ونيف ، عقده لواءه للفرق شاهين باشا ، أحد قواد الجيش المصري المشهورين ، يعاونه اللواء
إسماعيل صادق باشا ، وكان من ضباط الجيش المصري في هذه الحرب راشد بك حسنى
(باشا) الذي عظم شأنه في حوادث الثورة العربية ، وأبلى البلاء الحسن في واقعة
القصاصين ، ومحمود سامى بك البارودى (باشا) الذى صار من كبار زعماء الحركة العربية ،
وفي هذه الحرب كانت نشأة البارودى الحربية .

أقلعت الحملة إلى جزيرة كريت ، نقلها عمارة من الأسطول المصري مؤلفة من عشر
سفن ، معقوداً لواؤها للأميرال قاسم باشا ، وتولت هذه العمارة نقل القوة المصرية التي
كانت مرابطة في (مناستر) وجاءت بها إلى الجزيرة .

تولت الحملة في كريت ، فاشتبكت والثوار في جهة تسمى (أبو قرون) ، جرح فيها اللواء
إسماعيل صادق باشا جرحاً بليغاً نقل على أثره إلى مصر ، وتبدلت القيادة العامة للجيش
المصري : إذ استدعى شاهين باشا إلى مصر وعين بدله الفريق إسماعيل سليم باشا وزير الحربية

وقتنذ كما تقدم بيانه (ص ٨٣) .

والتي الجمعان في واقعة « ارقاذى » . وكانت من أعظم نواقع الحربية . هزم فيها الثوار
هزيمة كبيرة ، وخسروا خسائر عظيمة ، وأبلى فيها الجنود المصريون بلاءً حسناً في القتال ،
وأبدوا من الشجاعة والإقدام ما خلده ذكرهم ، وكان راشد بك حسنى وأولاده أكثرهم
إقداماً ، فأنعم عليه الخديوي برتبة اللواء ، وأرسل الجيش المصري كتاباً بليغاً من إنشاء المرحوم
عبد الله باشا فكرى ، يثنى فيه على حسن بلاء الجنود وضباطهم وقوادهم ، ويسجل لهم
ما أبدوه من ضروب الشجاعة والكفاءة .

واستمرت الحرب سجالاتاً حتى أخذت الثورة ، فعاد الجيش المصري إلى مصر ، وقوبل
بمظاهر الحفاوة البالغة ، وأقام الخديوي لأفراده الولائم تكريماً لهم على حسن بلائهم في القتال

٣- حرب البلقان

(١٨٧٦ - ١٨٧٧)

كانت روسيا لانفتاً تخرض إمارات البلقان على الانتفاض على تركيا ، لكي تمهد لنفسها
الدخول في حومة الوغى بعد أن توزع تركيا قواتها في إخماد الثورات المحلية ، فمن ذلك أنها
بذرت بذور الثورة في تلك البلاد حتى شب أوارها في الهرسك سنة ١٨٧٥ ، وامتدت إلى
البوسنة ، وقامت الصرب تشد أزر الثوار .

فطلبت تركيا من الخديوي إسماعيل إمدادها بنجدة من الجيش المصري ، فأعد الخديوي قوة
من نحو سبعة آلاف مقاتل بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ، ومن ضباطها محمود بك فهمى
(باشا) الذى صار فيما بعد من زعماء الثورة العربية ووزرائها ، وصاحب كتاب البحر الزاخر
في تاريخ الأوائل والأواخر .

أقلعت الحملة إلى الاستانة . ثم قصدت إلى حدود الصرب ، فاشتركت والجيش العثماني
في قتال الصربيين ، وفازت عليهم ، وأظهرت شجاعة وبسالة في المواقع التي خاضتها . مما دعا
الخديوي إلى الإنعام على طائفة من قوادها وضباطها بالرتب العالية .

وفي غضون ذلك تولى عرش تركيا السلطان عبد الحميد الثاني (٣١ أغسطس سنة
١٨٧٦) ، بعد أن قتل السلطان عبد العزيز ، وخلع السلطان مراد ، ورجع الجنود المصريون

إلى الاستانة إذ وقعت الحرب بين تركيا والصرب .
ثم تجدد النزاع بين تركيا والروسيا ، وأعلنت الحرب بين الدولتين . وهي الحرب المعروفة بحرب البلقان (أبريل سنة ١٨٧٧) ، فقبلت تركيا من الخديو إيجادها في هذه الحرب ، ولكن إسماعيل استمر بداية ذي بدء بإرتياك لشؤون الحكومة المالية ، وعجزها عن الإنفاق على المدد ، فأعاد السلطان عبد الحميد الكرة ولم يقبل عذراً .

وكانت المشاكل المالية قد جعلت إسماعيل هدفاً لغضب الدائنين الأجانب ، فأخذوا يرهقونه بمطالبهم الشديدة ، والدول الأوروبية من ورائهم تشد أزرعهم ، وتهدد الخديو ، فخشى عاقبة مفاضية تركيا في تلك الظروف العصيبة ، فاعتزم إجابة طلبها .
وكانت خزانة الحكومة في حالة سيئة ، فلستدعى مجلس شورى النواب ، وعرض عليه ربط ضريبة جديدة تدعى «ضريبة الحرب» قدرها عشرة في المائة من مجموع الضرائب ، لسد نفقات الحملة ، فوافق المجلس عليها ، وأعد الخديو جيشاً مؤلفاً من نحو ألفي عشر ألف مقاتل بقيادة الأمير حسن باشا ثالث أنجاله ، وبعد أن تمت معدت الحملة أقلمت بهم السفن المصرية إلى الاستانة ومنها إلى (وارنه) أحد ثغور البحر الأسود .

وقد أبلى الجنود المصريون في هذه الحرب بلاءً حسناً واشتركوا في القتال إلى أن وضعت الحرب أوزارها في مارس سنة ١٨٧٨ ، ثم عادوا إلى مصر .

٤ و ٥ - حروب السودان والحبيشة

كانت الحملات التي جردها الخديو إسماعيل لإتمام فتح السودان خير حروب مصر في عهده ، وأكثرها نفماً وبركاً ، وهي تعد تكللة لحروب مصر في عهد محمد علي ، وقد وينا الكلام عنها في الفصل الخامس : كما بسطنا الكلام فيه عن حرب الحبيشة .

• • •

الفصل السابع

التعلم والنهضة العلمية والأدبية

نال التعلم والنهضة العلمية نصيباً عظيماً من جهود إسماعيل ، فقد نولى الحكم ومعظم المدارس التي أنشأها محمد علي مقفلة ، ولم يكن باقياً منها سوى مدرسة الطب والصيدلة . ومدرسة الولادة (القبلات) ، ومدرسة حربية ، ومدرسة ثانوية ، وأخرى ابتدائية ، ومدرسة البحرية بالإسكندرية ، فبعت النهضة العلمية من مرقدها ، ونفخ فيها روح الحياة والنشاط ، وأعاد تأليف ديوان المدارس (وزارة المعارف) ، وعهد برأسه إلى إبراهيم أدهم باشا الذي تولاها في عهد محمد علي ، ووجه همه إلى إنشاء المدارس على اختلاف مراتبها وقوتها^(١) .

المدارس الحربية

فأسس المدارس الحربية التي تكلمنا عنها في الفصل السادس .

المدارس العالية

وأسس عدة مدارس عالية ، ازدان بها تاريخه ، وكان لما الفضل الكبير على النهضة العلمية والأدبية والفكرية التي ظهرت في عصره ، وفي العصور التي تلت ، وإليك بيان هذه المدارس .

(١) أهم برامج هذا الفصل من معالم التعلم : الواقع المصرية . الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك . التعلم في مصر لأمين سامي باشا . التعلم العام في مصر ليعقوب أرزين باشا . التعلم العام في مصر للسيد دوريك .

مدرسة المهندسخانة

هي مدرسة (الرى والعمارة) وسميت بالمهندسخانة، أنشئت بالعباسية سنة ١٨٦٦ بسرأى الزعفران، ثم نقلت سنة ١٨٦٨ إلى سرأى درب الجماميز (ثم إلى الجيزة). وكان أول ناظر لها إسماعيل بك (باشا) مصطفى الفلكي. ثم محمود بك (باشا) الفلكي، ثم عاد إليها إسماعيل بك الفلكي.

مدرسة الحقوق

هي أعظم المعاهد العلمية التي أسسها إسماعيل، أنشئت سنة ١٨٦٨، وكان اسمها مدرسة «الإدارة والألسن»، وقد حلت محل مدرسة الألسن التي أُنشئت في عهد عباس، وسميت «مدرسة الحقوق» منذ سنة ١٨٨٦، كان أول ناظر لها للسيوفيدال Vidal (باشا) أحد علماء فرنسا المشتهرين، وبقى يتولى نظارتها أربعاً وعشرين سنة إلى عام ١٨٩١. وفي هذه المدرسة تخرج معظم رجال القانون الذين نبغوا في عصر إسماعيل وما يليه من العصور، ولها الفضل الكبير على نهضة القانون والتشريع والقضاء، وعلى النهضة الأدبية والسياسية في البلاد.

مدرسة دار العلوم

أسست سنة ١٨٧٢، والغرض منها تخريج أساتذة اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية، انتخب طلبتها من نجباء تلاميذ الأزهر، وتولى نظارتها على التعاقب في عهد إسماعيل: حامد أفندي نيازى، ثم محمود أفندي فوزى، ثم على بك فهمى رفاعه، ثم حامد أفندي نيازى، وقد أدت المهمة التي أنشئت من أجلها، وكان لها الفضل الكبير على نهضة اللغة والآداب العربية في مصر، وستعود إليها في ترجمة مؤسسها على مبارك باشا.

مدرسة الطب والولادة

وارتقت مدرسة الطب في عهد إسماعيل، واتسع نطاقها، وخرجت جماعة من أعلام الطب في مصر، وتولى نظارتها على التعاقب: برجير بك Burguiere Bey، ثم حافظ أفندي محمد، ثم محمد على بك (باشا) البقل، ثم محمد الشافى بك، ثم محمد على باشا البقل، ثم جلياردو بك.

مدارس البنات

بدأ إنشاء مدارس البنات في مصر على عهد إسماعيل، وهي ميزة تشهد له بالفضل في نهضة الأمة، فقد كان التعلم النسوى يعتبر من قبل في حكم العدم، إذ لم تكن في البلاد مدرسة للبنات سوى مدرسة الولادة، ولم يكن يتعلم فيها في الغالب سوى البنات الحبشيات، أما الفتيات من سائر الطبقات فلم يكن لهن مدارس لتعليمهن، وكان الجهل محبباً عليهن، اللهم إلا من كن يتعلمن في بيوت آباةن وأهلتهن، وقليل أولئك.

في سنة ١٨٧٣ أسست مدرسة السيوفية للبنات، أنشأها السيدة جشم آفت هانم ثالث زوجات الخديو إسماعيل، وكان بها حين افتتاحها نحو مائتى تلميذة^(٢)، وبلغ عددهن سنة ١٨٧٤ اربعمائة تلميذة، يتعلمن مجاناً، فضلاً عن الإنفاق على مأكلهن وملبسهن ويتعلمن القراءة، والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، والحساب، والجغرافية، والتاريخ، والتفريز والنسيج، وغير ذلك من الصناعات^(٣) وتولى نظارتها حسن أفندي صالح، ثم مدام روزه. وأسست مدرسة أخرى للبنات في القرية بالقاهرة سنة ١٨٧٤، وألغيت سنة ١٨٧٨.

(٢) الحفظ التوفيقية ج ٢ ص ٤٦. وجاء في الوقائع المصرية العدد ٥١٩ (٥ أغسطس سنة ١٨٧٣) أن عددهن حين افتتاح المدرسة ١٨٠ تلميذة.

(٣) الوقائع المصرية العدد ٥٧٦ - ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٧٤.

المدارس الصناعية

وأسس إسماعيل من المدارس الصناعية :
مدرسة الفنون والصنائع ، وكانت تعرف بمدرسة (العمليات) . أسست سنة ١٨٦٨ لتخريج الصناع الفنيين ، ومنهم مهندسو الواورات البرية والبحرية رسواقوها . والموظفون الفنيون في مصلحة السكك الحديدية ، وتخرج منها مهندسون لصنع عربات السكك الحديدية والبواخر والآلات البخارية .
وتولى نظارتها المسيو جيجون بك Guigon bey . ثم عيسى شاهين أفندى ، ثم عاد لنظارتها جيجون بك . ومن كبار أساتذتها إسماعيل يوشناق بك كبير مهندسي العنابر بالسكك الحديدية .
ويشتمل برنامجها على العلوم الصناعية والهندسية ثم التمرينات العلمية .
ففي السنة الأولى : يدرس الحساب ، والجبر ، والهندسة الوصفية ، والرسم ، وفن العمارة ، واللغات العربية والفرنسية والإنجليزية .
وفي السنة الثانية : تدرس أنواع الرسم ، واللغات ، والطبيعة وتطبيقها على الصناعات والميكانيكا ، والجغرافية ، والمحاسبة .
وفي السنة الثالثة : تدرس المواد المذكورة مع التاريخ وتطبيق الكيمياء على الصناعات ، ورسم الآلات البخارية وتركيبها .

وكان الطلبة يمارسون بعد الظهر التمرينات العملية في خمسة معامل :

أولها : معمل تركيب الآلات وتصليحها .

والثاني : معمل الحدادة .

والثالث : المسبك الذي كان يعرف بالدوكمجانة .

والرابع : معمل الخراطين والنجارين والعيثات التي يطلب عملها .

والخامس : معمل قدور القزانات الحديد والتحاس ، وفي المدرسة قسم لتعليم التلوين

بالألوان المختلفة^(١) .

(١) ص (الوقائع المصرية) عدد ٣٤١ (١٩ يناير سنة ١٨٧٠) .

- ١ - مدرسة التفراف أسست سنة ١٨٦٨ . وألغيت سنة ١٨٦٩ . ثم ألحقت بمدرسة الفنون والصنائع .
- ٢ - فرقة النقاشين أسست سنة ١٨٦٩ ، وألغيت سنة ١٨٧١ .
- ٣ - فرقة عمليات المرور أسست سنة ١٨٧٠ وألغيت سنة ١٨٧٢ ، وفرقة أخرى أسست سنة ١٨٦٨ وألغيت سنة ١٨٧٢ .

المدارس الخصوصية

وأنشأ من المدارس الخصوصية :

- ١ - مدرسة المساحة والمحاسبة ، أسست سنة ١٨٦٨ ، وتولى نظارتها نظار مدرسة الهندسة .
- ٢ - مدرسة اللسان المصري القديم (اللغة الهيروغليفية) أسست سنة ١٨٦٩ وتولى نظارتها المسيو بروكش (باشا) Brugsca العالم الألماني في الآثار المصرية وألغيت سنة ١٨٧٦ . وأشهر من نبغ من خريجى هذه المدرسة العالم الأثرى الكبير أحمد كمال باشا .
- ٣ - فرقة الرسم بالمدارس الملكية أسست سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧٩ .
- ٤ - مدرسة الزراعة أسست سنة ١٨٦٧ وألغيت سنة ١٨٧٥ .
- ٥ - مدرسة العميان والحرس ، للبنين والبنات ، أسست سنة ١٨٧٥ ، وتولى نظارتها محمد أنسى بك نجل عبد الله أبو السعود أفندى .

المدارس الثانوية

وأنشأ من المدارس الثانوية :

- ١ - المدرسة التجهيزية بالعباسية أسست سنة ١٨٦٣ ، ثم نقلت إلى درب الجامع سنة ١٨٦٨ ، وعرفت بالحدوية .
- ٢ - مدرسة رأس التين بالإسكندرية ، أسست سنة ١٨٦٣ .

المدارس الابتدائية

قلنا إن معظم المدارس الابتدائية التي أنشأها محمد علي قد ألغيت في أواخر عهده ، ولم يجدد بلغا في عهد عباس وسعيد ، فبذل إسماعيل جهوداً كبيرة في إنشاء المدارس الابتدائية في القاهرة وفي مختلف العواصم .

ويرجع الفضل في إنشاء هذه المدارس إلى شريف باشا ، ثم إلى علي باشا مبارك ، الذي فكر في تحويل التعليم في الكتاتيب إلى التعليم الابتدائي النظامي ، وكان عدد الكتاتيب وفتند نحو خمسة آلاف كتاب .

وهالك بيان ما أنشأه إسماعيل من المدارس الابتدائية :

مدرسة المتبديان بالعباسية أنشئت سنة ١٨٦٣ ثم نقلت إلى الناصرية ثم إلى المنيرة .

مدرسة رأس النيل الابتدائية بالإسكندرية أسست سنة ١٨٦٣

مدرسة طنطا (بينها) أسست سنة ١٨٦٨

مدرسة أسيوط أسست سنة ١٨٦٨

مدرسة بنى سويف أسست سنة ١٨٧٢

مدرسة المنيا أسست سنة ١٨٧٣

مدرسة القرية أسست سنة ١٨٧٢

مدرسة الجمالية أسست سنة ١٨٧٣

مدرسة الحسينية أسست سنة ١٨٧٩

مدرسة باب الشعرية أسست سنة ١٨٧٤

مدرسة عابدين أسست سنة ١٨٧٩

مدرسة مصر القديمة أسست سنة ١٨٧٩

مدرسة أبو العلا ببولاك (عباس) أسست سنة ١٨٧٢

مدرسة السيدة زينب (محمد علي) أسست سنة ١٨٧٢

مدرسة شيخون أسست سنة ١٨٧٣

مدرسة العقاديين أسست سنة ١٨٧٢

مدرسة النحاسين أسست سنة ١٨٧٢

مدرسة الإمام الشافعي أسست سنة ١٨٧٩

مدرسة الحبانية أسست سنة ١٨٧٢

مدرسة رشيد أسست سنة ١٨٧٦

مدرسة الفشن أسست سنة ١٨٧٩

ويضاف إلى هذه المدارس مدرسة (الصلية) ، وقد كانت مكملاً لأنشائه والدة عباس باشا الأول ، وضم إلى المدارس الابتدائية سنة ١٨٧٢ ، ومدرسة قلاوون ، والشيخ صالح للبنين ، ومدرسة محمد بك سيد أحمد ، ومدرسة حافظ باشا بالإسكندرية ، ومدرسة البوصيري ، ومدرسة راتب باشا بالإسكندرية أيضاً .
ومدرسة (خليل أغا) ، أنشأها كبير أغاوات والدة إسماعيل ، قرب المسجد الحسيني بالقاهرة ، ثم انتقلت أخيراً إلى شارع الأمير فاروق .
ومدرسة القبة التي أنشأها الأمير محمد توفيق باشا ولي العهد على نفقته الخاصة .

الحفلات المدرسية

كان الحديو إسماعيل شديد الميل إلى إقامة الحفلات المدرسية التي تختم بها الامتحانات العامة في المدارس على اختلاف درجاتها ، وكان لهذه الحفلات مظهر فخم في ذلك العصر ، إذ كان يحضرها كبار رجال الدولة ، وتوزع فيها الجوائز والمكافآت على المتقدمين من الناجحين ويلقى فيها الأساتذة ونوابغ الطلبة الخطب والقصائد . فكانت هذه الحفلات من عوامل النهضة العلمية . وبذلك على مبلغ عناية الحكومة بها أن (الوقائع المصرية) وهي الجريدة الرسمية للحكومة كانت تعنى بوصف كل حفلة مدرسية وتشركل ما يلقي فيها من الخطب والقصائد ، تسجيلها . وتعطيها لقائلها ، وتجد في (الوقائع المصرية) بيانات مستفيضة عن هذه الحفلات وأسماء من يحضرونها من رجال الدولة وأعلام الأدب والعلم في ذلك العصر ، وأسماء الأساتذة والطلبة الذين يخطبون فيها .

الأزهر

ظل الأزهر الجامعة الإسلامية التي تدرس فيها علوم الدين والفقه واللغة ، وكان التعلم فيه يتبع الأساليب القديمة التي درج عليها من سالف العصور .

وقد بدأت روح الإصلاح والتقدم تتمشى فيه من عهد ولاية الشيخ محمد العباسي المهدي مشيخته سنة ١٨٧١ .

وباكورة الإصلاح فيه إنشاء نظام الامتحانات لتخريج العلماء والمدرسين سنة ١٨٧٢ فقد كان التدريس في الأزهر خلواً من القيود ، فوضع الشيخ العباسي نظاماً لامتحان العلماء ، وألف لهذا الغرض لجنة برآسته مؤلفة من ستة من كبار العلماء اثنان من الشافعية وهما الشيخ خليفة الصفقي ، والشيخ أحمد شرف الدين المرصفي ، واثنان من المالكية وهما الشيخ أحمد الرفاعي والشيخ أحمد الجزاوي ، واثنان من الحنفية ، وهما الشيخ عبد الرحمن البحراوي ، والشيخ عبد القادر الرفاعي .

ومهمة هذه اللجنة امتحان المرشحين للعالية في مختلف العلوم وإعطاء الناجحين منهم إجازة العالية ، وكان تأليف هذه اللجنة أساس النظم الجديد في الأزهر .

وجاء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر سنة ١٨٧١ ، فنفخ في الأزهر روح النهضة ، وغرس بذور التقدم الفكري والعلمي ، وقد بدت ثمارها بظهور المدرسة الحديثة التي حمل لواءها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في الأزهر وخارج الأزهر .

البعثات

أعاد إسماعيل عهد البعثات التي ازدان بها عصر محمد علي من قبل ، وأخذ يوفد الطلبة إلى مدارس أوروبا مند سنة ١٨٦٣ ، وبلغ عددهم مدة حكمه ١٧٢ طالب ، وهو كما ترى أقل من عدد البعثات في عصر محمد علي .

وأنشأ مدرسة لأعضاء البعثة في باريس بدل المدرسة التي أنشأها محمد علي لهذا الغرض

وأقلت في أواخر عهده كما بناه ، عصر محمد علي « (١٥٢) » ، لكن المدرسة التي أنشأها إسماعيل أقفلت بعد نشوب الحرب السبعينية .

مدارس الأقباط الأرثوذكس

ونشط الأقباط إلى إنشاء المدارس لتعلم أبنائهم ، ويرجع معظم الفضل في هذه النهضة إلى جهود الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط الأرثوذكس .

فصار لهم في عهد إسماعيل نحو ١٢ مدرسة بالقاهرة ، أهمها المدرسة البطريركية الكبرى ، ومدرسة مصر القديمة ، وأخرى بالجيزة . ومدرستان بالإسكندرية ومدرسة إكليريكية لتعلم اللاهوت واللغات القبطية والطقوس الدينية ، ونشطوا إلى تعلم البنات فأنشأوا لذلك مدرستين ، واحدة بحارة السقاين ، وأخرى بالأزبكية .

وقدم منح إسماعيل مدارس الأقباط مساعدات جملة أهمها أنه وهبها ١٥٠٠ فدان من أجود أطيان القطر ، ليخصص ريعها على التعلم فيها ، فكان هذا الريع يفي بمعظم ما يفتق على هذه المدارس .

المدارس الأوروبية

كثرت عدد المدارس الأوروبية التي فتحتها البعثات الدينية للبنين والبنات ، فبلغ عددها في عهد إسماعيل ٧٠ مدرسة^(٥) ، ولم تنتشر في أي عهد يمثل ما كثرت في عهده .

وقد خرجت عدداً كبيراً من رجال الأعمال والمهن وموظفي الحكومة ، وخاصة موظفي البريد والسكك الحديدية والمحال التجارية والبنوك وتراجمة القنصليات والمحاكم المختلطة ، ونال كثير منهم الحمايات الأجنبية بواسطة القناصل ، فصاروا في حكم الأجانب في انتمائهم للدول الأجنبية ، وميولهم إليها ، وعدم خضوعهم للنظم الأهلية القضائية والإدارية .

(٥) كتاب إحصاء مصر سنة ١٨٧٣ ص ٢٥٧

وزارة المعارف

قلنا إن إسماعيل أعاد ديوان المدارس (وزارة المعارف) بعد أن ألغى في عهد سعيد . ولما تقدمت نهضة التعليم خصص لوزارة المعارف سراي الأمير فاضل بدرج الجواميز . وهي سراي فخمة وسعت ديوان المدارس وبعض المعاهد العلمية ، كمدرسة المهندسخانة ومدرسة الحقوق ، ومدرسة المساحة والمحاسبة ، والمدرسة التجهيزية ، ودار الكتب . ومعمل الطيعة والكيمياء ، ومدرج المحاضرات (الافتياترو) ، فصارت بمنزلة الجامعة المصرية ، وكان اختيار هذه السراي إجابة لاقتراح العلامة علي باشا مبارك حينما ولي وزارة المعارف . وتعاقب على وزارة المعارف في عهد إسماعيل الوزراء الآتية أسماؤهم :

إبراهيم أدهم باشا (يناير - يولييه سنة ١٨٦٣) . شريف باشا (يولييه سنة ١٨٦٣ - أبريل سنة ١٨٦٨) . علي مبارك باشا (أبريل سنة ١٨٦٨ - سبتمبر ١٨٧٠) . مصطفى بهجت باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٠ - مايو سنة ١٨٧١) . علي مبارك باشا (مايو سنة ١٨٧١ - أغسطس سنة ١٨٧٢) . الأمير حسين كامل باشا (أغسطس سنة ١٨٧٢ - أغسطس سنة ١٨٧٣) . مصطفى رياض باشا (أغسطس سنة ١٨٧٣ - مايو سنة ١٨٧٤) . محمد ثابت باشا (مايو سنة ١٨٧٤ - سبتمبر سنة ١٨٧٤) . الأمير طوسون باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٤ - أغسطس سنة ١٨٧٥) . يحيى منصور باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٥ - يولييه سنة ١٨٧٦) . مصطفى رياض باشا (يولييه سنة ١٨٧٦ - أكتوبر سنة ١٨٧٧) . إسماعيل باشا أيوب (أكتوبر سنة ١٨٧٧ - أغسطس سنة ١٨٧٨) . علي باشا مبارك (أغسطس سنة ١٨٧٨ - أبريل سنة ١٨٧٩) . محمد ثابت باشا (أبريل سنة ١٨٧٩ - يولييه سنة ١٨٧٩) .

ميزانية التعليم

كان إسماعيل يتفق بسخاء على التعليم ، فقد كانت ميزانية المعارف في عهد سعيد لا تتجاوز ستة آلاف جنيه^(٦) ، فزادها إسماعيل إلى أربعين ألفاً ، ثم بلغت كما ذكر علي باشا مبارك^(٧)

(٦) إدوين دي ليون مصر الحديث ص ١٦٢

(٧) المخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩



علي باشا مبارك

زعيم نهضة العلم والتعليم في عصر إسماعيل

(١٨٢٤ - ١٨٩٣)

٧٥.٠٠٠ جنيه ، منها ٤٨.٠٠٠ من وزارة المالية (الميزانية العامة) و ٢٠.٠٠٠ من إيرادات نفتيش الوادي ، و ٧.٠٠٠ من ديوان الأوقاف ، وكان التعليم في معظم المدارس مجانياً . ثم نقصت ميزانية وزارة المعارف في أواخر عهد إسماعيل بسبب الارتباكات المالية التي سببها قروضه ، فهبطت إلى ٢٠.٠٠٠ جنيه .

على باشا مبارك

زعيم نهضة العلم والتعليم في عصر إسماعيل

(١٨٢٤ - ١٨٩٣)

إن الحديث عن تقدم التعليم في عهد إسماعيل يستتبع الكلام عن العلامة على باشا مبارك ، فإن اسمه مقرون بهذه النهضة المباركة . في تاريخنا القومي شخصيات مجيدة ، تعد أركاناً للنهضة القومية ، لما لها من الأثر البالغ في تطورها ، وتوجيهها إلى المثل العليا في شتى مظاهرها ، من الناحية الأخلاقية والوطنية ، أو العلمية والأدبية ، أو الاقتصادية والاجتماعية .

ومن واجب الوفاء لهذه الشخصيات أن نذكرها دائماً بالخير ، ونخصص لها ما هي جديرة به من البحث والدرس ، ولا غرو فالشخصيات المجيدة في تاريخ مصر هي كالكواكب النيرة في سماء النهضة القومية .

وقد بذلنا ما استطعنا من جهد لدراسة تلك الشخصيات في الأجزاء الثلاثة السابقة من تاريخ الحركة القومية ، كلما عرضت المناسبة للكلام عنها ، وهنا ، لمناسبة التعليم والنهضة العلمية في عصر إسماعيل ، نرى حقاً علينا أن ننبئ ببعض هذا الواجب نحو العلامة على باشا مبارك ، فهو عماد هذه النهضة ، وقلوبها النابض ، ورأسها المدبر ، وهو من الشخصيات الفذة التي سطعت سطوعاً قوياً في عهد إسماعيل ، ويعد تاريخه قطعة من هذا العصر ، والعصور التي تلت ، إلى عصرنا الحاضر ، وإلى ما شاء الله .

نشأته الأولى (٨)

ولد المترجم في برنبال الجديدة ، من أعمال مركز دكرنس بمديرية الدقهلية سنة ١٨٢٤م (١٢٣٩ هـ) ، أبوه الشيخ مبارك بن سليمان بن إبراهيم الروجي من أهالي هذه الناحية ، وجدته الأعلى من ناحية كوم بنى مراس والخليج على بحر طناح . من أعمال مركز المنصورة ، «ولفشل كبير حصل في هذا البلد تشتت عائلته ، فأقام جده الأكبر إبراهيم الروجي في برنبال الجديدة ، ونال فيها مكانة عالية ، فكان إمامها وخطيبها وقاضيا ، وبقيت هذه المكانة في نسله ، حتى عرفت عائلتهم بعائلة المشايخ» .

ولاضطهاد وقع بأهل برنبال وإرهاقهم بالضرائب الثنيلة هاجرت عائلة مبارك ، وتفرقت في البلاد ، فنزل والد المترجم بعزبة الحمادين من بلاد النرقية (بمركز فاقوس الآن) ، وكان ابنه لم يبلغ السادسة من عمره ، ولم تطب لهم الإقامة في هذه البلدة ، إذ لم يلقوا فيها إكراماً ، فارتحلوا منها إلى عرب الساعنة بالشرقية ، فأحسنوا وفادة والد المترجم ، وأكرموا مثواه ، ولم يكن في بلدتهم فقهاء ، فجعلوه مرجعهم في الأحكام الدينية ، وبنوا مسجداً جعلوه إمامه ، ولما بدأ يستريح من الشدائد التي عاناها قبل أن يهبط هذا البلد ، أخذ يعنى بهذيب ابنه وتعليمه ، وكان المترجم قبل رحيله من برنبال ، قد بدأ يتعلم القراءة والكتابة على يد رجل ضرير من أهلها ، فلما استقر بأبيه المقام بين عرب الساعنة ، أخذ يعلمه بنفسه ، ثم أسلمه إلى فقيه اسمه الشيخ أحمد أبو خضمر ، أصله من ناحية الكردى (وهي بلدة قريبة من برنبال) ، ثم ارتحل إلى قرية صغيرة على مقربة من مساكن أولئك العرب ، وهناك حفظ المترجم على يده القرآن في سنتين .

وكان الشيخ يقسو في معاملته ويضربه . كما هي عادة الفقهاء والمعلمين مع تلاميذهم في ذلك العصر . فامتنع عن متابعة القراءة عليه ، وأبى أن يذهب إليه ، وجعل يقرأ عند أبيه ، لكن أباه كان لا يستطيع التفرغ لتعليمه ، لكثرة مشاغله ، فترأخى المترجم في الحفظ والدرس . وكاد ينسى ما حفظه ، فهم أبوه أن يجبره على الرجوع إلى الفقيه . لكنه أبى أن

(٨) اعتمدنا في بيان معظم الوقائع ، على ما استخلصناه من ترجمة على باشا مبارك لنفسه في المخطوط التوقفية ج ٩

يعود إليه ، وحديثه نفسه بالحرب ، لما كان يجده من سوء المعاملة ، فتدخل أخوته في الأمر ، فأبدى لهم نفوره من الحفظ ، وأعرض عن أن يكون « فقيهاً » ورغب أن يكون « كاتباً » لما كان يراه على الكتاب من حسن الهيئة والقربى من الحكام .

وكان لأبيه صديق كاتب بناحية (الإخيوه) ، فأسلمه إليه ليتعلم الكتابة على يديه ، فلأزمه في داره يتعلم عنه ، ولكنه رأى منه قسوة وغلظة ، وناله منه أذى شديد ، إذ سأله يوماً عن الواحد فأجابه باثنين ، فصره بمقلاة بن ، فشح رأسه ، وكان ذلك على ملامن الناس ، فشكاه إلى أبيه ، فلم يحفل بشكايته ، فهرب ، وانتهى به المطاف إلى العودة وحيداً إلى برنبال ، وهناك وافاه أخوه الذي كان يبحث عنه ، فأعاده إلى أبيه ، وقد حار في معالجته وتعليمه ، وأبدى المترجم نفوراً من الرجوع إلى الكاتب أو الفقيه ، لما رأى منها من الإيذاء والضرب .

فارتأى أبوه أن يعهد به إلى صديق له من كتبة المساحين ، فرضى بذلك . ولأزمه ثلاثة أشهر ، ثم انفصل عنه ، وبقي في بيت أبيه يقرأ عليه ، وبعد سنة جعله مساعداً لكاتب في مأمورية أبي كبير ، بمرتب قدره خمسون قرشاً ، ولكن الكاتب لم ينقده أجره ، إلى أن تسلم يوماً حاصل الجباية من أبي كبير ، فأخذ منه راتبه المتأخر ، فنقم منه الكاتب وأغرى به مأمور أبي كبير ، واتفق وإياه على تجنيده ، فاستدعاه المأمور واعتقله ، ووضع الغل في عنقه ولبث في السجن بضعة وعشرون يوماً ، قاسى فيها مر الشدائد والآلام ، ولما علم أبوه بسجنه رفع ظلامته إلى محمد علي باشا عزيز مصر ، وكان إذ ذاك في منيا القمح ، فكتب باخلاء سبيله ، وإطلاق سراحه ، وعاد أبوه بالأمر ليطلب من المأمور تنفيذه ، وقيل أن يحضر جاء السجن صديق للسجان ، وأفضى إليه أن مأمور زراعة القطن بناحية أبي كبير في حاجة إلى كاتب ، فذله السجان على المترجم ووصفه له بالنجاة ، وحسن الخط ، وبعد قليل جاء أمر الإفراج ، وذهب إلى مأمور الزراعة ، وكان أسود حبشياً يدعى (عنبر أفندي) فاتخذته كاتباً عنده مقابل جراية يومية من الحنيز ، وخمسة وسبعين قرشاً في الشهر ، فارتضى هذا العمل ، وكانت سماحة أخلاق عنبر أفندي وطيته مما رغب إليه البقاء في هذه الوظيفة .

ما يؤخذ من نشأته الأولى

إلى هنا ليس في نشأة المترجم الأولى شيء مما يلفت النظر ، لكنها تصلح أن تكون صورة

مصغرة للحياة الاجتماعية في ذلك العصر .

فانتقال عائلة المترجم من بلد إلى بلد . من كوم بني مراس على بحر طناح ، إلى برنبال باقصى الدقهلية شمالاً . ثم إلى الساعنة بالشرقية . كان نتيجة سوء معاملة الحكام للأهلين في ذلك العصر ، وإرهاقهم بالضرائب الجزرة . مما اضطر تلك العائلة . وكثيراً مثلها ، إلى الرحيل فراراً من المطالب التي لم يستطيعوا أدائها ، بعد أن تجردوا من ماشيتهم ومتاعهم ، وتشدد الحكام في استخلاصها بالسجن والضرب ، فلم يجدوا مخلصاً من هذه المظالم سوى الهجرة من موطنهم ، وهذا يعطينا صورة من مظالم الحكام في ذلك العهد ، إذ لم يكن ثمة قانون يمنع ظلم القوى عن الضعيف ، ويحول دون اعتداء الحاكم على المحكوم ، ولا ضرائب منتظمة معلومة المقدار ، يعرف كل إنسان حدود ما عليه منها ، بل كانت متروكة لأهواء الحكام والرؤساء ، فلا جرم أن استهدف آل المترجم للتجرد من متاعهم وماشيتهم ، ثم إلى السجن والضرب ، ثم إلى الهجرة والتنقل من بلد إلى بلد . فراراً من المظالم .

وهذه النشأة تعطينا من جهة أخرى صورة لما كانت عليه حالة التعليم قبل أن يألف الناس المدارس الحديثة ، فإن فكرة تعلم الأبناء كانت موجودة عند الآباء الذين نالوا حظاً من العلم ، بذلك على ذلك ميل والد المترجم إلى تعليم ابنه قدر ما يستطيع ، لكن طريقة التعليم كانت رديئة . لا تشر في تنمية الفكر وتهذيب النفس ، ففقيه القرية وكاتب الإخيوه ، وأمثالها من الفقهاء والعرفاء ، كانوا من الجهل والقسوة بحيث لا يتج التعليم على أيديهم سوى الجهالة ، وبث روح الخوف والجبين في أخلاق الشباب ، لأن القسوة والضرب يقتلان في نفس التلميذ روح الشجاعة والأخلاق الفاضلة .

وليس في نشأة المترجم الأولى حالة غير عادية تجعل منه رجلاً يختلف عن معاصريه ، ولم يكن أمراً واحداً يلفت النظر ، ذلك هو نفوره من الذل . ومحافاته قسوة المعلم ، فقيهاً كان أو كاتباً ، أفلا تراه يؤثر الهجرة على احتمال القهر والضرب ؟ ثم ألا تراه كأنما يتقدم عصره ويبدع معاصريه ، فيتطلع إلى أسلوب في التعليم أرق من الأسلوب العتيق الذي كان مألوفاً في عصره ؟

إن هذه ظاهرة تدل على أن نفس الفتى الصغير ، تأبى الذل ولا تقم على الضيم ، وذلك ينسب عن سمو الخلق ، لأن إياه الذل يدل على نفس عزيزة . وعزة النفس تجمع حولها سطواً من الأخلاق الكريمة ، ولا مراء في أن تلك النفس العزيزة كانت من أسباب نبوغ المترجم .

فهو رضى بالذل والهوان ، لاستمر في طريقه ، ولم يتجاوز أن يصير كاتباً صغيراً ، مرهوساً
لمثل غير أفندي ، ولكن انظر إلى ما حدثه به نفسه - وهو يشغل هذه الوظيفة - تجد نفساً
متوثية كانت تختلج بين جوانح المترجم .

فقد روى عن نفسه أنه لما اشتغل كاتباً لعنبر أفندي رأى منه رافة ، وشفقة وحسن معاملة ،
تختلف عما لقيه من كاتب أبي كبير ، لكنه شعر بأن لو كان غير أفندي على غرار ذلك
الكاتب ، لما وجد من ينقذه من قسوته وسوء معاملته ، ومن ثم اتجهت نفسه إلى أن يكون
بجالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها ، كما يقول المترجم .

فهذا الشعور ، هو فيض النفس العزيزة التي تأتي الهوان ، وتطمح إلى المعالي ، وهو شعور
كريم ، كان له أثره في حياة على مبارك .

وإن سمو هذا الشعور ليدعونا في إعجاب ، أن نتساءل من أين اقتبسه ؟ وكيف اختص به
دون أقرانه في القرية ؟ إن هذا هو سر نبوغ العظماء ، لا تجد له تعليلاً دقيقاً ، فإذا علته بتأثير
البيئة أو الوراثة ، اعترضك في هذا أن النابغة قد ينشأ وغيره من الناس في بيئة واحدة ، ومن
أب واحد . وأم واحدة ، ومع ذلك يفرّد بالنبوغ دون أقرانه وأخوته .

قد يكون السر في النبوغ هو الاستعداد الفطري للنبوغ ، يولد مع صاحبه ، أو هو الإلهام
الذي يودعه الله نفس النابغة ، أو هو التوفيق والعناية الإلهية . لك أن تفسره بمعنى من هذه
المعاني ، أو بها كلها مجتمعة ، ولكن علينا أن نحسب حساباً لتأثير الوسط والوراثة ، فلا شك
أن على مبارك قد اقتبس شيئاً من أخلاق أبيه ، فقد كان جده الأكبر رجلاً « معظماً
مكرماً » ، نزل بلدة برنبال ، ولم يكن من أهلها ، فصار إمامها وخطيبها وقاضياً ، وبعد وفاته
بقيت هذه الوظيفة في نسله ، طبقة بعد طبقة ، فلو لم يكونوا على أخلاق فاضلة ، ونفوس
طيبة ، لما احتفظوا بهذه المترلة ، حتى صارت عائلتهم تعرف بعائلة « المشايخ » .

وكذلك لما هجر أبو المترجم ناحية برنبال ، وورد قرية الساعنة ، احتفظ بعزة النفس ،
ونال من أهل تلك القرية مكانة ممتازة ، أدركها بعلمه وفضله ، وإنك لتلمح عزة نفسه من
كونه لم يطق صبراً على اعتقال ابنه ، وذهب إلى منيا القمح ، حيث كان عزيز مصر « محمد
على باشا » ، ورفع إليه ظلامته ، وشكا إليه ما حاق بابنه من السجن ، فالشكوى من الظلم ،
واستصراخ ولي الأمر ، من الأمور التي تحتاج (في ذلك العصر) إلى شيء من الجرأة
والشجاعة ، فكم من المظالم كانت ترتكب ، ويستسلم لها الظالمون ، وإذا حدثتهم أنفسهم

بالشكوى منها ، فقلما تحفزهم الشجاعة إلى إبلاغها لأكبر رأس في الحكومة .
فأغلب الظن أن المترجم اقتبس عن أبيه تلك النفس العزيزة . وهذا فضل يجب أن
نسجله لوالد المترجم . الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن إبراهيم الراجحي .

نشأته الثانية في المدارس النظامية

إن طموح نفس على مبارك إلى المعالي هو الذي سلك به سبيل المدارس النظامية ، ذلك
أنه حيناً اشتغل كاتباً عند غير أفندي ، أخذ يسأل فراش المأمور عن أخبار سيده وأسباب
بلوغه هذا المركز الممتاز في الحكومة ، وكان يدعشه أن غير أفندي ، وهو أسود حبشى ، يصل
إلى هذا المنصب ، حين كان يعتقد « أن الحكام لا يكونون إلا من الأتراك على حسب ما جرت
به العادة في تلك الأزمان » ، فعلم من الفراش عن سبب ارتقائه أنه كان مشترى سيده من
ذوات المكانة والجاه ، فأدخلته مدرسة « قصى العيني » إحدى المدارس النظامية التي أنشأها
محمد على باشا ، فتعلم فيها وتخرج منها ، وصار أهلاً للمركز الذي يشغله ، وعلم أن الحكام
يؤخذون من خريجي هذه المدارس .

فلما استمع المترجم لهذا الحديث ، مالت نفسه إلى دخول تلك المدارس ، ليصل إلى
ما وصل وإليه غير أفندي ، وأخذ من تلقاه نفسه يسأل عن السبيل إلى دخول المدارس
النظامية ، وسأل الفراش : هل يدخلها أحد من « الفلاحين » ؟ فقال يدخلها « صاحب
الواسطة » فتعلقت نفسه بالسعى لدخولها . واعترم ترك العمل الذي كان يشتغل به ، والذهاب
إلى مصر ليلتحق بمدرسة قصر العيني .

دخوله مدرسة ميت العز

وما عالجها هذا العزم حتى أصر على إنفاذه ، دون أن يكشف أحداً ، فطلب الإذن من
رئيسه بإجازة يقضيها في زيارة أهله ، فأذن له بخمسة عشر يوماً ، وسافر إلى وجهته ، وفيها هو
يسير في طريقه مر بقرية بني عياض^(٩) ، والنقح بجاعة من الأطفال . يتبعون رجلاً خياطاً ،
وكل منهم يحمل دواة وقلماً ، فاجتمع بهم تحت شجرة ، وتعرف حالهم ، فإذا هم تلاميذ
^(٩) يركز معاً الآن : قبل أبي كبير بشرق .

مكتب ميت العز ، أحد المكاتب التي أسسها محمد علي باشا ، وكان ذلك فألاً حسناً للمترجم ، كما يقول عن نفسه ، إذ أنه اجتمع بالأطفال ورأى الحياض خطه أجود من خطوطهم . رغب إليه أن يدخل مكتب ميت العز ، وأفهمه أن نجباء المكاتب ينتقلون إلى المدارس دون واسطة ، فابتهج المترجم هذه الفكرة ، إذ وجد فيها بغيته التي يشدها ، ولم يكن أحب إلى نفسه من أن يسلك سبيل الدخول إلى المدارس ، ويحتاز تلك العقبة التي أشار إليها فراش المأمور في حديثه له ، وهي «الواسطة لدخول المدارس» ، ورأى أن الاجتهاد في المكتب سيغنيه عن تلك الوسطة التي قد لا يجدها .

دخل المترجم مكتب ميت العز ، وناظره من معارف أبيه ، وكان يعلم أن دخول ابنه المكتب لا يرضيه ، فأراد أن يصرفه عن دخوله ، ولكنه رأى منه إصراراً على عزمه ، فبقي بالمكتب خمسة عشر يوماً ، وأرسل الناظر ولي أبيه ، فجاء يسعى لإرجاعه عن عزمه ، فأبى ، فلهجاً ولي حيلة ينتزعه بها من المدرسة ، فاتفق مع الناظر على أن ينزه الفرصة في خروج ابنه وإلى الفسحة وقت الظهر ، فاخطفه وعاد به قسراً إلى بلده ، وحجسه في البيت عشرة أيام ، وأخذت أمه تبكي وتستعطفه ليرجع عن عزمه ، كفى يبق بينهم ولا يفارقهم ، فوعدها بالبقاء ، ولكنه أسرف في نفسه أن يغتم أقرب فرصة لفراق أهله وذويه ، والرحيل في طلب العلم ، وانتظر حتى أطمأنوا ولي عدوله عن فكرته ، ولما كانت إحدى الليالي تربع حتى ناموا جميعاً ، وأخذ دواته وأدواته ، وخرج من البيت خائفاً يترقب ، وتوجه لتقاء ميت العز ، وكان ذلك - كما يقول المترجم - آخر عهده بسكناه بين أبيه ، وكانت ليلة مقمرة ، فشى حتى بلغ ميت العز ضحى الغد ، ولم يشعر الناظر إلا وهو داخل المكتب مع زملائه التلاميذ ، وكأنما خشى أن يجيء أبوه ويحتال عليه لاخطافه ثانية ، فلزم المكتب ، لا يخرج منه ليلاً ولا نهاراً ، وجاء أبوه غير مرة ليقنعه بالعدول عن عزمه ، وبأخذه بالحسنى ، فلم ينجح في مساعاه ، واستمر الغلام ملازماً للمكتب . مكياً على الدرس والتحصيل .

انتقاله إلى مدرسة (قصر العيني)

بقى المترجم في مكتب ميت العز إلى أن جاء ناظر مدرسة الخانكة (عصمت أفندي) لاختيار نجباء التلاميذ من المكتب المذكور ليلتحقوا بمدرسة قصر العيني ، فكان التلميذ على مبارك ممن وقع عليهم الاختيار ، فجاء أبوه يحاول من جديد صرفه عن الذهاب إلى المدرسة ،

وشكا أمره إلى عصمت أفندي ، فأحاله على ابنه ، وقال إن الخيار له ، فخبروه بن العودة مع أبيه أو الالتحاق بالمدارس ، فاختر المدارس ، فبكى والده بكاء كثيراً وأغرى به جماعة من المعلمين ليستميلوه ، فلم يصغ لهم ، ودخل مدرسة قصر العيني سنة ١٨٣٦ ، وكان لا يتجاوز يومئذ الثانية عشرة من عمره .

وهنا تبدو ظاهرة جديدة في شخصية المترجم ، إلى جانب ما ذكرناه عن عزمه نفسه ، وطموحه إلى المعالي . وهي ميله الفطري إلى العلم ، وشغفه بالارتواء من منه العذب ، وما فطر عليه من قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة .

فانظر إلى مبلغ حبه للعلم ، والتعلم . تجده يسعى جهده للالتحاق بالمدارس . رغم إرادة والديه ، وليس من المألوف بين الأطفال والشبان أن يقبلوا على العلم بوازع من أنفسهم ، بل آباؤهم هم الذين يدفعونهم إلى دخول المدارس ويرغبونهم بمختلف الوسائل في متابعة الدرس ، وكثيراً ما يتعب الآباء في إيلاف أبنائهم المدرسة والإقبال عليها .

فالغلام الذي يتعلق بدخول المدارس رغم إرادة أبيه ، ويستهدف لغضبيها في هذا السبيل ، لابد أن يكون قد رسخ في نفسه شغف شديد بالعلم والتعلم .

وتجلى أيضاً قوة عزيمة المترجم ، في إصراره على دخول المدارس ، رغم تلك العقوبات التي اعترضته ، فن اغضاب والديه ، إلى بعد الشقة ، ووعورة الطريق ، إلى قلة ذات يده ، إلى صغرسنه ، إلى المغامرة بنفسه في حياة مجهلها ولا يعرف مصيرها ، كل ذلك بدل على حظ عظيم من صدق العزيمة وقوة الإرادة .

فكرة النفس ، والطموح إلى المعالي ، وحب العلم ، وقوة الإرادة ، هذه هي الصفات التي تطالعا بها شخصية على مبارك وهو بعد في سن الطفولة والمراهقة .

وسرى كيف لازمته هذه الصفات في كل أدوار حياته ، فكان لها ذلك الأثر العظيم في أعماله .

التعلم في مدرسة قصر العيني

لم تكن مدرسة الطب قد نُقلت بعد إلى قصر العيني ، حينما جاء مصر على مبارك ، بل كانت لم تزال بأبي زعبل ، أما المدرسة التي كانت بقصر العيني وقتئذ (سنة ١٨٣٦) فهي مدرسة إعدادية للمدارس الحربية والعالية .

والحساب والنحو . ويراها كالطلاسم . وكلام المدرسين فيها كالسحر . ولكن إبراهيم بك رأفت أوضح للتلاميذ معاني الهندسة وقواعدها بأسلوب تقبله عقولهم . فانفتح لحن بيانه ذهن المترجم . وبدأ يعي ما يسمع من الدروس . ولقت نجاح التلميذ على مبارك نظر رأفت بك ، فصار يضرب به المثل ، ويجعل نجاحه على يديه دليلاً على تأثير أسلوب المدرس في تثقيف أذهان التلاميذ .
وفي سنة ١٨٣٩ اختار ولاية الأمور نجباء مدرسة أبي زعبل لإلحاقهم بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، فكان على مبارك ضمن هؤلاء .

دخوله مدرسة المهندسخانة

دخل مدرسة المهندسخانة ، وكان حينئذ يافعاً ، إذ بلغ السادسة عشرة من عمره ، فأخذ نضوجه العلمي يزداد وينمو ، ومكث خمس سنوات يتابع الدرس ، حتى استكمل جميع علوم المدرسة ، وظهرت عليه مخايل الذكاء والتقدم منذ دخلها ، فكان دائماً أول فرقة ، وأساتذته فيها طائفة من علماء الرياضيات ، ممن علا ذكركم في فجر النهضة العلمية . أمثال : محمود باشا الفلكي ، وطائل أفندي ، ومحمود بك أبوسن . ودقله أفندي ، وإبراهيم بك رمضان ، وأحمد بك فايد . وسلامه باشا إبراهيم . وناظر المدرسة المسؤول أمير بك أحد علماء الفرنسيين . ول هؤلاء الأساتذة فضل كبير على المترجم ، إذ تلقى على أيديهم العلوم الهندسية والرياضية ، ولم تكن ثمة كتب مؤلفة في الفنون التي تولوا تدريسها ، بل كان المعلمون يملون ، والتلاميذ يكتبون ما يسمعونه في كراريس . كل على قدر اجتهاده ، وكان المعلمون كما شهد لهم بذلك المترجم « يبذلون غاية جهدهم في التعليم » ، وفي آخر عهده بمدرسة المهندسخانة أخذوا يطبعون الكتب في مطبعة الحجر ، فاستعان بها التلاميذ ، إلى أن تكاثرت طبع الكتب المطولة في العلوم والفنون الرياضية .

انتظامه في سلك البعثات سنة ١٨٤٤

تعددت البعثات العلمية المدرسية في عهد محمد علي باشا ، وقد تكلمنا عنها تفصيلاً في كتاب « عصر محمد علي » (ص ٤٥١ طبعة أولى) .
وتخرج من البعثات طائفة من التوابع في عصر محمد علي ، واسماعيل ، ومن حسن توفيق

سعد المترجم التعليم في تلك المدرسة ، ويؤخذ من وصفه أنه لم يكن على درجة حسنة من نفسه . لا من جهة مستوى التعليم في ذاته ، ولا من جهة معاملة التلاميذ ، فقد ذكر أنه وجد مدرسين على خلاف ما كان يظن . وأن مدرسها ورؤسائها كانوا لا يحسنون فهم وضعهم . ولا يعنون بالتلاميذ ، وكان التعليم العسكري موضع العناية فيها ، فيتمرن الطلبة عن حركات الحربية في معظم الأوقات . في الصباح ، والظهر . وبعد الأكل ، وفي أماكن خفية . وكان الضرب وأنواع الإيذاء من الأمور المألوفة في التعليم ، وكذلك قلة العناية بما أكله تلاميذ . وسكنهم ، فكانت مفروشاتهم حصر الخلفاء ، وأحرمه الصوف الغليظ من صنع معس بولاق ، ولم يكن الأكل الجاري للتلاميذ سائغاً ، فاستعاض عنه على مبارك بالجبن والخبز .

وقد اعتراه في المدرسة مرض ، لما اجتمع عليه من الأفكار والهجوم وتغيير الطقس ، فنقل إلى مستشفى المدرسة ، ولقى في مرضه الشدائد والآلام ، ولحقه الجوع بالمستشفى ، وفيما كان على فراش المرض . جاء أبوه إلى قصر العيني ، واتصل به بواسطة أحد المرضين ، وورغ إليه أن يعود معه إلى بلده ، فالت نفسه لإجابته ، وهم يترك المدارس ، لما لقيه فيها من التعب والتعب ، ولعدم وجدانه التعليم الذي يشده ، ولكنه خشى عواقب الحرب من المدرسة ، إذ كانت الحكومة تتعقب الهاربين من التلاميذ ، وتعتقل أهلهم ، وتسيء معاملتهم . فخشى أن يتال أباه من عنت الحكومة ما لا يرضاه له ، فامتنع عن الحرب ، فعاد أبوه الكرة يستميله ويؤن عليه الأمر ، فأبى واعتزم « الصبر على قضاء الله » ولما شفى انتقل من المستشفى إلى مدرسة ، واستأنف الدرس ، ولم يصب بمرض بعد ذلك أثناء دراسته .

انتقاله إلى مدرسة أبي زعبل

ولما نقلت مدرسة الطب إلى قصر العيني سنة ١٨٣٧ تحول تلاميذ القصر إلى أبي زعبل ، فنقل إليها المترجم كسائر تلاميذ المدرسة .
وقد شعر بتقدم مستوى التعليم في مدرسة أبي زعبل ، وينسب المترجم هذا التقدم إلى كثرة ناظر المدرسة ، وهو المرحوم إبراهيم بك رأفت . وحسن عنايته بتعليم النشء ، وبما ذكره في هذا الصدد ، أنه كان في بداية عهده يجد صعوبة كبيرة في فهم فنون الهندسة

المترجم وحسن استعداده أن انتظم في سلك البعثة الخامسة. وهي أكبر البعثات شأنًا ، وفيها بعض أنجال محمد علي وأحفاده ، ولذلك سميها على باشا مبارك (بعثة الأنجال) .

تولى القائد سليمان باشا الفرنساوى اختيار أعضاء هذه البعثة من توابغ طلبة المدارس العالية ، فكان التلميذ على مبارك ضمن من اختيروا لها من متقدمى مدرسة المهندسخانة ، وبلغ عددهم في مبدئها ٧٠ تلميذًا ، منهم الأمير عبد الحليم ، والأمير حسين من أنجال محمد علي ، والأمير أحمد رفعت ، والأمير إسماعيل (الحدوي) من أنجال إبراهيم باشا ، وضمت طائفة ممن شغلوا المراكز الكبيرة في الحكومة بعد عودتهم ، أمثال شريف باشا ، وعلى باشا مبارك ، وحاجد عبد العاطي باشا ، وسليمان نجاتي بك وغيرهم^(١٠) .

وقد بدا من المترجم التحاقه بهذه البعثة ، ما فطر عليه من الميل الشديد إلى العلم ، فإن المسيو لامبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة رغب إليه البقاء ليجعله مدرساً بها ، وأفهمه أن بقاءه يجعل بترتيب وظيفة له ، على حين أن التحاقه بالبعثة يجعله باقياً في سلك التلاميذ ، ويفوت عليه تلك المزية ، لكنه آثر الالتحاق بالبعثة ، ليزداد اكتساباً للعلوم ، ولأن سفره مع الأنجال يزيد شرفاً ورفعة .

سافرت البعثة إلى فرنسا سنة ١٨٤٤ ، ووجهتها تعلم الفنون الحربية ، وأقام أعضاءها ستين بباريس ، ولأجلهم أنشئت بها المدرسة المصرية لتعليم الطلبة اللغة الفرنسية ، وإعدادهم لدخول المدارس العليا بفرنسا ، وخصص لهم بها المعلمون والضباط الفرنسيون ، وكان تلاميذ البعثة يتعلمون التعليمات العسكرية كل يوم ، ولقى المترجم في دراسة اللغة الفرنسية مصاعب جمة ، ذلكها بقوة العزيمة ، فقد كان إلى عهد انتظامه في البعثة غير عارف بتلك اللغة ، شأنه في ذلك كشأن العلامة رفاعة بك رافع الطهطاوى حينما انتظم في البعثة الأولى ، واقتضى نظام التعليم في البعثة أن يجعل من المتقدمين في الرياضيات (ومنهم المترجم) والعارفين باللغة الفرنسية فرقة واحدة ، وكلف المعلمون أن يلقوا الدروس بالفرنسية للجميع ، لافرق بين من يفهم تلك اللغة ومن لا يفهمها ، ففعلوا ، وأحالوا غير العارفين بها على العارفين ليتعلموا منهم بعد انتهاء الدروس ، ولكن العارفين بالفرنسية كانوا يخلطون على مثل على مبارك بالتعليم ، ليتفردوا بالتقدم .

فكث المترجم مدة لا يفهم الدروس التي يسمعا ، وخشى العاقبة . فعالج هذه

(١٠) ذكرنا أسماءهم وترجمنا لأسماءهم في كتاب «عصر محمد علي» ص ٤٦٥ وما بعدها.

الصعوبة ، بالصبر والثابرة ، وقوة العزيمة ، ذلك أنه أخذ يدرس العربية بنفسه . واشترى لهذا الغرض الكتب الأولية في الهجاء واللغة ، وأكب على مطالعتها وتربسها وحفظها . وبدل في هذا السبيل جهداً لا ينقطع ثلاثة أشهر متوالية ، مع متابعة الدروس حتى تلقى بالفرنسية . فأتم الحفظ والجهد ثمرة كبيرة ، وصار أول البعثة كلها - وكان يشاء لأولية مع زميليه على إبراهيم وحاجد عبد العاطي .

ولما جاء إبراهيم باشا قائد الجيوش المصرية المظفرة إلى باريس ، عيّن له احتفال حافل ، وحضر امتحان أعضاء البعثة ، فسمع ثناء مستطاباً على حسن اجتهادهم . ووزع الجوائز بنفسه على الناجحين منهم ، وناول على مبارك الجائزة الثانية بيده ، وكانت نسخة من كتاب في الجغرافية ، لمؤلفه المسيو مالطرون ، مع مجموعة خرائطه ، ودعا الطلبة إلى تناول الطعام على مائدته ، فكان ذلك تكريماً لهم وتشجيعاً ، وحثاً لهم على متابعة الدرس والتحصيل .

يتجلى في هذه الصفحة من حياة المترجم بباريس ، مبلغ قوة إرادته ، ومثابرتة على الدرس والتعلم ، وثمة ظاهرة أخرى ، تزين هذه الصفحة ، وهي بره بوالديه ، وحنوه عليهما ، فقد أجرت عليه الحكومة مرتباً شهرياً قيمته خمسون ومائتا قرش ، فجعل نصفها لأهله ، بصرف لهم من مصر كل شهر ، ويكتفى هو بالنصف الآخر ، وكانت هذه سته معهم منذ دخل المدارس .

وهذا البر بالأبوين يدل على ما تجملت به نفس على مبارك من الوفاء ، ومكارم الأخلاق ، وإنكار الذات ، ولا شك أن هذه المزايا مما يزين شخصية المترجم ويزيدها سطوعاً وبهاء .

التحاقه بمدرسة متز الحربية

ولما انقضى عامان على إقامة البعثة بباريس ألقى الثلاثة الأول من أعضائها ، وهم على مبارك ، وحاجد عبد العاطي ، وعلى إبراهيم ، بمدرسة المدفعية والمدرسة الحربية الشهيرة بمتز Metz ، وتالوا رتبة الملازم الثاني في الجيش الفرنسي ، فأقاموا ستين آخرين يتعلمون الفنون الحربية .

وبعد أن أدوا الامتحان النهائي ألقوا بالجيش الفرنسي ، فكان على مبارك في الألى

الثالث من فرقة المهندسين الحربية ، وقضى به أقل من سنة ، وبدى به أنه اكتسب بانتظامه في هذه الفرقة خبرة كبيرة ، في الفنون الحربية والهندسية ، فزادت معارفه التي نالها في مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ومدرسة باريس ، ومدرسة متزا الحربية والهندسية . فلا غرو أن صار من نوابغ المهندسين المصريين ، وظهر نبوغه في إدارته مصلحة السكك الحديدية ، وولايته وزارة الأشغال في عصر إسماعيل .

وكان إبراهيم باشا يرغب في أن يزداد أعضاء البعثة خبرة وعلماً . وأن يطبلوا مكثهم في الخدمة العسكرية بفرنسا ، حتى يستوفوا تجاربها ، ثم ينتقلون في الديار الأوروبية الأخرى ليطبقوا العلم على العمل ، ويشاهدوا ما فيها من المنشآت الهندسية والحربية . ولكن المنية حالت دون إنفاذ هذا البرنامج ، إذ توفي إبراهيم وخلفه عباس الأول ، فطلب إلى نوابغ البعثة العودة فوراً إلى مصر ، فرجعوا إليها سنة ١٨٥٠ ، وانتقل المترجم بذلك من حياة التحصيل والدراسة ، إلى دور العمل والإنتاج .

عمل المترجم في عهد عباس

عاد المترجم كامل النضوج ، واسع الإطلاع ، صادق العزم ، مقبلاً على العمل بكل ما فيه من نشاط وهمة ، ولو وجد من ولاة الأمور من يستثمر مواهبه وكفاءته في النهوض بأعمال التقدم وال عمران ، لظهرت نتائج هذه المواهب حين عودته إلى مصر ، لكنه لم يجد من يقدر قيمته ، ويستثمر كفاءته ، فانقضت نحو أربعة عشر عاماً ، والبلاد تكاد تحرم من أعماله المنتجة ، وخاصة في عهد سعيد الذي كان يخسه حق ، ولا يعرف قدره . ولم يبدأ عهد إنتاجه الكبير إلا في عصر إسماعيل الذي عرف كيف يوجه هذه القوة إلى إحياء النهضة العلمية في البلاد .

تعيينه مدرساً بمدرسة طره الحربية

كان أول مركز شغله على مبارك بعد عودته لمصر أن عين مدرساً بمدرسة طره الحربية ، ولكن التعليم في عهد عباس باشا الأول كان مصاباً بالجمود والإهمال ، فتناقص عدد التلاميذ في هذه المدرسة ، وخاصة حينما أنشأ عباس مدرسة المفروزة ، واختارها الطلبة من جميع

المدارس ، بعد إلغاء معظمها . فلم يبق بمدرسة طره إلا عدد قليل من الطلبة المتقدمين في السن . وأمعت المدرسة في تأخر حتى لم يبق في الفرقة التي يلقى فيها على مبارك دروسه سوى تلميذ واحد .

صار المترجم إذن بلا عمل . وليس هذا مما تحمّل إليه نفسه ، لأنه اعتاد الجهد والدأب على العمل . ولقد حدثته نفسه أن يتخلف عن المدرسة في إجازة ليزور أهله بعد غيبته الطويلة عنهم . فرغب إليه ناظر مدرسة في البقاء حتى لا يقطع نصف راتبه إذا هو غاب عنها .

مصاحبته سليمان باشا الفرنساوي

وسعى له الناظر عند الجنرال سليمان باشا الفرنساوي القائد العام للجيش المصري ، ليصطحبه في مهمة حربية وهي اكتشاف بحيرة المتزلة وسواحل مصر الشمالية ، فم له ما أراد . وصحب المترجم سليمان باشا إلى دمياط ، وأدى ما كان مطلوباً منه ، وهو ارتياد بحيرة المتزلة ، وخطط رسماً مفصلاً لمواقعها ، وكتب تقريراً عنها ثم ذهب إلى بلده برنال ، وكان أهله قد رجعوا إليها منذ مدة واستقروا بها .

زيارته لأهله

فدخل البلدة ليلاً على حين غفلة من أهلها ، وذهب من فوره إلى منزل أبويه ، وطرق الباب ، وكان أبوه غائبا بمصر ، ولم يكن بالدار سوى والدته وبعض إخوته ، وكان قد فارق أمه منذ أربع عشر سنة . ولم تكن تتوقع حضوره تلك الليلة ، فلما طرق الباب ، قبل من أنت ؟ فقال : ابنكم البار ، فقامت مدهوشة ، وقصدت إلى ما وراء الباب ، وجعلت تنظر وتتمعن النظر ، لتتحقق الخبر ، وكان هو بردائه العسكري ، متقلداً سيفه وحاملاً شعار الضباط ، فلم تصدق أنه هو ، حتى أعادت سؤاله وتحققت أنه هو ، ففتحت الباب ، وما أن رآته حتى ارتمت عليه تعانقه ، ووقعت مغشياً عليها من الدهشة والفرح والتأثر ، ثم أفادت وجعلت تبكي ، وتضحك ، وترغد ، فأقبل أهل البيت ، وجاء الأقارب والجيران يهرعون ، وامتألت بهم الدار ، وانقضى الليل حتى الصباح ، والناس بين رائح وغاد ، يجيئون لهنته ، وأقامت أمه الأفراح ابتهاجاً بعودة ابنها العزيز ، وبلوغه هذه الدرجة العالية ، وبعد يومين قضاهم

بين أهله وعشيرته ، عاد إلى دمياط ، وعرض على القائد سليمان باشا الفرنساوى نتيجة تجواله في بحيرة المتزلة ، فوُقت عنده موقع الاستحسان ، وأثنى عليه الثناء المستطاب .

التحاقه بجمعية عباس باشا

وفي أثناء صحبته سليمان باشا الفرنساوى سعى له في منصب آخر بدلاً من التدريس في مدرسة طره ، فنجح في إلحاقه بجمعية جاليس بك قومندان الاستحكامات ، وكان مقره الإسكندرية .

فذهب إليها المترجم ليتسلم منصبه الجديد ، ولكن عباس باشا قرر أن يلحقه بجمعيته هو وحماد بك ، وعلى بك إبراهيم . وكلفهم إمتحان مهندسى الأقاليم ومعلمى المدارس ، وأنتم عليهم برتبة الصاغ ، فأدى المترجم هذه المهمة ، واستبدل بالمهندسين القداماء مهندسين أكفأ من غربيى مدرسة المهندسخانة ، وأنتم في خلال ذلك مهات أخرى هندسية ، إذ أُحيل عليه الكشف على شلال أسوان لدرس مشروع تسهيل الملاحة فيه ، فقدم تقريراً وافياً بهذا المشروع .

ولما عاد إلى القاهرة عهد إليه عباس بالاشتراك مع المسيو موجيل بك Mougel كبير مهندسى القناطر الخيرية وضع نظام مرور السفن من القناطر التى كان بناؤها قد قارب التمام ، فأدى هذه المهمة ، وأحيلت عليه وعلى زميله على إبراهيم وحماد عبد العاطى كل الأعمال الهندسية التى تطلبها دواوين الحكومة .

مشروع تنظيم المدارس

وشرع عباس في وضع نظام جديد للمدارس ، بعد أن ألقى معظمها ، ففي أواخر سنة ١٨٥١ عرض عليه المسيو لامبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة ميزانية للمدارس الملكية والرصدخانة تبلغ ٢٠,٠٠٠ كيس (١٠٠,٠٠٠ جنيه) ، فاستكثر عباس هذا المبلغ ، وأحال المشروع على المترجم ، فوضع للمدارس الملكية ميزانية تبلغ خمسة آلاف جنيه ، على أن تكون في مكان واحد ، وبإدارة ناظر واحد ، واستبعد الرصدخانة من المشروع ، لعدم وجود من يقوم عليها حتى القيام ولكثرة نفقاتها .

نظارته لمدرسة المهندسخانة

ولما عرض المشروع على عباس حاز إعجابيه ، وأحالته على مجلس مؤلف من رؤساء الدواوين ، فبحثوه وأقروه ، وأنتم على المترجم لهذه المناسبة برتبة أميرالاي . وعهد إليه بتنفيذه ، وجعله ناظراً لمدرسة المهندسخانة وما يلحق بها من المدارس الملكية ، وكلفه اختيار مدرسى مدرسة المفروزة ، ووضع نظام للتعليم فيها ، واختيار ما يلزم لها من الكتب ، فاضطلع بهذه المهمة ، وعظمت منزلته عند عباس باشا .

وبذل جهداً عظيماً في ترقية شأن المدارس التى تولى إدارتها ، فكان يرشد المعلمين إلى خير الطرق للتدريس ، ويفقد فصول الدراسة وأحوالها ، ويقوم بتأليف الكتب المدرسية بنفسه ، يعاونه بعض المعلمين ، وأنشأ مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها للمدارس الحرية والآيات الجيش نحو ستين ألف نسخة ، من كتب متنوعة ، غير ما طبع في كل فن بمطبعة الحجر للمهندسخانة ، من الكتب ذات الأطالس والرسوم ، وكان فوق ذلك يلقي بعض الدروس ، كالطبيعة والعمارة ، ويعنى شديد العناية بتوفير حاجات الطلبة في مأكلهم ، ومشربهم ، وملبسهم ، ويسهر على حسن معاملتهم ، فارقت حالتهم الفكرية والمعنوية ، وكاد يتمتع الضرب والسجن من المدارس .

في عهد سعيد باشا اشتراكه في حرب القرم

يؤخذ مما كتبه المترجم عن نفسه أنه لم يكن مرضياً عنه من سعيد باشا ، فقد ذكر عنه أنه لما تولى الحكم وشى له بعض الكاشحين بمدرسة المهندسخانة ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة ، واختلفوا عليها معابب كثيرة ، حتى أوغروا صدر سعيد على المترجم فأمره بالاشتراك في حرب القرم سنة ١٨٥٤ ، صحبة الحملة المصرية التى كان يقودها أحمد باشا المنكلى . وليس من ضرير على الحكومة إذا عهدت إلى مثل على بك مبارك أن يشترك في حرب القرم . فقد نال حظاً كبيراً من التعليم الحرى ، وتخرج في أرقى المدارس الحرية الفرنسية ، ولكن ملابسات هذا العمل تدل على أن الغرض منه لم يكن الاستفادة من خبرة المترجم ،

إذ لم يعهد إليه في حرب القرم بعمل حرى ذى شأن ، نحر من أجله مدرسة المهندسخانة كفاءة ناظرها القدير ، ومن جهة أخرى فقد اقترن تكليفه مرافقة الحملة بإلغاء مدرسة المهندسخانة ، فالغرض الحقيقي كان إذن إبعاد المترجم ، وإقال هذا المعهد العلمى العظيم الذى أخذ على عاتقه تربيته وإنهاضه ، فالعمل كما ترى ضرره أكثر من نفعه ، وشره أكثر من خيره ، ولكن أهواء سعيد باشا (وقد كان دائماً كثير التقلب فى الآراء) جعلته يصغى لوشاية الدسائس ، ويوصد أبواب تلك المدرسة ، ثم يحرم البلاد خدمات على بك مبارك العلمية . ذلك أن على مبارك ، وإن كانت دراسته العليا عسكرية ، لكن نفسه انجذبت إلى ناحية أخرى غير الحياة الحربية ، وهى ناحية التعلم وتنظيمه والنهوض بأعبائه ، فكان واجباً على سعيد باشا أن يستخدم مواهب المترجم فى هذا الميدان ، وأن يعمل على الأقل للمحافظة على نهضة العلم والتعليم التى ازدهرت فى عهد أبيه ، ولكن المعروف أن هذه النهضة قد اضمحلت وتراجعت فى عهد عباس وسعيد ، ولم يعاودها النشاط والحياة إلا فى عصر إسماعيل . ويستفاد مما ذكره المترجم أنه شعر بأن تكليفه مهمة السفر إلى بلاد القرم كان مقصوداً به إبعاده ، والنكاية به ، وهذا مفهوم من قوله : « أقمت بهذه السفرة قريباً من سنتين ونصفاً . وقد لطف الله بى وأحسن إلى .. ورد كيد الحاسدين فى محورهم ، فإنى وإن قاسيت فيها مشاق الأسفار .. وما يلحق المجاهدين من الإرجاف والاضطرابات ، والحرامان من المألوقات ، لكنى رأيت بلاداً وعوائد كنت أجهلها ، وعرفت أناساً كنت لا أعرفهم ، واكتسبت فيها معرفة اللغة التركية » ، فيؤخذ من ذلك أن ثمة حاسدين كانوا يكيدون له ، ومن مكابدهم أنهم دبروا أمر إبعاده إلى بلاد القرم ، وإرساله إلى ميادين الحروب المحفوفة بالمكاره والأخطار ، ولكن الله لطف به إذ رد كيدهم ، وعاد من الحرب سالماً وقد نال مزايا جمة .

والواقع أنه أفاد كثيراً من هذه الحملة ، فإن الاشتراك فى الحروب من شأنه أن يقوى فى النفس روح الشجاعة والإقدام ، ولو اشترك المترجم فى اقتحام الخطر ، والبقاء فى خط النار ، لكان أثر هذه الحملة فى نفسه أقوى وأعظم ، ولزاد حظه من الشجاعة والجرأة ، ولوقف من الحكومات المتعاقبة التى تولت الحكم فى مصر مواقف أعظم شأناً من خطة اللين والمسألة التى اختطها لنفسه ، ومهما يكن من الأمر ، فلا نزاع فى أن مداركه قد اتسعت وخبرته قد اكتملت فى تلك الحرب .

أقام المترجم عشرة أشهر فى بلاد القرم ، وكان يعهد إليه أمر المناوصات والمخبرات بين

الروح والترك ، وأقام ثمانية أشهر أخرى فى بلاد الأناضول ، أغلبها فى مدينة (كومشخانه) . وكان منوطاً به تسهيل نقل الجند من مدينة طرابزون الواقعة على البحر الأسود ، إلى مدينة أرض روم بأرمينيا . وعلى أن هذه المهمة ليست من ضرور القتال الفعلية . فقد لاقى فيها الشدائد والأهوال ، لشدة البرد ، وكثرة الثلج فى تلك الجهات ووعورة طرقها ، وصعوبة اجتياز ما فيها من العقبات . بين جبال شاهقة وأودية سحيقة .

وقد مرض كثير من الجند لما أصابهم من البرد القارس ، وأنشأ لهم المترجم مستشفى بكرمشخانه ، نظمه تنظيمًا حسنًا ، ونال ثناء أعيان المدينة وأكابرها ورؤساء الجيش .

عودته إلى مصر والوظائف التى تولها

ولما عاد المترجم اعترضته عقبات ومتاعب جمة . ذلك أن سعيد باشا أمر بإخلاء سبيل الجنود وإرجاعهم إلى بلادهم ، ورفت كثيراً من ضباط الحملة ، ومنهم على بك مبارك ، فسكن فى بيت صغير ، وعانى غصاصة العسر والضميق ، وصارت حالته بعد سبع سنوات من عودته من فرنسا ، كحالته عندما عاد منها ، وفقد ما كان يناله ويؤمله من المناصب ، وفقد ماله ، وشعر بمرارة اليأس تنغص عليه حياته ، ودخله الهم والكدر ، وحدثته نفسه أن يرغب عن خدمة الحكومة والتطلع لمناصبها ، إذ لم يجد من ولاة الأمور إنصافاً ولا تقديراً ، واعتزم الرجوع إلى بلده والاشتغال بالزراعة وقال لنفسه : « عوضنا الله خيراً فى نتائج الفكر وثمرات المعارف ، ولنفرض أننا ما فارقنا البلد ، ولا خرجنا منها » .

وبينما كان يتأهب للرجوع إلى بلده صدر الأمر للضباط المرفوتين بالحضور إلى القلعة ، فكان هو ممن أعيذوا للخدمة ، فعدل عن عزمه الأول .

وبعد قليل عين معاوناً بوزارة الحربية ، وأحيل عليه النظر فى التحقيقات الخاصة بالمصانع الحربية والجيخانات (مخازن البارود) ، ولم يكن هذا العمل مما تألفه نفسه ، لتفاهته وعقمه ، ولكنه راض نفسه على الصبر ، عسى الله أن يأتى بالفرج القريب ، وحدث أثناء قيامه بهذه الوظيفة أن شرع وزير الحربية وقتئذ (إسماعيل باشا الفريق) فى وضع رسم لبعض المناورات الحربية ، فعجز عن عمله ، وحر فى إتمامه . فاستدعى على بك مبارك لما كان يعهده فيه من الكفاءة والخبرة ، فوضع الرسم المطلوب ، فأثنى عليه الفريق ، ووعدوه بأن يذكره بالخير عند سعيد باشا .

وقد وفي إسماعيل باشا بما وعد ، وكان من نتيجة مساعاه أن أمر سعيد باشا بإلحاق المترجم بمستودعي الداخلية . وكان يحال عليه النظر في بعض القضايا . ثم عهدت إليه وكالة المحكة التجارية ، فاضطلع بأعبائها بأمانة ونزاهة ، ولكن سلفه فيها وشى به لدى سعيد باشا ، فرفت منها ، وعاد لما بدا ، عاطلاً من المنصب ، واعتكف في بيته ثلاثة أشهر ، ثم عين مفتشاً لهندسة نصف الوجه القبلي ، ثم استدعاه سعيد باشا ، وعهد إليه بوضع مشروع استحكامات الحماة ، وهو مشروع جليل الشأن ، كان الغرض منه تحصين موقع الحماة (جنوب رشيد) ، بين فرع رشيد وبحيرة إدكو ، لمنع العدو من مهاجمة القطر المصري من هذه الناحية ، فوضع المترجم الرسم المطلوب لهذه الاستحكامات ، وأدى المهمة على خير ما يرام ، ولكنه عندما أراد أن يعرض الرسم على سعيد باشا لم يستطع تقديمه إليه ، وتردد عليه آناً في طره ، وآونة في قصر النيل ، فلم يتيسر له مقابله ، واضطر لملازمة معيته في السفر من بلد إلى بلد ، مدة ثلاثة أشهر ، بلا راتب ، ولا عمل ، دون أن يظفر بتقديم الرسم المطلوب ، إلى أن رآه سعيد يوماً في الجزيرة ، فذكر الرسم الذي كلفه به ، وسأله عنه ، فقدمه إليه ، فنظر فيه قليلاً ولم يزد عن قوله : « أبه حتى نجد وقتاً لإمعان النظر فيه » ، وكانت هذه الإجابة نتيجة الانتظار مدة ثلاثة أشهر ، ثم لم يلتفت إليه بعد ذلك ، ولكنه أمر بربط مرتب للمترجم ، وبقى في معيته زمناً طويلاً بلا عمل إلى أن أصدر سعيد أمره باختيار بعض المعلمين لتعلم الضباط الخارجين من تحت السلاح القراءة والكتابة والحساب . فتقدم على بك مبارك للقيام بهذه المهمة ، ليشغل نفسه بعمل ما ، مها كان ضئيلاً ، لأن نفسه كانت تعاف الكسل والبطالة ، فصار يدرس لهم حروف الهجاء ، والخط والمبادئ الأولية في الرياضيات والقواعد الهندسية ، وعاونه في التدريس اثنان من المدرسين ، ووضع في ذلك كتاباً مختصراً في الحساب والهندسة وطرق الاكتشافات العسكرية سماه (تقريب الهندسة) .

وكان يشغل أوقات فراغه بالمطالعة وتدوين بعض الملاحظات على ما يقرؤه ، جمعها بعد ذلك في كتاب سماه (تذكرة المهندسين) ، يحتوي على فنون شتى مما يحتاج إليها المشتغلون بالهندسة ، ولما اعترم سعيد باشا السفر إلى أوروبا أمر بوقت أغلب من كان بمعيته ، فكان المترجم ضمن المرفوتين ...

وأمر قبل ذلك ببيع مهات مدرسة المهندسخانة وأدواتها وكتبها ضمن كثير من تعلقات الحكومة التي اعتبرت « زائدة عن الحاجة » ، فدهش المترجم ، إذ رأى هذه النفائس تباع

بالمزاد بأجنس الأثمان ، وفي جملتها الكتب التي طبعها أثناء نظارته لهذه المدرسة . فدخّل المزاد واشترى من هذه الأشياء ما أمكنه اقتباعه .

ولما اشتد الضيق بالمترجم فكر في الاشتغال بالتجارة ، فأنجز فيها اشتراه ، وعامل التجار ، وكثر منه البيع والشراء ، فربح واستعان بالربح على الإنفاق وأداء بعض الحقوق ، واستمر بتجرمة شهرين ، ثم فكر في التفرغ للتجارة والإعراض عن مناصب الحكومة . لما رآه من اضطراب الأحوال وتقلب الأمور ، مما كان يفقده ثمرات العلوم ، وشعر بأنه كلما تقدم به العمر وكثر بنوه . نفذ ما جمعه من الكد والتعب ، فآثر الاحتراف بالتجارة وجال بخاطره أن يعقد وبعض زملائه المهندسين المتقاعدين شركة يجمع الغرض منها بناء البيوت للبيع والتجارة . فيرجون منها ويستثمرون فيها معارفهم الهندسية وخبرتهم الفنية ، فلم يجد من يوافقه على مشروعه . ففكر في القيام به بنفسه ، وفيما كان يفكر في مخرج من الضيق الذي اشتد به طرق سعيد باشا طارق النون في أوائل سنة ١٨٦٣ . فكان لوفاته أثر كبير في حياة المترجم ، ذلك أن إسماعيل لم يكده يعلى العرش حتى فكر في استخدام مواهب زميله القديم في البعثة ، فانفتح باب الأمل والتوفيق أمام على بك مبارك .

أعماله في عهد إسماعيل

لما تولى إسماعيل الحكم ألحق المترجم بمعيته ، ثم جعله ناظراً على القناطر الخيرية ، وكانت إلى ذلك الحين لم تستخدم أبوابها الحديدية المعدة لإقفال عيونها ، والمانع من إقفالها ما قرره المهندسون من أن القناطر لا تتحمل ضغط المياه نبل تقويتها ، وترتب على ذلك أن معظم المياه تحولت إلى فرع رشيد ، وحرمت فرع دمياط مرور المياه فيه ، فلما عرض على المترجم أرثأى إقفال قناطر فرع رشيد ، لتغذية فرع دمياط ، فعمل الخديو برأيه وأمر بإقفالها ، فأنحدرت المياه إلى فرع دمياط ، ونالت البلاد التي تروى منه منافع الري وخيراته ، وأما الخلل الذي كان متوقعاً حصوله في بعض العيون بقناطر فرع رشيد فقد تلافاه المترجم ، إذ أقام حاجزاً من الخشب أحاط بالقناطر ، فنبشت خلقها جزيرة من الرمل حفظتها من ضغط المياه . وهكذا تبين صواب الرأي الذي ارتآه على بك مبارك .

ولما حفر رياح المنوفية^(١١) أحيل على المترجم إنشاء قناطره ومبانيه ، فأقامها على أحسن

(١١) حفر رياح المنوفية لأول مرة في عهد سعيد باشا وأعيد حفره وتعميقه في عهد إسماعيل .

نظام . وفي سنة ١٨٦٥ ندمت الحكومة المصرية عضواً عنها في اللجنة التي ألفت لتقدير الأرضي التي صارت حقاً لشركة القناة طبقاً لحكم الامبراطور نابليون الثالث ، فأدى هذه المهمة خير الأداء .

وكالة وزارة المعارف

وفي سنة ١٨٦٧ جعل وكيلاً لوزارة المعارف العمومية (ديوان المدارس) ، وكان يتولى هذه الوزارة شريف باشا الوزير المشهور ، فتقلد المترجم منصبه الجديد مع بقاء نظارة القناطر الخيرية في عهده ، ويبدأ من ذلك الحين عهد جديد للمترجم ، إذ صار له بحكم منصبه التفوذ الكبير الذي يسمح له بإنفاذ إصلاحاته في دائرة التعليم العام .
كان من مزايَا المترجم أنه يتقن كل عمل يتولاه ، ويبدل كل ما في وسعه ليقوم به على الوجه الأكمل ، فأنهز ندب الخديو إسماعيل إياه لرحلة مالية إلى باريس عقيب تعيينه وكيلاً لوزارة المعارف ، وأخذ يستكمل معلوماته عن حالة التعليم ونظام المدارس في فرنسا ، ليقتبس ما يراه صالحاً لمصر ، ومع أن رحلته هذه لم تتجاوز خمسة وأربعين يوماً بما فيها الذهاب والإياب ، فقد اطلع على مناهج التعليم في المدارس الفرنسية ، والكتب المقررة فيها ، ودرس أيضاً نظام الجارى العامة المبنية تحت الأرض في باريس .

توليته وزارة المعارف والأشغال

وبعد عودته إلى مصر أنعم عليه الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٨ برتبة الميرمان ، فصار يعرف من ذلك العهد بعلى باشا مبارك ، وأسند إليه إدارة مصلحة السكك الحديدية ، ووزارة المعارف والأشغال ، وبعد قليل ضمت إليه نظارة ديوان الأوقاف ، فجمع بين هذه المناصب الرفيعة . مع بقائه ناظراً للقناطر الخيرية والتحايق بالمعية .

العصر الذهبي في حياة المترجم

وهنا يبدأ العصر الذهبي في حياة المترجم ، وهو العصر الذي حفل بالأعمال العظيمة ، التي خلدت اسمه في تاريخ مصر الحديث ، وخاصة في نهضتها العلمية .
وأول ما بلغت النظر في هذا الدور من حياته ، كفايته الممتازة في اصطلاحه بأعباء

الوزارات المختلفة . فقد كان في وقت واحد وزيراً للمعارف ، والأشغال ، والأوقاف . ومديراً عاماً للسكك الحديدية ، وناظراً للقناطر الخيرية . وهي مهام جسام . تنوء بالعصبة من الرجال . ولكن على باشا مبارك قام بها جميعاً ، وأظهر من الكفاءة وقوة الإرادة والجلد على العمل ما يدعو حقاً للإعجاب ، وصدقته كلمته المترابطة التي قالها في هذا الصدد عن نفسه : « فبدلت جهدي ، وشمرت عن ساعد جدي ، في مباشرة تلك المصالح فقامت بواجبها » .

وهنا تتجلى ميزة كبيرة للمترجم ، نطالعا بناحية من نواحي شخصيته . وهي قدرته على الاضطلاع بالمهام العظام ، فقد يكون لعل باشا مبارك أمداد في العلم والذكاء بين زملائه الذين تولوا مختلف الوزارات والمناصب العالية ، ولكننا نعتقد أنه بذأ أقرانه في الجمع بين مزايَا متعددة ، وهي الكفاءة والجلد على العمل ، والإخلاص ، والتزاهة في أداء واجبه ، وإتقان الأعمال الكبيرة التي تعهد إليه ، على ما تقتضيه من جهود ومتاعب ، فالرأس الذي يتسع وزارات المعارف والأشغال والأوقاف ، مع إدارة مصلحة متشعبة الأعمال كالسكك الحديدية ، والكفاءة التي تضطلع بكل هاتيك المصالح ، والهمة التي تنصرف شؤونها المختلفة ، وتبتكر لها المشاريع الجمية ، كل ذلك لا يصدر إلا عن نبوغ فذ ، وهذا يعطينا فكرة صادقة عن شخصية المترجم .

وزع على باشا مبارك أوقاته بين هذه الوزارات المختلفة ، فخصص نصف النهار من الصباح إلى الظهر للمعارف والأشغال والأوقاف ، ومن بعد الظهر إلى الغروب لإدارة السكك الحديدية .

في وزارة المعارف

كانت معظم جهوده موجهة إلى ترقية شئون التعليم في بلاده .

نقله المدارس إلى درب الجماميز

وأول أعماله نقل المدارس من العباسية إلى درب الجماميز ، ذلك أنه رأى ما يتكبده التلاميذ وأهلهم والأساتذة من المتاعب والمشاق والنفقات ، في ذهابهم إلى العباسية ، وإيابهم منها ، فاستصدر من الخديو إسماعيل إذنا بنقل المدارس إلى درب الجماميز ، وخصص

خا سراى الأمير مصطفى فاضل ، فأصلحها على باشا مبارك وجعلها على استعداد لايواء المدارس والمعاهد وخصص سلامك السراى لوزارة المعارف ، وجعل كل مدرسة فى ناحية من السراى ، فصارت أشبه ما تكون بالجامعة وجعل بها أيضا وزارة الأشغال ، وديوان الأوقاف ، فسهل عليه القيام بأعباء الوزارات المختلفة .
ومع اضطلاعها بأعباء هذه الوزارات ، كان لا ينفك يعنى بتفقد أحوال التلاميذ والمعلمين فى المدارس ، ويدخلها كل يوم ليشهد بنفسه سير التعلم فيها ، وليطمئن على حسن نظامها وقيام المدرسين بواجباتهم .

لائحة التعلم وإنشاء المدارس الابتدائية

وقد وجه عنايته منذ تولى وكالة الوزارة إلى إصلاح التعليم فى المكاتب ، وتحويل ما يمكن تحويله من الكنائس إلى مدارس ابتدائية نظامية ، فوضع لذلك لائحة المشهورة بلائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ التى نظمت المدارس ، ودعا طائفة من المشتغلين بالتعليم ليراجعوا المشروع ويبحثوه ، ويبدوا آراءهم فيه ، فدرسوا اللائحة وأقروها ، وصدر أمر الخديو بإجراء العمل بمقتضاها فى مايو سنة ١٨٦٨ .

وانشئ فى عهده كثير من المدارس الابتدائية النظامية فى القاهرة وعواصم المديريات . وكان لاجتماع وزارة المعارف ونظارة ديوان الأوقاف فى يده أثر كبير فى نهضة التعلم ، لأنه بما له من سلطة النظر على الأوقاف الخيرية استطاع إعداد كثير من الأمكنة الموقوفة لجعلها معاهد للتعليم بعد إصلاحها ، ولو لم تكن له هذه السلطة لبقيت هذه المباني معطلة لا يتفع بها ، ولعجزت الحكومة عن التفقات التى يقتضيا إنشاء معاهد جديدة ، وكذلك أمكنه بما له من حق الإشراف على معاهد العلم الموقوفة أن ينظمها ويحولها إلى مدارس نظامية . فأحيا هذه المعاهد بعد ما درست فى أبدي نظار الوقف الحاملين ، وكذلك أحسن ادارة أموال الأوقاف الخيرية ، واستخدم جانباً منها فى الإنفاق على التعلم بعد أن كانت تبتد وتضيع هباء . وجعل على أهالى التلاميذ المقتدرين مصروفات قليلة تؤخذ برغبتهم على حسب اقتدارهم ، مع ترك الباقيين مجاناً ، واستوفى باقى تفقات المدارس من إيراد الأوقاف الخيرية الموقوفة على المكاتب وغيرها من وجوه الخيرات ، وخصص لها الخديو إسماعيل إيراد أطيان

تفتيش الوادى بالشرقية . كما منحها بعض الأملاك التى آلت إلى بيت المال من بعض التركات ، فكانت هذه الموارد هى التى يشق منها على تلك المدارس عدا ما يخصص لها فى الميزانية السنوية والمصروفات الضئيلة التى يدفعها أهالى التلاميذ ذوى الاقتدار واليسار .

معلمو المدارس

إن وضع نظام صالح للتعليم يقتضى توفير العدد الكافى من الأساتذة الأكفء ، وقد حل على باشا مبارك هذه المعضلة بما أوفى من خبرة ، ونظر صادق ، وعزيمة ماضية ، فأنشأ « دار العلوم » كما سيجىء بيانه ، لتخريج أساتذة اللغة العربية ، واختار لتدريس بقية العلوم ، كالرياضيات والتاريخ والجغرافية واللغات الأجنبية نجباء التلاميذ المتقدمين ممن أتموا دروسهم فى المدارس العالية ، كالمهندسخانة ومدرسة المحاسبة ، ومدرسة الإدارة (الحقوق) ، بأن يجعلوا أولاً معيدين لدروس المعلمين زماً ، ثم يصيرون معلمين استقلالاً ، ولم تكن مدرسة المعلمين العليا قد أنشئت بعد .

دار العلوم

هى من أجل منشآت على باشا مبارك ، أسسها سنة ١٨٧٢ ، والغرض الأصلى منها تخريج أساتذة اللغة الغربية والآداب للمدارس الابتدائية ، ثم للمدارس كافة . ومرجع الفكرة فى تأسيسها ، أنه لما أنشئت المدارس الابتدائية ، وانجى العزم إلى الإكثار منها ، مست الحاجة إلى طائفة من الأساتذة لتدريس اللغة وآدابها فى المدارس الحديثة ، فارتأى المترجم إنشاء مدرسة عالية دعاها « دار العلوم » لتخريج أولئك الأساتذة ، واختار تلاميذها من طلبة الأزهر ، ممن حفظوا القرآن الشريف وتلقوا دروس اللغة والفقه ، واختيروا هذه المدرسة بالامتحان ، واشتمل برنامج التعلم فيها على العلوم التى لا تدرس فى الأزهر ، كالحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والحط ، مع إتقان علوم الأزهر من لغة ونحو وتفسير وحديث وفقه . واختار المترجم للتدريس فى دار العلوم جماعة من جلة العلماء الأكفاء فى العلوم الأزهرية

والعلوم العصرية ، وجعل التعليم فيها مجانياً ، مع دفع مرتب شهري للتلاميذ .
وقد أثمرت المدرسة ، وتخرج منها أساتذة اللغة والآداب العربية للمدارس الابتدائية في
القاهرة والأقاليم ، ثم للمدارس الثانوية والعالية ؛ وبعد إنشاء دار العلوم أعظم خدمة أسداها
المرجع لإحياء اللغة العربية وآدابها في مصر .

دار الكتب أسست سنة ١٨٧٠

انشتت دار الكتب سنة ١٨٧٠ ، ولتأسيسها مقدمات ترجع إلى عهد محمد علي ، فقد
أنشأ مستودعاً لبيع مطبوعات الحكومة في بيت المال القديم ، خلف المسجد الحسيني ، ولما ولي
إسماعيل الحكيم أضاف إليها نحو ألفي مجلد من المخطوطات العربية والفارسية ، ابتاعها من تركة
حسن باشا المنسترلي ، ثم تطورت الفكرة إلى إنشاء دار عامة للكتب .

ويستفاد مما ذكره علي باشا مبارك في الجزء التاسع من الخطط (ص ٥١) أن فكرة
تأسيس دار الكتب ترجع إلى الخديوي إسماعيل ، فإنه رغب في إنشاء مكتبة عامة تجمع الكتب
المتفرقة في مخازن الحكومة ، ومكاتب الأوقاف وفي المساجد ونحوها ، وأمر المترجم بالنظر في
ذلك ، فحقق الفكرة ، وأنشأ دار الكتب في سراي درب الجواميز بجوار المدارس .

ولكن يؤخذ مما جاء في الجزء الثالث من الخطط (ص ١٤) أن صاحب الفكرة في هذا
المشروع الجليل هو علي باشا مبارك ذاته ، فقد قال في هذا الصدد :

« ثم ظهر لي أن أجعل كنيخانة خديوية ، داخل الديار المصرية ، أضاهي بها كنيخانة
باريس ، فأستأذنت الخديوي إسماعيل باشا في ذلك ، فأذن لي ، فشرعت في بناء الكنيخانة
الخديوية هناك أيضاً (درب الجواميز) ، وبعد فراغها جمعت فيها ما نشئت من الكتب التي
كانت بمجهات الأوقاف ، زيادة على ما صار مشتراه من الكتب العربية والفرنجية وغيرها ،
وجعلت لها ناظراً ورئيت لها خدمة ومعاونين ، وعملت لها قانوناً لضبطها ، وعدم ضياع
كتبها ، فجاءت بعون الله من أنفع التجديدات التي حدثت في عهد الخديوي إسماعيل باشا ،
وحصل بها النفع العام ، وللخاص والعام . »

وقد ابتاع إسماعيل باشا مجموعة الكتب القيمة التي تركها أخوه الأمير مصطفى فاضل بعد
وفاته ، وأهداها إلى دار الكتب .

وأنفق على الدار من ميزانية المدارس ، وفتحت أبوابها لطلاب العلوم والمعارف ، وسهلت
لهم الإطلاع على كتب ومؤلفات ومخطوطات ما كان يمكنهم الوصول إليها لولا إنشاء هذه
الدار ، فأدت ولا تزال تؤدي خدمات جليلة للنهضة العلمية والأدبية .

مجلة (روضه المدارس)

ومن أجل منشأته العلمية إنشاء مجلة «روضه المدارس» على نفقة وزارة المعارف
ويشرفها ، وستكلم عنها فيما يلي .

مدرج المحاضرات (الانفتياتر)

ورببت دروساً عامة أو محاضرات دورية بالانفتياتر (المدرج) بسراي درب الجواميز سنة
١٨٧١ . فعهد إلى النابهين من أساتذة المدارس إلقاء هذه المحاضرات لتثقيف أذهان الطلبة .
وكان يشجع هذه الحركة فيحضر المحاضرات بنفسه ، وحذا حذوه كبار الموظفين في مختلف
الوزارات ، وخاصة وزارة المعارف ، وكان يحضرها أيضاً عدا طلبة المدارس العالية . فريق
من طلبة الأزهر ، وهم الذين صاروا نواة دار العلوم التي انشئت سنة ١٨٧٢ .
وتولى إلقاء المحاضرات طائفة من العلماء المشار إليهم بالبنان ، فكان الشيخ حسين المرصني
يدرس الآداب العربية ، وإسماعيل بك (باشا) مصطفى الفلكي ناظر المهندسخانة يدرس
علوم الفلك باللغة العربية ، ومنصور أفندي أحمد أحد أساتذة المهندسخانة ، يلقي محاضرات
في الطبيعيات ، وفرانس بك (باشا) كبير مهندسي الأوقاف في المباني ، وجيجون بك ناظر
مدرسة الفنون والصنائع في الميكانيكا ، وبروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصري القديم في
التاريخ العام ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى في فقه الإمام أبي حنيفة ، والشيخ أحمد
المرصني في التفسير والحديث ، والمسيو بكتيت في الطبيعيات ، وأحمد بك ندا في علم النبات
وغيرهم إلخ إلخ^(١٢) .

(١٢) من كتاب (التعليم العام في مصر) لأمين سامي باشا ص ٢٤ .

معمل الكيمياء والطبيعة

وأشأ بدير الجاميز معملا للكيمياء والطبيعة لتوسيع مدارك التلاميذ في العلوم الطبيعية وإطلاعهم على تجاربها ومشاهداتها والمران على استعمال الآلات الرياضية والطبيعية .

أعماله الهندسية

إن شهرة على باشا مبارك تقوم في الغالب على خدماته الجليلة للتعليم ، على أن له مآثر أخرى في أعمال العمران التي تمت في عهد إسماعيل ، منها ما يختص بالرى ، ومنها ما يتعلق بتنظيم القاهرة والمدن الأخرى .

فليس يخفى أنه بولايته وزارة الأشغال سنة ١٨٦٨ ، قد عهد إليه الخديو بمعظم الأعمال الهندسية التي استحدثت في ذلك العهد .

فاشترك في تنظيم القاهرة ، وتوسيع شوارعها وحرارتها ، وإنشاء أحيائها الجديدة ، ومعظم الأعمال التي تمت من هذا القبيل نفذت في عهده ، مثل شارع محمد على ، وميدانه ، وشوارع الأزبكية ، وميدانها ، والشوارع المنشأة بعبادين ، وباب اللوق وغيرها مما هو بداخل المدينة وخارجها .

قال في هذا الصدد : « وجرى العمل على ذلك . فظهرت كل هذه المباني الحسنة . والشوارع المستقيمة المنسعة المحفوفة بالأشجار الخضرة النضرة ، المستوية للقادمين على المدينة انشراح الصدور ، والفرح والسرور ، وأزيل ما كان يجهتها البحرية من التلال التي كانت تمتد من جهة الفجالة إلى قرب باب الفتوح ، ثم تبرع الخديو إسماعيل للراغبين بمواضع كثيرة ، فأنشأوا بها المباني المشيدة ، والبساتين العديدة ، وتاهيك بقصور الإسماعيلية ودورها وبساتينها وشوارعها ، التي يكمل الوصف عن محاسن بهجتها » .

واشترك في استحداث الإنارة بغاز الاستصباح ، وإقامة واپور المياه لتغذية القاهرة بماء الشرب الصالح بواسطة شركتى النور والمياه ، وإقامة (كوبرى) قصر النيل البديع ، وغير ذلك من الأعمال النافعة .

وساهم أيضا في أعمال العمران بمدينة الإسكندرية والسويس . . وما أقيم في المديريات من الدواوين . والجسور . والقناطر . والترع ، قال في هذا الصدد : « وهذه الأعمال جميعها أو أكثرها كنت أباشر أمورها من رسومات وشروط مع المقاولين ونحو ذلك . لتعلقها بديوان الأشغال ، فكنت في سدة إحالة هذه الدواوين على مشغولا بالمصالح الأمرية ، وتنفيذ الأغراض الخديوية . ليلا ونهاراً ، حتى لا أرى وقتاً التفت فيه لأحوالى الخاصة لى . ولا أدخل بيتى إلا ليلا . بل كنت أفكر في الليل فبا يفعل بالنهار » .

وكان متولياً وزارة الأشغال عند افتتاح قناة السويس ، فعهد إليه الخديو إسماعيل إعداد معدات حفلاته الفخمة .

ومن أعماله في ديوان الأوقاف أنه حكر كثيراً من أراضي القاهرة للراغبين في بنائها ، مقابل حكر ضئيل يدفعونه كل سنة ، فعمرت جهات كانت من قبل خرابا بلقعا ، وأقيمت المباني والمعائر في أخطاط عديدة من المدينة .

ويادارته مصلحة السكك الحديدية اشترك في مد كثير من الخطوط الحديدية وإنشاء مخططاتها .

انفصاله عن الوزارة ثم عودته

انفصل المترجم عن إدارة السكك الحديدية ، ثم عن وزارة المعارف (في سبتمبر سنة ١٨٧٠) ، وعن الأشغال ثم عن الأوقاف ، لخلاف وقع بينه وبين إسماعيل صديق باشا (المفتش) وزير المالية المشهور بحظوته عند الخديو إسماعيل ، ذلك أن المفتش رغب في أن يضم إيراد السكك الحديدية الى وزارة المالية ، فلم يقبل على باشا مبارك هذا الضم إلا إذا تمهدت المالية بجميع نفقات المصلحة ، فوقع الخلاف بين الرجلين ، ووشى إسماعيل صديق بالمترجم عند الخديو ، فأدى ذلك إلى انفصاله عن الوزارات التي كان يقوم بأعبائها ، ولزم بيته ، على أن انفصاله لم يدم طويلاً ، ولعل الخديو شعر بالفراغ الذي ترتب على انفصاله عن العمل ، ولم يجد من بين وزرائه من يسد هذا الفراغ ، فعهد إليه ثانياً بوزارة المعارف (١٣ مايو سنة ١٨٧١) ثم بالنظر على ديوان الأوقاف ، وبعد قليل أعيد إلى ديوان الأشغال ، وبقي يتولى وزارة المعارف إلى أغسطس سنة ١٨٧٢ .

ثم عَنَ للخديو أن يعين ابنه الأمير حسين كامل باشا (السلطان حسين كامل) ناظرًا لهذه الدواوين في أغسطس سنة ١٧٨٢ . وبقى المترجم يتولى شؤونها . وصار منصبه « مستشاراً » لها . وبعد قليل انفصل ديوان الأشغال برئاسة الأمير حسين كامل وجعل المترجم وكيلًا له . وفي أغسطس سنة ١٨٧٣ عين المترجم عضوًا بالمجلس الخصوصي الذي كان بمرتبة مجلس الوزراء . وبعد قليل انفصل عنه لما ألقاه في حقه الواشون كإسماعيل باشا صديق وأضراجه وما أرجفوا به من أن كتابه (نخبة الفكر) الذي كلفه الخديو تأليفه عن النيل مشتمل على نقد الحكومة الخديوية وتبحيح سياستها ، فلزم بيته ثانيًا .

وفي مارس سنة ١٨٧٤ جعل رئيسًا لقسم الهندسة بديوان الأشغال ، ولما ألحق هذا الديوان بوزارة الداخلية التي تولاهها الأمير محمد توفيق ولي عهد الأريكة الخديوية وقتئذ جعل المترجم مستشارًا له ، ثم استقل ديوان الأشغال ، فبقى المترجم مستشارًا للديوان (ديسمبر سنة ١٨٧٥) .

ولاشك أن تعيين علي باشا مبارك في هذه المناصب الثانوية كان نتيجة الوشاية التي ألقاها إسماعيل صديق في حقه عند الخديو .

في وزارة نوبار باشا

ولما وقعت بمصر الأحداث المالية ، وحدث التخلل الأجنبي وعينت لجنة التحقيق الدولية ، كان من مطالب اللجنة تنازل الخديو عن سلطته المطلقة لمجلس النظار ، فتألفت وزارة نوبار باشا الأولى في أغسطس سنة ١٨٧٨ ، وهي الوزارة التي دخلها الوزيران الأوربيان كما تراه مفصلاً فيما يلي ، واشترك فيها المترجم إذ تولى وزارة المعارف وديوان الأوقاف ، فاستأنف عمله في إحياء نهضة التعليم ، فشرع في بناء بعض المدارس الابتدائية وظل قائمًا بعمله في جو مملوء بالاضطرابات والارتباكات ، إلى أن استهدفت وزارة نوبار باشا لسخط الأمة ، وتار عليها الضباط ثورتهم الأولى فاستقالت في فبراير سنة ١٨٧٩ ، وخلفتها وزارة توفيق باشا القصيرة المدى ، وكان المترجم ضمن أعضائها متوليًا المعارف والأوقاف ، ثم دعى شريف باشا الوزير المشهور إلى تأليف الوزارة الجديدة استجابة لمطالب الأحرار فألف وزارته المعروفة بالوزارة الوطنية .

وكان طبيعيًا ألا يكون المترجم من أعضائها ، لأن الوزارة النوبارية سقطت مغضوبًا عليها من الشعب . إذا كانت متهمة بمبالاة الدول الأجنبية ، ووزارة توفيق باشا لم تكن مرضيًا عنها من الرأي العام . وفي عهد وزارة شريف باشا اشتدت الأزمة السياسية ، بين الخديو إسماعيل والدول الأوربية ، وانتهت بخلعه نزولًا على إرادة الدول .

في عهد الخديو توفيق

ولما تولى توفيق باشا مستند الخديوية وعهد إلى مصطفى رياض باشا تأليف الوزارة ، كان على باشا مبارك عضوًا فيها ، متقلدًا وزارة الأشغال ، فبذل جهدًا ممدوحًا في تنظيم هذه الوزارة والقيام بكثير من أعمال الري والعمران .

الثورة العراقية

وفي عهد هذه الوزارة هبت عواصف الثورة العراقية ، ولم يكن علي باشا مبارك من أنصار الثورة ، بل كان يميل إلى الاعتدال وأخذ الأمر بالحكمة والموادة ، ونصح العراقيين بالروية فلم يسمعوا له نصحاء ، وقد تبين أنه كان أبعد نظرًا منهم ، لأنه لا يخفى أن التطرف والشطط في مسلك الثورة العراقية ، كان من الأسباب التي أدت إلى كارثة الاحتلال .

لم يكن المترجم إذن من أنصار الثورة ، بل كان عضوًا في وزارة رياض باشا التي تحركت الثورة لمناوئتها وإسقاطها ، وقد سقطت فعلا في سبتمبر سنة ١٨٨١ نزولًا على إرادة الثوار ، وألف شريف الوزارة الجديدة .

ومع أن شريف باشا كان بقدر كفاءة علي باشا واستقامته وإخلاصه ، إلا إنه لم يشركه في الوزارة ، لأنه كان عضوًا في وزارة رياض المغضوب عليها من الشعب ، وهكذا قدر على المترجم أن يكون عضوًا في الوزارتين اللتين هبت عليهما عواصف الثورة واستقالتا نزولًا على إرادة الثوار .

فالأولى وزارة نوبار ، التي سقطت بتأثير ثورة الضباط في عهد إسماعيل ، والثانية وزارة رياض ، التي سقطت نزولًا على إرادة العراقيين .

عليه من المبانى ، والمساجد ، والزوايا ، والأضرحة ، والربط ، والتكايا . والأسبلة ،
والقصور ، والوكائل ، والهمامات ، والكائنات ، والأديرة ، والمدارس ، والمكاتب مع تراجم
علماء مصر وشرايتها وأديانها وحكامها وأمرائها ، وكان مرجع الترجمة في هذه الموسوعة
الكبرى ، كتب التاريخ والخط ، قديمها وحديثها ، وحجج الأوقاف والأماكن ، ومباحثه
ومشاهداته ، وما وجدته مسطوراً على الأحجار والجدران ، ولئن قبل إن العلامة على باشا
مبارك استعان في وضع الخطط بطلاقة من المهندسين من تلاميذه ومروءيه في وزارة الأشغال
والمعارف ، فذلك لا يتقص من فضله ، ولا يقلل من عظم العمل الذى اضطلع به ، وحسبه
أن إرادته وجهت مساعديه إلى معاونة في البحث والتقيب ، وروحه تمشى في جميع أبواب
الكتاب ومباحثه .

وتقع الخطط التوفيقية في عشرين مجلداً . ظهرت سني ١٣٠٦ و ١٣٠٧ (١٨٨٧ -
١٨٨٩) . أفرد المؤلف الأجزاء الستة الأولى للقاهرة . والجزء السابع لإسكندرية والأجزاء
الأخرى لبقية مدن القطر المصرى وقراه . وخصص الجزء الثامن عشر لقباس النيل . والتاسع
عشر لفتح مصر ورياحاتها ومشاتل الرى فيها . والعشرين لتقودها القديمة والحديثة . وبالجملة
فهذا الكتاب غرة في تاريخ مصر العلمى . ومآزة خالدة للمترجم . وهو مرجع لكل باحث
في شؤون مصر العلمية والحتمسية والتاريخية . وله أيضاً في عالم التأليف كتاب (علم الدين)
وهو قصة عسراية قيمة . وكتاب (توير الأفهام في تغذى الأجسام) طبع سنة ١٢٨٩ هـ
(١٨٧٢ م) و (نخبة الفكر في تدبير نيل مصر) .

ويقول الدكتور محمد درى باشا في ترجمته لعل باشا مبارك (ص ٦١) أنه وضع كتابا
سماه (آثار الإسلام في المدينة والمعمران) وكان هذا الكتاب آخر مؤلفاته شرح فيه ما أدخله
الإسلام من المعمران في الممالك . وما ترتب عليه من المدينة والنظام . قال : « والذى تعرفه
من أمره أنه لا أكمله تأليفاً وتيضاً أعطاه أحد أفاضل العلماء الأزهريين ليعيد نظره فيه
ويدقق في مراجعته . وهو باق فيما نعلم في خزائنه مؤلفه رحمه الله . »

وقد استأنف المترجم جهوده في عهد وزارة رياض باشا لنشر التعليم وإنشاء المدارس ،
ومن أجل أعالته في هذا العهد فقرر طبع كتاب (مرشد الحيران إلى معرفة أسوال الإنسان)
تأليف العلامة (محمد قدرى باشا) .

كان هذا الكتاب الجليل مخطوطا ، فرأى العلامة على باشا مبارك أن يترجمه للناس

ولا استقلت وزارة شريف وأعقبها وزارة محمود سامى باشا البارودى ، ظل على مبارك
بعيداً عن الوزارة ، وفي عهد وزارة البارودى جاء الاسطول البريطانى إلى نجر الإسكندرية ،
ثم تلاخفت الأحداث إلى أن رزقت البلاد بالاحتلال الإنجليزي .

ولما قامت الحرب بين الغرايين والإنجليز ، وانحاز الخديو توفيق باشا إلى الاحتلال ،
انعدت جمعية عسوية في القاهرة تقم أعيان البلاد وذوى الكفاة فيها ، وحضر على باشا
مبارك هذه الجمعية ، وكان ضمن الوفد الذى انتدبه الجمعية للسفر إلى الإسكندرية ،
ومقابلة الخديو توفيق باشا ، لإيلاءه قرارات الجمعية ، فلما وصل إلى الإسكندرية سعى في
طريقه لهدنة الحالة ، فلم ينجح ، فانحاز إلى الخديو .

في وزارة شريف باشا الرابعة

ولما ألف شريف باشا وزارته الرابعة سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال كان الترجمة ضمن
أعضائها ، ونقله وزارة الأشغال . فعنى بأعمال الرى والمعمران ، كما كان شأنه كلما تولى هذه
الوزارة .

وزارة شريف باشا هي التى استقلت احتجاجا على إخلاء السودان ، فالتزم له نصيب
في الموقف الشرف الذى وقفه شريف باشا بتقديم استقالته التاريخية في يناير سنة ١٨٨٤ .

في وزارة رياض باشا ظهور الخطط التوفيقية

وبعد إقالة وزارة نوبار الثانية تولى رياض باشا الوزارة في يونيو سنة ١٨٨٨ ، فكان على
باشا مبارك ضمن أعضائها ، وزيراً للمعارف العمومية ، وهى الفترة التى ظهر فيها كتابه الخالد
(الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة) .

وهو دائرة معارف لخطط مصر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها في عصورها القديمة
والحديثة ، وبعد كلمة وتجديداً لخطط القريزى ، ولكتاب تخطيط مصر الذى وضعه علماء
الحملة الفرنسية ، وفيه وصف شامل لمصر ، وقراها ، ونيلها ، وزرعها ، وبحيراتها
وسواحلها ، وتخطيط كامل لأحياء القاهرة وشوارعها ، ودورها ، ومبانيها ، وما احتوت

منشوراً . لتعم فائدته . فاشتراه من ورثة المرحوم قدرى باشا ، وطبعه سنة ١٨٩٠ على نفقة الوزارة ، وقررت تدريسه في مدرسة الحقوق ، ودار العلوم ، فأسدى بذلك خدمة عظيمة للعلوم الشرعية ، والقانونية ، وللنهضة العلمية ، والتشريعية .
ولما استقالت وزارة رياض باشا سنة ١٨٩١ ، لزم المترجم بيته ثم سافر إلى بلده لتفقد أملاكه وإصلاحها ، بعد أن تركها وأهمل شأنها طوال السنين ، لاشتغاله بالمصالح العامة ، وهناك مرض بداء المثانة ، فعاد إلى مصر .

وفاته

وألح عليه المرض ، إلى أن وافته المنية بمصر في منزله بالحلمية الجديدة ، في ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣ ، فانطلقاً المصباح الذي أضاء البلاد بأنوار العلم والعرفان ، أربعين سنة ونيفاً ، وأقفلت المدارس حداً على أبيها ، وارتجت البلاد حزناً على فقدها وانتقل المترجم إلى عالم الخلود ، تاركاً ذكرى مجيدة ، حافلة بما أسداه لمصر من جلال الأعمال .

الجمعيات العلمية

الجمعيات العلمية هي من الوسائل الفعالة في نشر العلوم والمعارف ، ومن مظاهر تقدم الأفكار والثقافة في المجتمع ، وقد إزدان عصر إسماعيل بظهور الجمعيات العلمية ذات الأغراض السامية والمقاصد الجليلة .

المجمع العلمي

المجمع العلمي هو الهيئة العلمية التي أنشأها نابليون في مصر سنة ١٧٩٨ وسبق لنا الكلام عنها (تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١١٨ - طبعة أول -) ، وقد ألقى هذا المجمع عند جلاء الفرنسيين ، ثم أعيد إنشاؤه سنة ١٨٥٩ بالإسكندرية في عهد سعيد باشا ، واستمر قائماً في عهد إسماعيل يؤدي مهمته في نشر المباحث العلمية ، وهو قائم إلى اليوم واسمه (مجلس المعارف المصري) ، ومقره بوزارة الأشغال العمومية ، وله مجلة تنشر مباحثه .

جمعية المعارف (أسست سنة ١٨٦٨)

هي أول جمعية علمية ظهرت في مصر لنشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر ، أسسها سنة ١٨٦٨ محمد عارف باشا ، أحد أفاضل العلماء في ذلك العصر والعضو بمجلس الأحكام ، والغرض من هذه الجمعية نشر العلوم والمعارف بطبع الكتب العلمية وتأليفها وتهذيبها وتلخيصها ، وقد جعلت تحت رعاية الأمير محمد توفيق باشا ولي عهد الأريكة الخديوية وقتئذ ، وتولى وكالتها ورأسها الفعلية محمد عارف باشا ، وتألفت برأس مال موزع على أسهم طرحت للاكتتاب العام ، قيمة السهم ثلاثون قرشاً^(١٣) ، واقتنت مطبعة لطبع الكتب التي تولت نشرها ، عدا ما كانت تطبعه في دار الطباعة الأميرية ، والمطبعة الوهية . وتولت الجمعية طبع طائفة من أمهات الكتب في التاريخ والفقه والأدب . منها أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير في خمسة مجلدات . وتاج العروس من شرح جواهر القاموس . والفتح الوهبي في شرح العتي في مجلدين ، وتاريخ ابن الوردي . وشرح التنوير على سقط الزند (ديوان أبي العلاء المعري) ، وديوان ابن خفاجة . والبيان والتبيين للجاحظ . وديوان ابن المعتز ، وشرح الشيخ خالد على البردة ، وعنوان المرقصات والمطربات لنور الدين أبي الحسن . والمختصر في أخبار البشر . ومحاضرات الراغب الأصفهاني ، ورسائل بديع الزمان الهمداني . وغير ذلك من الكتب القيمة .

ولقيت الجمعية إقبالا عظيماً وتعصيماً كبيراً من الطبقات المتنازعة في المجتمع . إذ بلغ عدد أعضائها سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ - ١٨٧٠ م) ٦٦٠ ونيفاً . وردت أسماؤهم في ذيل كتاب « الفتح الوهبي » ، نذكر هنا طائفة منهم ، نموذجاً للطبقات التي اشتركت في الجمعية ، ولكي نبين مبلغ تعصيد المجتمع في ذلك العصر للمشروعات العلمية :

إبراهيم بك حلیم من قضاة محكمة الإستهناف . إبراهيم أدهم بك وكيل محافظة الإسكندرية . السيد إبراهيم جمعي من أعيان الإسكندرية . السيد إبراهيم بك المولحي من أعضاء المجلس الابتدائي . أبو زيد أفندي إبراهيم باشمهندسن القليوبية . أترني بك أبو العز من

(١٣) عن لائحة الجمعية المنشورة في الوقائع المصرية العدد ٣٠١ ، ٧ يونيو سنة ١٨٦٩ .

أعضاء مجلس شورى النواب . أحمد طلعت باشا كاتب الديوان الخديوي . الشيخ أحمد شرف الدين المرصى من علماء الأزهر . أحمد رشيد باشا من أعضاء المجلس الخصوصي (مجلس الوزراء) . أحمد خيرى بك مهر دار الخديو . أحمد بك عبيد ناظر قلم ترجمة الكتب الحربية . الشيخ أحمد البنتونى قاضى طنطا . الشيخ أحمد الأنصارى قاضى طهطا الشيخ أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب ووكيل الجمعية بالاستانة . أحمد بك فتحى ناظر مدرسة الإسكندرية . أمين بك فكرى . جعفر مظهر باشا حكمدار السودان . جعفر صادق باشا رئيس مجلس استئناف قبلى . حسن بك الشريعى . الشيخ حسنة النواوى . حسين فخرى بك (باشا) . حسين شرين باشا . خليل باشا يكن . الفريق راشد باشا حسنى . الدكتور سالم بك سالم . الشيخ عبد الرحمن الاييارى . الشيخ عبد الرحمن الرافعى . وعبد اللطيف باشا من أعضاء المجلس الخصوصى . محرم أفندى على عمدة السنبلادين ومن أعضاء مجلس شورى النواب ، محسن بك . محمد عرفان باشا . السيد محمد بيومى مكرم . السيد محمد المولدى . الدكتور محمد شافعى بك . مصطفى رياض باشا . يوسف صالح عمدة كفر بيدة . أحمد رسم العلابى من أعيام الإسكندرية . الشيخ بدرأوى عاشور عمدة بهوت ، الدكتور حسين بك عوف . الشيخ حسين حمزة من أعضاء مجلس شورى النواب . حاد بك عبد العاطى . على ذو الفقار باشا وزير الخارجية . محمد مظهر باشا وكيل مجلس الأحكام . إبراهيم أفندى هلال مأمور ضبطية ميت غمر . أحمد صادق باشا ناظر الدائرة السنية . أحمد فريد بك ناظر قلم المحاسبة . السيد أحمد مشرقة . أحمد ذهنى بك ناظر الجيخانات . الشيخ أحمد باشا من علماء الإسكندرية . إسماعيل أفندى عبد الخالق وكيل ديوان الرزنامجة . إسماعيل بك زهدى ناظر مدرسة للبتحيان . أمين بك سيد أحمد . السيد حسن موسى العقاد . السيد حسن المرقبى . شفيق بك منصور . إلخ . إلخ .

وقد ظلت الجمعية قائمة تؤدي مهمتها إلى أن اشتد التراع السياسى بين الخديو إسماعيل والأمير عبد الحليم باشا ، لتنافسها على عرش الخديوية . وكان عارف باشا من أنصار حليم باشا . فهاجر إلى الأستانة خوفاً من بطش إسماعيل . واتحلت الجمعية .

الجمعية الجغرافية الخديوية (أسست سنة ١٨٧٥)

هى من أهم المنشآت العلمية فى مصر ، أسسها إسماعيل باشا سنة ١٨٧٥ ، والغرض منها العناية بالأبحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ونشرها ، وأول رئيس لها هو العالم الألمانى الدكتور جورج شونفرت Schweinfurth . ووكيله العلامة محمود باشا الفلكى ، والجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى ، ولها مجلة دورية تنشر المباحث والاكتشافات . وتؤدى خدمات جليلة للعلم والجغرافية ، وقد رجعا فى كثير من المواطن إلى المباحث القيمة والحرائط الدقيقة المنشورة فى مجلتها .

الجمعية الخيرية الإسلامية

أنشئت بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ (١٢٩٦ هـ) بمسعى السيد عبد الله تديم ومساعدته سعد الله بك حلايه من سراة النفر ، والباعث على إنشائها شعور الخاصة بطغيان النفوذ الأجنبى فى البلاد ، وتدخل الأجانب فى شئوننا . واستثمارهم بمراقبتها . فأسست هذه الجمعية لفتح المدارس الحرة لتعلم البنين والبنات ، وتهذيب الأخلاق وإعانة الفقراء ، وقد أنشأت مدرسة بالإسكندرية لتعلم البنين والبنات ، وعقد فيها محفل للخطابة ، كانت تلقى فيه الخطب والمحاضرات مرة فى الأسبوع ، ووضع لها قانون ، وأجرت عليها الحكومة راتباً سنوياً على سبيل الإعانة ، فاتسع نطاقها ، وذكرت جريدة «التجارة»^(١٤) لأديب اسحق نبأ إنشاء هذه الجمعية بالإسكندرية ، وجمعية أخرى بالقاهرة وأخرى بدمياط .

وهى غير الجمعية الخيرية الإسلامية الحالية التى أسست سنة ١٨٩٢ .

الصحافة

لم تظهر فى مصر على عهد عباس وسعيد من الصحف المصرية سوى «الوقائع المصرية» التى أنشأها محمد على باشا . وكانت الحكومة تتولى إصدارها . ولم يظهر غيرها من الصحف

(١٤) العدد ٢١ من السنة الأولى - أبريل سنة ١٨٧٨ .

في ذلك العصر، أمثال علي مبارك باشا، وعبد الله بك فكري (باشا)، والشّيخ حسين الرصني، ورفاعة بك رافع، وابنه علي بك فهمي رفاعه، والسيّد بروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصري القديم، وعمود باشا الفلكي، وإسماعيل بك مصطفي الفلكي (باشا)، ومحمد قنديل بك (باشا) والدكتور محمد بك بدر، وأحمد بك ندا، العالم النباي الشهير، والشّيخ عبد الحامد نجما الإيباري، والسيد بك صالح مجدي، وعبد الله أبو السعود أهدى، ومحمّد صحيفة وادي النيل، والشّيخ عثمان مدوح أحد أساتذة اللغة العربية بالمدارس النجديّة، والشّيخ حسونة النوازي، والشّيخ حمزة فتح الله، فكانت المجلة ميداناً يتبارى فيه فطاحل الكتاب في ذلك العصر، وفيها الباحث الطريقة في العلم والأدب والاجتماع والتاريخ والفلك والرياضيات، وكانت تصدر مرتين في الشهر، وقد صدر العدد الأول منها في ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧ (سنة ١٨٧٠)، واستمرت تصدر ثمان سنوات، فأقادت الثقافة قائدة كبرى، قال عنها السيّد دور بك مفتش التعليم العام على عهد إسماعيل في كتابه (١٥) : وهذه المجلة كانت توزع مجاناً على التلاميذ، وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف، لأنها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث، وفتحت صحتها للناهين منهم لنشر أبحاثهم القيمة. فكان ذلك يشجعهم ويستحث مهمهم على الباحث والجهود المستقلة عن دروسهم^{١٥}.

الإدارة^{١٦}.

فيها قصيدة في مدح الحديو إسماعيل بالعدد ٢٠ من السنة الأولى (١٦) قال في مطلعها :

سكّرت فلاح لنا هلال سعود ونمى الغرام بقلبي المعبود
وقصيدة أخرى بالعدد ٥ من السنة الثانية قال في مطلعها (١٧) :

أغرّك الغراء أم طلعة البدر وقامتك الخيلاء أم عادل السمر

وشمرك أم ليل تراخي سدوله ونغرك أم عقد تنظم من در

(١٥) التعلّم العام في مصر من ٢٥٢ للسيّد دوريك.

(١٦) غاية شوال سنة ١٢٨٧.

(١٧) ربيع الأول سنة ١٢٨٨.

العربية، وهذا من مظاهر الجهد الذي أصاب النهضة العلمية في ذلك العهد. ثم نشطت الحياة العلمية والأدبية في عصر إسماعيل، فكان من مظاهرها تأسيس الصحف العلمية والأدبية ثم السياسية. وقد نهض بالصحافة في ذلك العصر طائفة من العلماء والأدباء المصريين، وطائفة أخرى من الأدباء السوريين، وعمّة عامل آخر كان له الأثر البالغ في نهضة الصحافة، والنهضة العلمية والأدبية عامة، وهو تقيّيد الخديو إسماعيل خا، ومساعداته الأدبية والمالية للناهين عليها.

وإننا ذاكرون هنا الصحف والمجلات التي ظهرت في عصره.

١- يجب أولاً أن نذكر «الوقائع المصرية»، فقد استمرت تصدر بانتظام في عهد إسماعيل، وارتقى أسلوبها الإنشائي، وخدمت النهضة الصحفية خدمة تذكر، بما كانت تنشره من القصول العلمية والأدبية، وكانت تعنى بذكر أخبار الحكومة والأخبار الخارجية، وتنشر مضابظ مجلس شوري النواب، وتسهب في وصف المجلات العامة، وخاصة المجلات العلمية والمدريّة، ثم حفلات سباق الخيل، التي كان لها شأن كبير في ذلك العصر، وتعد «الوقائع» سجلاً يصور لنا ناحية من حياة مصر السياسية والاجتماعية في عصر إسماعيل، وهي من أهم المراجع الرسمية التي لا يستغنى عنها من يكتب عن تاريخ مصر الحديث. ونشأ إلى جانب الوقائع صحف أخرى علمية ثم سياسية.

• الصحف العلمية والأدبية والحربية

٢- أسبقها مجلة (السيّوب) ظهرت سنة ١٨٦٥، وهي مجلة شهرية طبية، أنشأها الدكتور محمد علي باشا البغلي وإبراهيم السيّوب، ولم تعمر طويلاً.

٣- مجلة (روضة المدارس) أنشأها العلامة علي مبارك باشا سنة ١٨٧٠ حين كان وزيراً للمعارف العمومية، وهي من أجل أعماله، وكانت الوزارة تتولى إصدارها والإلتحاق عليها، والغرض منها إجهاد الأدب العربي ونشر المعارف الحديثة، أسندت رأسها إلى العلامة رفاعه بك رافع الطهطاري، وتولى تحريرها ابنه علي بك فهمي رفاعه (باشا)، مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن (المحقوق) وقتئذ، وكان يحور فيها طائفة من أعلام الأدب والعلوم

رياض باشا سنة ١٨٨٠ .

١١- جريدة روضة (الأخبار) لصاحبها محمد بك أنسى. نجل عبد الله أبو السعود أفندي ، أنشأها بدل صحيفة (وادي النيل) التي عطلها الحكومة. كما أنشأها ، وكان عبد الله أبو السعود أفندي يحرر قسمها السياسي إلى آخر أيامه .

وقد ذكرها على باشا في المخطط التوفيقية ج ١١ ص ٦٩ ، وذكرها أيضاً أديب اسحق في جريدة (التجارة) بالعدد الصادر في ٢٩ مايو سنة ١٨٧٨ ، لمناسبة اعتزام صاحبها تغيير اسمها باسم (النيل) ، وصدرت بهذا الاسم سنة ١٨٧٨ .

١٢- جريدة (الكوكب الشرق) لصاحبها سليم (باشا) الحسوي ، صدرت بالإسكندرية سنة ١٨٧٣ ، ولم تعمر طويلاً وذكرت الوقائع المصرية ، بالعدد ٤٢٩ الصادر في ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧١ أن سليم حموي أنشأ مكتبة بالإسكندرية وقاعة للمطالعة بها .

١٣- جريدة (الأهرام) لسليم (بك) وبشارة (باشا) فقلا صدرت سنة ١٨٧٥ بالإسكندرية ، (والآن بالقاهرة) ، وقد لاقت في مبدأ صدورها عقبات جمّة ، ثم نالت حظاً كبيراً من الراج ، وكانت في مبدأ ظهورها أسبوعية ، ثم صدرت بخانها جريدة (صدى الأهرام) يومية حتى عطلت ، ثم انقردت (الأهرام) بالظهور وصارت يومية ، واستمرت تصدر إلى اليوم ، فهي أقدم الصحف المصرية السياسية .

١٤- جريدة (الإسكندرية) جاء ذكرها في جريدة (التجارة) بالعدد ٥ يونيو سنة ١٨٧٨ إذا قالت إن سليم أفندي حموي عزم على إصدار جريدة أسبوعية تسمى (الإسكندرية) ، وقد صدرت فعلاً في يولييه سنة ١٨٧٨ .

١٥- جريدة (الكوكب المصري) للشيخ محمد وفاء ، ذكرتها جريدة التجارة بالعدد من السنة الثانية (١٩ مايو سنة ١٨٧٩) .

١٦- (مرآة الشرق) ، وهي جريدة سياسية أنشأها سليم عنحوري ، ثم تعفى عنها في أبريل سنة ١٨٧٩ ، ونولاها إبراهيم أفندي القفاني (بك) بإيعاز من السيد جمال الدين الأفغاني .

١٧ و ١٨- وأنشأ الشيخ يعقوب صنع صحفيين سياسيين . وهما (مرآة الأحوال) صدرت في لندن سنة ١٨٧٦ ، و (أبو نضارة) صدرت سنة ١٨٧٧ بالقاهرة ، وهي صحيفة معارضة لإسماعيل ، وكان الشيخ يعقوب صنع مصرياً إسرائيلياً ، متعلقاً بالصحافة ، يميل

وأخرى بالعدد ٢٣ من السنة الثانية (١٨٧٨) اسمها بقوله :

لا والهوى العدرى والوجد عدل عدولى فيك لا يجدى
إنى مع الصدّ وطول الجفا باق على البياق والمعهد

ويتبين من ذلك أن مدرسة الشعر الحديثة قد بدأت باكورتها تظهر في مجلة روضة للدارس (١١)

٤ و ٥- جريدة (أركان حرب الجيش المصرى) و (الجريدة العسكرية المصرية) وقد سبق الكلام عنها ص (١٨٤) .

الصحف السياسية

وظهر من الصحف السياسية :

٦- صحيفة (وادي النيل) ، أنشأها الشاعر الثائر عبد الله أبو السعود أفندي سنة ١٨٦٧ وهي أقدم صحيفة سياسية ظهرت في مصر ، وكانت تصدر مرتين في الأسبوع في شكل الجلات ، وظلت تصدر إلى أن ألغيت بأمر الحكومة سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢م) .

٧- جريدة (ترزة الأفكار) سنة ١٨٦٩ لمنشأها إبراهيم بك الويلحي ومحمد بك عثمان جلال ، وكانت أسبوعية ، ولم يصدر منها إلا عدنان ، ثم عطلها إسماعيل بنصيحة شاهين باشا وزير الحربية ، إذ حذره عواقب لجبها وماقودى إليه من إثارة الخواطر .

٨- وأنشأ ميخائيل أفندي عبد السيد سنة ١٨٧٧ جريدة (الوطن) ، وكانت سياستها وطنية ، ولجبها حرة ، وقد استمرت تصدر إلى ما بعد الاحتلال ، ووقفت حيناً ثم عادت إلى الظهور سنة ١٩٠٠ .

٩ و ١٠- وظهوت سنة ١٨٧٧ جريدة (مصر) وهي جريدة أسبوعية ، محررها أديب اسحق ، ومديرها سليم النقاش ، وأنشأ سنة ١٨٧٨ صحيفة يومية بالإسكندرية باسم جريدة (التجارة) ، وسياسة الصحفيين وطنية حاسية ، تجلت فيها تعاليم جمال الدين الأفغاني وروحها ، وكانت له في الجريدتين بعض الرسائل ، يكتبها هو أو يعلنها على تلاميذه وقد أنفاها

(١٨) ذى الحجة سنة ١٢٨٨ .

(١٩) عن كتابها ، مصر محمد علي ، ص ٤١٧ . (الطبعة الأولى)

وأنشئت عدة مطابع أخرى لطبع الصحف والمؤلفات كان لها الفضل الكبير في إحياء نفاث الكتب القيمة في الأدب والعلم ، وتولت طبعها وطبع المؤلفات الحديثة .
 فمن هذه المطابع مطبعة جمعية المعارف المتقدم ذكرها .
 والمطبعة الأهلية القبطية التي جلبها من أوروبا الأتيناكرلس الرابع سنة ١٨٦٠ في عهد سعيد باشا ، وهي أول مطبعة أنشئت في مصر بعد مطبعة بولاق .
 ومطبعة (وادي النيل) أنشأها عبد الله أبو السعود أفندي ، وكان يطبع فيها صحيفة (وادي النيل) ، ومجلة روضة المدارس ، وجريدة (أركان حرب الجيش المصري) .
 و (المطبعة الوطنية) بالإسكندرية .
 والمطبعة الوهية ، أنشئت سنة ١٢٨٠ هـ لمؤسسها مصطفى أفندي وهي (بك) ، ومطبعة أركان حرب الجيش المصري التي سبق الكلام عنها .
 ومن أمهات الكتب التي طبعت في ذلك العصر وكان لها الفضل الكبير في النهضة العلمية والأدبية : كتاب المثل السائر ، لأبي الفتح الموصلي ، والأغانى لأبي الفرج الأصفهاني .
 وتاريخ ابن خلدون ومقدمته ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وقفه اللغة للثعالبي . ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ووفيات الرقيات ، وإحياء العلوم للغزالي ، وتفسير الفخر الرازي ، والبخارى (شرح القسطلاني) ، وسفينة الراغب ، وحياة الحيوان ، ونفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وقانون ابن سينا في الطب ، وتذكرة داود ، وغير ذلك من نفاث الكتب .

مظاهر النهضة العلمية والأدبية

اقترن عصر إسماعيل بالنهضة العلمية والأدبية التي ظهرت في إبان النصف الثاني من القرن لتاسع عشر ، وهذه النهضة عوامل شتى ، أولها انتشار التعليم في المدارس والمعاهد ، وظهور طائفة من العلماء والأدباء ممن تخرجوا في مدارس والمعاهد أو في الأزهر عن عهد محمد علي وخلفائه ، وقد ظهرت ثمار قرائحهم على توالي السنين ، وخاصة في عهد إسماعيل ، إذ كان يشجع أكثرهم ويعضدهم ، ويسند إليهم المراكز الممتازة في الحكومة ويمدهم بالمنح السخية ، فكانت هبات إسماعيل أكبر عضد للنهضة العلمية والأدبية ، وكان لانتشار التعليم في المدارس

عامة أثر كبير في نموها وتقدمها ، إذ تألفت بيئة صالحة من المتعلمين تؤيدها وتناصرها بالإقبال على ما تنتج قرائح العلماء والأدباء ، ولولا هذا الإقبال لحمدت القرائح ، وكسدت سوق العلم والأدب ، وثمة عامل آخر ، وهو مجيء السيد جمال الدين الأفغاني سنة ١٨٧١ إلى مصر وإقامته بها ، فقد نفخ في الحياة العلمية والأدبية ثم السياسية روحاً من اليقظة خطت بها خطوات واسعة إلى الأمام .

ومن عوامل هذه النهضة ظهور الجمعيات العلمية ، وتقديم الطباعة ، وظهور الصحافة ، ونشاط حركة التأليف والترجمة والنشر ، ففي عصر إسماعيل ازدهرت الحركة العلمية والأدبية التي هي أساس النهضة الحاضرة ، ونشط الأدب والشعر ، وظهرت طبقة من الشعراء بدأ على شعرهم أسلوب العصر الحديث ، من حسن الديباجة ، وصفاء القرينة ، وبلاغة العبارة ، وتهذب أسلوب الكتابة والإنشاء ، وأخذ يتخلص من شوائب التعقيد والركاكة ، والسجع المتكلف ، وهبت عليه نسمة الترسيل البليغ والمعاني الطريفة .

وظهرت طائفة من العلماء المؤلفين والمربين توفروا على إخراج الكتب القيمة في الطب والرياضيات والتاريخ والفقه والتشريع وما إلى ذلك .

وارتقى مستوى المناصب الحكومية ، إذ تولاه المتخرجون من المدارس والمعاهد والبعثات ، فظهرت ثمار النهضة في فروع الحكومة ، كالتعليم والرى والمهندسة والإدارة والقضاء والصحة والجيش والاسطول .

وكان للنهضة العلمية والأدبية أثرها في تقدم الحياة الاجتماعية ، ثم الحياة الوطنية والسياسية ، مما استعود إليه في موضعه .

والآن يسوقنا الحديث إلى الكلام عن أعلام هذه النهضة ، وسنقصر القول على خلاصة وجيزة لتراجم أولئك الأعلام الذين اكملت شخصياتهم في هذا العصر ، فمن هذه الخلاصة تجتمع لنا صورة عامة للحياة الأدبية والعلمية في عصر إسماعيل .

إهداء الألبان



الشيخ
حسن
المصري



جمال الدين الأفغاني



الشيخ
محمد الهادي نجار
البياري



عبد الله باشا فكري



علي باشا مبارك



الشيخ محمد علي اللبناني



محمد باشا عثمان اسعد



محمد باشا ساي الباري



ابراهيم باشا الموتي



محمد باشا
ابراهيم مزون
الزقاني



علي باشا فكري
امين بك فكري
الشيخ محمد فخر الدين



ابراهيم بك الفخاني
احمد بك فكري
عثمان مديوني

في عصمة اسمائكم



عبد الله المصري



الشيخ محمد المصري



عبد الله المصري



عبد الله المصري



رفاعة بك رافع الطهاوي



محمد المصري



الشيخ محمد الهادي
الشيخ حسن الطويل
أبو الوفاء نصر المحمدي



عائشة عصمت شيبوري



الشيخ احمد الهادي
الشيخ مصطفى سلامة
الشيخ ابراهيم الدروني



احمد بك عبيد
خليفة افندي محمود
محمد افندي عبد الرزاق



السيد صالح مجاري بك



نادر بك هبسي
محمد افندي فني
عبد السلام سليمي

محمود باشا سامي البارودي

(١٨٤٠ - ١٩٠٤)

بأكورة الأعلام في دولة الشعر الحديث ، وأول من نهض به وجرى في نظمه فحول الشعراء المتقدمين ، كانت نشأته الأدبية والحربية في عصر إسماعيل ، ووسط نجمه في سماء الأدب على ذلك العهد ، ثم أقدم اسمه بعصر الثورة العربية ، وكان له فيها الدور الكبير ، واسترجم له في موضعه من كتاب (الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي) .

عبد الله أبو مسعود أفندي

(١٨٢٠ - ١٨٧٨)

أول صحفي سياسي ظهر في تاريخ مصر الحديث ، ولد في دهب قرب الجيزة ، وأصله من بركة ، تلقى العلم في مدرسة البرشين ثم انتقل إلى مدرسة الألسن ، وتخرج منها على يد رفاعه بك ، فهو من تلاميذه الأفاضل ، وكان يحضر دروس الأزهر ، وأتقن اللغات العربية والفرنسية والإيطالية ، ونبغ في فنون الأدب والشعر ، وارتقى في المناصب حتى صار في عهد إسماعيل ناظر قلم الترجمة المستجد وأستاذ التاريخ بدار العلوم ، وأنشأ سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) صحيفة (وادي النيل) كما تقدم بيانه .
ونظم حوادث مصر في كتاب سماه (منحة أهل العصر بمقتى تاريخ مصر) ، ووضع كتاب (الدرس العام في التاريخ العام) طبع قسم منه سنة ١٢٨٩ ، وعرب كتاب (تاريخ مصر القديمة) لمريت باشا ، البخ ، وله ديوان شعر مطبوع ، وله أرجوزة نظم فيها سيرة محمد على .
وشارك رفاعه بك وتلاميذه في ترجمة الكود (قانون نابليون) ، وقول هو وحسن أفندي فهمى المصرى تعريب قانون المرافعات .
وجعل سنة ١٨٧٦ قاضياً بمحكمة الاستئناف ، وتوفى في فبراير سنة ١٨٧٨ ، وهو من نوابغ الأدباء والعلماء في عصر إسماعيل .

عصر إسماعيل

أعلام الأدب في عصر إسماعيل

رفاعة بك رافع الطهطاوي ، وعلى باشا مبارك

أدرك رفاعه بك عصر إسماعيل ، وله الفضل الكبير على العلم والأدب كما أسلفنا في ترجمته (عصر محمد على ص ٤٧٠ من الطبعة الأولى و٣٨٢ من الطبعة الثانية) .
وعلى باشا مبارك هو صاحب الأيادي البيضاء على الأدب والعلم والتعلم في مصر كما بينا ذلك في ترجمته .

السيد جمال الدين الأفطاني

هو باحث روح الحياة في النهضة العلمية والأدبية والسياسية ، فواجب أن نعهده في مقدمة أعلام الأدب في عصر إسماعيل ، واسترجم له في الفصل الثاني عشر .

الشيخ حسين المرصفي

(توفى سنة ١٨٨٩)

شيخ الأدباء في ذلك العصر ، وأستاذ الطبقة الأولى من دار العلوم ، نشأ في (مرصفي) بالقليوبية ، وهي بلدة أُنجبت طائفة من أعلام الأدب والفقهاء واللغة ، كان والده الشيخ أحمد حسين المرصفي من أئمة العلم في عصره ، وانقطع للتدريس بالأزهر ، ونشأ المترجم ميالا للعلم والأدب ، ذكر عنه العلامة على باشا مبارك في المخطوط التوفيقية (ج ١٥ ص ٤٠) أنه « من أجلاء العلماء وأفاضلهم ، له اليد الطولى في كل فن . وقيل أن يسبح شيئاً إلا ويحفظه ، مع رقة المزاج ، وحدة الذهن ، وشدة الخلق » ، وتصدر للتدريس فقراً بالأزهر كبار الكتب ، ثم تولى تدريس اللغة والآداب في دار العلوم ، وتعلم اللغة الفرنسية ، وله مؤلفات قيمة منها :
١- الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية طبع بمصر سنة ١٢٨٩ هـ في جزأين .

٢- وله كتاب في الأدب والاجتماع سماه (الكلم الثمان) في الأمة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة والحربة والتربية .

الشيخ محمد عبد

(توفى سنة ١٩٠٥)

الاستاذ الإمام ، وفيلسوف الإسلام ، وأكبر العلماء وأعلم الكتاب (٢٣) ، كانت نشأته العلمية والأدبية في عصر إسماعيل ، وانضوى إلى لواء السيد جمال الدين الأفغانى ، وصار من خاصة تلاميذه منذ قدم السيد إلى مصر سنة ١٨٧١ ، فكان لهذه الفترة من الزمن الأثر الأكبر في اتجاهه العلمى والروحى ، وكتب بعض الرسائل في صحيفتى (التجارة) و (مصر) لأديب أسحق ، ثم عظمت شخصيته في عصر الثورة العربية كما سيحىء بيانه في كتابنا (الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي) .

إبراهيم بك المولى

(١٨٤٦ - ١٩٠٦)

زعم الكتاب في عصره ، وأستاذ المدرسة الحديثة في الأدب والإنشاء ، من أسرة المولى الشهيرة ، وهى أسرة عربية ، أصلها من «المولى» من ثغر الحجاز التى كانت تابعة لمصر ، وكان جده السيد إبراهيم المولى من كبار موظفى الحكومة في عهد محمد على ، يميل للأدب والأدباء ، فورث عنه المترجم هذا الميل ، وكان أبوه من سرة مصر ، وله بيت تجارى كبير اشتهر بصناعة الحرير وتجارته .

ولد المترجم في أوائل سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٦ م) وترعرع في حجر والده ، في مهاد العز والنعمة ، إلى أن توفى أبوه سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) وهو لا يتجاوز العشرين بكثير فتولى تجارة أبيه مشاركاً أخاه عبد السلام المولى (باشا) ، ولكنها لم يوفقا في التجارة وآل بيت المولى من الناحية المالية إلى الحسرة ، لولا مروءة الخديو إسماعيل ، فقد نظر إلى هذا البيت نظرة عطف وسخاء ، فوهب المترجم وأخاه من المال ما في ديونها ثم انعم على إبراهيم بالرتبة الثانية ، وجعله قاضياً بمحكمة الاستئناف ، وهو في الثامنة والعشرين من عمره وأنعم

(٢٣) تعبير المفلوطى في «مخارجه» .

على عبد السلام بهذه الرتبة أيضاً ، وابقاه يزاول التجارة استبقاء هذا البيت التجارى القديم . وظهر ميل المترجم إلى الأدب من مشاركته محمد عارف باشا في تأسيس جمعية المعارف التى عنيت بإحياء الكتب العربية ، وقد سبق الكلام عنها ، ثم اشترك مع محمد بك عثمان جلال في إصدار جريدة سياسية اسمها (نزهة الأفكار) ولكن لم يصدر منها إلا عددان وصدر أمر إسماعيل بإلغائها .

وكان المترجم من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد اتصل من طريقه بالحركة السياسية التى ظهرت في عصر إسماعيل ، والتى انتهت بوضع اللانحة الوطنية وتأليف وزارة شريف باشا الأولى كما سيحىء بيانه في موضعه ، وعين سكرتيراً لإسماعيل راغب باشا وزير المالية في الوزارة الوطنية ، وكان المترجم من رجال إسماعيل المخلصين لشخصه . المغومرين بكرمه ، ولازمه في منفاه عدة سنوات ، اشتغل خلالها بالصحافة حيناً ، ثم ذهب إلى الاسناتة سنة ١٨٨٥ ، فأكرم السلطان عبد الحميد وفادته ، وعينه عضواً في مجلس المعارف ، وظل في هذا المنصب نحو تسع سنوات ، ثم عاد إلى مصر ، وكتب في الصحف مقالات جامعة في الأدب والسياسة والاجتماع ، جمع بعضها في كتاب سماه (ما هنالك) ، ثم أنشأ صحيفة (مصباح الشرق) وهى صحيفة أسبوعية نالت في عالم الأدب والكتابة مكانة لم تبلغها صحيفة أخرى ، وله فيها المقالات الرائعة التى كادت تبلغ عليا مراتب البلاغة والإنشاء لولا ما شابها من الإقذاع في المنهج ، والتقلب مع الأهواء ، وتوفى في ٢٩ يناير سنة ١٩٠٦ .

محمد بك عثمان جلال

(١٨٢٨ - ١٨٩٨)

واضع أساس القصة الحديثة في الأدب المصرى ، ولد في (ونالقس) بمديرية بنى سويف وتلقى العلم في مدرسة قصر العبنى (وكانت لم ترل مدرسة إعدادية) ، ثم في مدرسة أبى زعبل ، ثم في مدرسة الألسن ، فهد من تلاميذ رفاة بك رافع العلهطاوى ونبغ في العلوم وبدا عليه الميل إلى الشعر والأدب والتعريب ، وكان ميالاً إلى الفن الروائى يجيد التعريب فيه مع تصير ما يعربه أحياناً . وله كتاب (العيون اليواقظ) وهو تعريب شعرى لروايات لافونتين ومواعظه . وبعد هذا الكتاب أعظم آثاره الأدبية وأشهرها ، وعرب رواية (بول وفرجينى)

عن الفرنسية . ووضع كتاب (التحفة السنية في لغتي العرب والفرنسية) منظومة ، وعرب بعض الروايات التنبؤية . منها (تزتوف) لمولير . عربها بتصريف وأسمائها (الشيخ متلوف) بعد أن أسبغ عليها مسحة مصرية ، وقد مثلت هذه الرواية على المسرح في مصر ، وله أرجوزة في رحلة الخديو سنة ١٨٨٠ .

أدرك المترجم عصر محمد علي وخلفائه إلى أوائل عهد عباس الثاني ، وشغل مناصب عدة في الحكومة ، وآخر ما تولاه منها منصب القضاء في المحاكم المخططة سنة ١٨٨١ ، وأحيل إلى المعاش سنة ١٨٩٣ ، وتوفي سنة ١٨٩٨ عن سبعين سنة .

عائشة عصمت تيمور

(١٨٤٠ - ١٩٠٢)

« طليعة اليقظة النسوية »^(٢٤) ، في تاريخ مصر الحديث ، وقول من نبغ من المصريات في الشعر والأدب ، نشأت من بيت كرم ، إذ كان أبوها إسماعيل باشا تيمور ، أحد كبار الحكام في عصر عباس الأول وسعيد وإسماعيل ، وشقيقها العلامة أحمد باشا تيمور ، بدت عليها ملكة الأدب والشعر وهي بين السابعة والثالثة عشرة ، ورأى أبوها منها هذا الميل ، فعنى بتثقيفها ، وأحضر لها أستاذين لتأخذ عنهما الأدب والعلوم ، وقالت الشعر وهي في الثالثة عشرة ، فأعجب بها والدها وحجب إليها إجادته ، فأكبت على نظم الشعر بلغات ثلاث ، الفارسية والعربية والتركية ، وتزوجت في الرابعة عشرة بمحمد بك توفيق بن محمود بك الاسلامبولي ، فشغلها الحياة الزوجية عن الأدب حيناً ، فلما شئت ابنتها (توحيدة) عهدت إليها شؤون المنزل ، وبعد وفاة والدها سنة ١٨٨٢ وزوجها سنة ١٨٨٥ تفرغت للشعر والأدب . وانتقلت النحو والعروض على يد معلمتين من أهل العلم في هذا العصر ، هما فاطمة الأزهرية ، وستيتة الطبلاوية ، وعادت إلى نظم الشعر ، ثم توفيت ابنتها توحيدة فاشتد حزنها عليها ، وشغلت بالذكرى والبكاء سبع سنين عدداً ، ثم عادت إلى الكتابة والشعر ، وكانت وفاتها سنة ١٩٠٢ .

(٢٤) تعبير الكاتبة الأدبية (الآنسة م) في ترجمتها لعائشة عصمت تيمور.

ولها من الآثار الأدبية « حلية الطراز » وهو ديوان شعرها العربي ، و « شكوفة » وهو ديوانها التركي والفارسي . . و « نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال » وهي قصة أدبية كتبها بأسلوب انقذامات .

عبد الله باشا فكري

(١٨٣٤ - ١٨٨٩)

من أعلام الأدب في عصر إسماعيل ، ولد بمكة المشرفة ، وكان أبوه محمد أفندي بليغ قد تخرج في المدارس الملكية التي أنشأها محمد علي ، ومهر في العلوم الرياضية ، إلى أن صار من المهندسين . والتحق بخدمة الحكومة وحضر مواقع حربية ، أهمها في حرب الموره ، فعقد في الموره على والده المترجم ، وعاد بها إلى الحجاز ، فوضعت بمكة غلاما هو صاحب الترجمة ، وسمى باسم جده الشيخ عبد الله أحمد علماء الأزهر ، ثم عاد بليغ أفندي إلى مصر ، وما زال في خدمة الحكومة ، حتى تقلد منصب باشمهندس الشرقية ، ثم مفتش هندسة الجزيرة والبحيرة ، وتوفي سنة ١٢٦١ هـ . والمترجم لم يتجاوز الحادية عشرة ، فأخذ يطلب العلم بالأزهر وأتقن اللغة العربية وعلومها ، والحديث والتفسير والمنطق ، وتعلم اللغة التركية أيضا . والتحق بالمناصب مع استمراره حيناً على تلقى العلوم بالأزهر ، وانتظم في عهد سعيد باشا بالمعية السنية ، وتولى كتابة الإنشاءات الديوانية بالعربية والتركية ، واستمر بالمعية إلى عهد إسماعيل ، ورافقه في رحلته إلى الامتانة ، وظل متصلا به ، مشمولا برعايته وعهد إليه سنة ١٢٨٤ ملاحظة تعلم أنجاله الأمراء فاضطلع بهذه المهمة وكان يلاحظ الدروس التي تلقى إليهم وأحيانا يدرس لهم بنفسه .

وكان يتولى كتابة رسائل الخديو إسماعيل في مهام الدولة ، فهض بأسلوب الكتابة الرسمية ، ومعظم هذه الرسائل منشور في (الفوائد الفكرية) ، وتدرج في المناصب على عهد إسماعيل وتوفيق ، ولما انشئت إدارة المكاتب الأهلية بوزارة المعارف جعل وكيلها سنة ١٨٧١ ، وصار وكيلها لوزارة المعارف في بوليه ١٨٧٩ ، واستمر يشغل هذا المنصب إلى ديسمبر سنة ١٨٨١ ، إذ تألفت مجلس النواب على عهد الثورة العراقية ، فجعل كبير كتاب المجلس ، ولما استقالت وزارة شريف باشا وألف محمود باشا سامي البارودي الوزارة في فبراير سنة ١٨٨٢ ،

اشترك المترجم فيها متولياً وزارة المعارف العمومية ، فكان عضواً في « وزارة الثورة » التي عارضت الخديو توفيق باشا واستقالت احتجاجاً على مسلكه في مايو سنة ١٨٨٢ ، ومن هنا سخط الخديو على المترجم ، فلما أخفقت الثورة كان من المقبوض عليهم بتهمة الاشتراك في الفتنة ، ثم أطلق سراحه بعد أن أثبت براءته منها . ولكن معاشه كان موقوفاً من يوم اعتقاله ، فالتمس من توفيق باشا العفو عنه في قسيمة طويلة أبان فيها عن إخلاصه وولائه لسدته ، فأمر بإعادة معاشه ، وفي سنة ١٣٠٦ هـ ندبته الحكومة لرئاسة الوفد المصري في المؤتمر الذي انعقد بمدينة استوكهلم عاصمة السويد والنرويج ، وعرج على بعض بلاد أوروبا ، يصحبه نجله أمين باشا فكري ، ولما عاد اشتد به مرض أصابه أثناء رحلته ، حتى وافاه الأجل يوم ١٠ المحرم سنة ١٣٠٧ ، وكان كاتباً أدبياً وشاعراً بليغاً .

الشيخ عبد الهادي نجما الإياري

(١٨٢١ - ١٨٨٨)

من كبار الأدياء واللكتاب في ذلك العصر ، وصفه علي باشا مبارك في الخطط التوفيقية (ج ٨ ص ٢٩) بالخبر الهام وفخر العلماء الأعلام ، الإمام الأريب واللوزعي الأديب ، الشاعر الناثر ، المحافظ الماهر ، العلامة الشيخ عبد الهادي نجما ابن العلامة الشيخ رضوان الإياري ، ولد في إيبار غربية ، وتلقى العلم في الأزهر على يد شيوخه ، ونبغ في علوم اللغة والفقه والأدب ، فذاعت شهرته ، وعهد إليه الخديو إسماعيل بتقريف أبنائه وتعليمهم ، ومنهم الأمير توفيق باشا ، وكان وهو يتولى هذا المنصب يتصدر للتدريس في الأزهر وفي بيته ، وأخذ عنه كثيرون من جلة العلماء ، كالشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمد البسوي ، ولما تولى توفيق باشا الأريكة الخديوية قربه إليه وجعله إماماً للمعية ومفتياً ، وشغل هذا المنصب حتى وفاته ، وكان كاتباً أدبياً . راسل أعلام الأدب في سائر الأقطار كأحمد نارس الشدياق والشيخ ناصيف البازجي والشيخ إبراهيم الأحمد . وله مؤلفات قيمة في الأدب واللغة بلغت أربعين كتاباً .

السيد عبد الله نديم

(١٨٤٣ - ١٨٩٦)

الكاتب الشاعر الأديب . والخطيب الوطني المفوه ، أحد تلاميذ السيد جمال الدين الأفغاني ، ومن الذين استمكوا بتعاونه ومبادئه طول حياته ، ولد بالإسكندرية ، ونشأ محباً للأدب ، ميالاً للخطابة والشعر . جريئاً مقداماً ، مولعاً بالحرية . بدأت شخصيته الأدبية والسياسية تظهر في أواخر عهد إسماعيل ، وبدأ ينشر رسائله في جريدتي (مصر) و (التجارة) ، وأسس سنة ١٨٧٩ الجمعية الخيرية الإسلامية بالإسكندرية ، التي ضمت أعيان الثغر ووجهاءه ، وكانت باكورة أعمالها إنشاء مدرسة أهلية لتعليم البنين والبنات ، وهو أكبر خطباء الثورة ، وله فيها دور كبير سنفصله في موضعه من كتاب (الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي) .

أديب اسحق

(١٨٥٦ - ١٨٨٥)

الشاعر الناثر ، والصحفي السياسي الحر ، ولد في دمشق ، وبدأ منه منذ صباه الميل إلى الشعر والأدب ، والتعلق بالحرية ، فما أن جاء مصر حتى اتصل بجمال الدين وصار من أخلص تلاميذه ، وأصدر جريدة (مصر) ثم جريدة (التجارة) وامتازنا بالأسلوب البليغ والروح الوطنية ، وكان السيد جمال الدين يكتب فيها أحياناً ، وكذلك الشيخ محمد عبده ، ولقيت الصحيفتان إقبالا عظيماً ، ثم ألغيتا بأمر رياض باشا ، وهجر أديب اسحق مصر سنة ١٨٨٠ ، ورحل إلى باريس حيث أصدر فيها جريدته باسم (القاهرة) ، وهناك أصيب بعلته الصدر ، وعاد إلى بيروت ، ثم رجع إلى مصر في عهد الثورة العربية . وأعاد إصدار جريدة (مصر) ، وعين رئيساً لقلم الترجمة بوزارة المعارف ، ثم كاتباً ثانياً لمجلس النواب ، ولما أخفقت الثورة هاجر من مصر ضمن من هاجروا إلى سوريا ، واشتدت به علة الصدر ، فجهاء مصر للاستشفاء . فلم تتقدم صحته ، فعاد إلى بيروت ، ولم يمض عليه ثلاثون يوماً حتى عاجلته المنية سنة ١٨٨٥ وهو في ريعان الشباب ، وقد جمعت أقواله وأشعاره في كتاب اسمه « الدر » .

الشيخ اللبني

(توفى سنة ١٨٩٦)

شاعر الخديو إسماعيل ، وشيخ التدماء في عصره . كان أديباً ذكياً الفؤاد . حاضر البديهة ، لطيف العشرة ، حلو الحديث . خفيف بروح . محباً للخير ، محبوباً من معاصريه ، قربه إليه الخديو ، وجعله منشئاً بالمعية . وكان يستصحبه في غداياته وروحانيته ، ويحرمه ويأنس لسمره وأحاديثه ، وله ديوان شعر لم يضع .

على أبو النصر المنفلوطي

(توفى سنة ١٨٨١)

من شعراء ذلك العصر المجيدين ، ولد في منفلوط ، وتعلق منذ صباه بالشعر والإنشاء ، فقربه إسماعيل إليه وجعله « منشئاً بالمعية » ونال جوائزته وهباته ، ورافقه في سفره إلى الأستانة على عهد السلطان عبد العزيز ، وله ديوان شعر طبع ببولاق سنة ١٣٠٠ هـ .

الشيخ حسن الطويل

(توفى سنة ١٨٩٩)

هو أنبغ من درس المنطق في مصر قبل حضور السيد جمال الدين الأفغاني ، ومن كبار علماء الأزهر وأساتذة دار العلوم ، وجهابذة المنطق والعلوم الرياضية ، أخذ عنه العلوم الشرعية والرياضية والفلسفية نخباً من علماء مصر وأدبائها . توفى في ٤ يولييه سنة ١٨٩٩ .

السيد صالح مجدى بك

(١٨٢٧ - ١٨٨١)

كاتب شاعر ، ومعرب ومؤلف ، ولد بقرية أبي رجوان القبيلية سنة ١٢٤٣ هـ وتلقى العلم في مكتب حلوان من المكاتب النظامية التي أنشأها محمد علي باشا ، ثم في مدرسة الألسن ، فأتقن علوم اللغة العربية ، ودرس الفرنسية ، ومهر في التعريب على يد أستاذه رفاعه بك رافع

الطهطاوى ، وبعد أن تخرج في مدرسة الألسن التحن بقلم الترجمة ، وتخصص في تعريب كتب الرياضيات ، ثم انتقل إلى مدرسة المهندسخانة ، وتولى بها تدريس العربية والفرنسية والترجمة . وعرب كثيراً من الكتب الرياضية وكانت كلها تدرس في المدارس ، وله غير ذلك من الكتب التي تجل عن الحصر ، كما يقول عنه العلامة على باشا مبارك (الخطط ج ٨ ص ٢٢) ، وبعد أن قضى عشر سنوات يتولى التدريس في مدرسة المهندسخانة انتقل إلى ألابى المهندسين والكبورية ، وتولى ترجمة وتصحيح ما يعرب من الفنون الحربية ، وانتقل في عهد إسماعيل إلى قلم الترجمة المستجد ، واشترك في ترجمة (الكود) قانون نابليون ، وتولى هو تعريب قانون تحقيق الجنابات ، واستمر يرقى في المناصب حتى جعل سنة ١٢٨٧ هـ مأموراً لإدارة المدارس ولما أنشئت المحاكم المختلطة عين قاضياً بمحكمة مصر المختلطة ، وشغل هذا المنصب حتى توفى سنة ١٨٨١ ، وكان شاعراً أديباً ، وله ديوان شعر كبير طبع سنة ١٣١٢ هـ ، وله مقالات أدبية في مجلة (روضة المدارس) ، ووضع كتاباً لم يطبع في ترجمة حياة رفاعه بك رافع اسمه (حلية الزمن بمنابح خدام الوطن) ، وقد أحصى العلامة على باشا مبارك مؤلفاته وتراجمه فبلغت خمسة وستين كتاباً ورسالة ، وكتب بيده من الكراريس ما لا يدخل تحت حصر .

إبراهيم بك مرزوق

(١٨١٧ - ١٨٦٦)

شاعر أديب ، أدرك أوائل عهد إسماعيل ، وهو من تلاميذ رفاعه بك ، توفى بالخرطوم سنة ١٨٦٦ ، وله ديوان شعر جمعه محمد بك سعيد ابن جعفر مظهر باشا حكمدار السودان وسماه « الدر البهي المنسوق » ، بديوان إبراهيم بك مرزوق طبع ببولاق سنة ١٢٩٤ هـ .

أبو الوفاء نصر الخوريني

(توفى سنة ١٨٧٤)

من خريجي بعثات محمد علي ، وكان يجيد الفرنسية ، وله كتاب « المطالع النصرية للمطالع المصرية في الأصول الخطية » وكتاب « نسبية المصاب على فراق الأحباب » .

محمود صفوت الساعاتي

(توفي سنة ١٨٨٠)

شاعر أديب ، توجه إلى الحجاز ، فأكرم أمير مكة مثواه ، وأبقاه عنده مدة ثم عاد إلى مصر والتحق بالمعينة ، وعرف بالساعاتي لبراعته في فن الساعات ، وإن لم يجترئه ، وله ديوان مطبوع سنة ١٩٢٢ .

محمد عارف باشا

من أفاضل علماء ذلك العصر وأدبائه في اللغتين العربية والتركية ، وقد تجلّى ميله إلى العلم والأدب في إنشائه جمعية المعارف التي سبق الكلام عنها .

أحمد بك عبيد

(توفي سنة ١٨٨٠)

من نوابغ خريجي مدرسة الألسن ، ورئيس قلم الترجمة بوزارة الحربية ، وله تراجم في الفنون الحربية والرياضية ، وترجم عن الفرنسية تاريخ بطرس الأكبر ، وكان وكيلاً للمحكمة التجارية بالقاهرة ، ثم قاضياً بمحكمة الاسكندرية المختلطة سنة ١٨٧٥ .

خليفة أفندي محمود

من خريجي مدرسة الألسن ، ومن أتبع تلاميذ رفاة بك ، التحق بقلم الترجمة وصار رئيس القسم الخاص بترجمة التواريخ والأدبيات في هذا القلم ، وله تراجم كثيرة في التواريخ منها (إنحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات في بلاد أوروبا) وهو مقدمة لتاريخ الأمبراطور شارلكان الذي عرّبه بعنوان (إنحاف ملوك الزمان بتاريخ الأمبراطور شارلكان) . لروبرتستون ولجم المؤرخ الإنجليزي في ثلاثة أجزاء طبعت سنة ١٢٦٦ هـ وأدرك أوائل عصر إسماعيل وتوفي سنة ١٢٨١ هـ (٢٥) (١٨٦٤) .

(٢٥) كما جاء في المخطوط التوفيقية ج ٨ ص ٢٣ .

بقية أعلام الأدب

وثمة أدباء آخرون . مثل الشيخ محمد قطه العلوي أحد كبار الأساتذة في مدرسة الألسن ، وقد أدرك أوائل عصر إسماعيل ، والشيخ أحمد عبد الرحيم الأستاذ بمدرسة الألسن ، والشيخ مصطفى سلامة ، وكلاهما من محرري الوقائع المصرية ، والشيخ إبراهيم عبدالغفار اللسوقي كبير مصححي الكتب العلمية واستاذ المستشرق (بن) والمتوفى سنة (١٨٨٣) ، وإبراهيم بك اللقاني أحد تلاميذ السيد جمال الدين الأفغاني ، وكان يكتب في جريدتي (مصر) و (التجارة) ثم في (مرآة الشرق) وغيرها من الصحف . والزرقاني الشاعر الأديب . ومحمد أفندي عبدالرازق المتوفى سنة ١٨٧٣ (١٢٩٠ هـ) معرب كتاب (غاية الأرب في خلاصة تاريخ العرب) للمسيو سديليو طبع سنة ١٢٨٩ هـ . والشيخ حمزة فتح الله وقد بدأت كتابته اللغوية تظهر في ذلك العهد ، وأمين بك فكرى نجل عبد الله باشا فكرى ، وعلى بك فهمى رفاة نجل رفاة بك ، وأحمد بك قنحى ناظر مدرسة رأس التين . وتادرس أفندي وهى (بك) . ومحمد أفندي فى ، وعبد السلام أفندي سلمى . والشيخ عثمان مدوخ ، وهؤلاء ظهرت باكورة آثارهم الأدبية في مجلة (روضة المدارس) .. إلخ . إلخ .

علماء الهندسة والرياضيات

على باشا مبارك . مصطفى بهجت باشا ، محمد مظهر باشا . أحمد فايد باشا ، حسين باشا فهمى المعار ، أحمد بك السبكي . حسن بك نور الدين . وهؤلاء قد ترجمنا لهم في عصر محمد على ، ص ٥١٥ وما بعدها (من الطبعة الأولى) .
حسين حسنى باشا وقد ترجمنا له في الكتاب الحالى ص ٢٥٣ .

محمود باشا الفلكي

(١٨١٥ - ١٨٨٥)

هو محمود باشا حمدى الفلكي ، أتبع من أنجبهم مصر الحديثة في الفلك والرياضيات ، ولد سنة ١٢٣٠ هـ - ١٨١٥ م بيلدة الحصنة بمديرية الغربية ، وعنى أخوه بتربيته وأدخله مدرسة الإسكندرية التي أنشئت سنة ١٨٢٤ في عهد محمد على ، فارتقى إلى رتبة بلوك أمين .

علماء الهندسة والرياضيات في عصرنا الحديث



وكان أخوه قد سبقه إلى دخول هذه المدرسة وتخرج منها ضابطاً في الأسطول . ثم انتقل المترجم إلى مدرسة المهندسخانة بمصر ، فبدأ أقرانه من التلاميذ في العلم والذكاء وحسن الاستعداد ، وتخرج من المدرسة سنة ١٢٥٥ هـ وكان من أوائل الناجحين . فعين أستاذاً مساعداً للعلوم الرياضية بها ، ونال رتبة ملازم ثان ، وكان من تلاميذه وقتئذ على مبارك (باشا) . وبقى يتولى التدريس بالمهندسخانة ، وتعلم اللغة الفرنسية واستطاع أن يعرب بعض الكتب الفرنسية في الرياضيات ، وأخذ يتقن من ذلك الحين دراسة العلوم الفلكية في المؤلفات التي وضعها كبار علماء الفلك بفرنسا ، ويدرس هذه العلوم لتلاميذ المهندسخانة ومن تلاميذه فيها إسماعيل (باشا) الفلكي ، وابتكر وضع التقاويم السنوية ، فوضع تقويمًا لسنة ١٢٦٤ هـ قارن فيه بين التواريخ الهجرية والميلادية والقبطية ، وبين مواقع الشمس والقمر لتلك السنة . وعرف بين الناس من ذلك الحين بلقب (الفلكي) ، الذي لازمه طول حياته .

وفي سنة ١٢٦٦ هـ (منتصف سنة ١٨٥٠) اعترم عباس باشا الأول إعادة تنظيم رصدخانه بولاق (دار الرصد) المنشأة في عهد محمد علي ، فأخذ ثلاثة من نوابغ المهندسين إلى باريس للتخصص في الفلك ، وهم المترجم وكان مدرسا بالمهندسخانة وحسين أفندي إبراهيم ، وإسماعيل مصطفى الفلكي ، وكانا قد أتتا دراستها بالمدرسة ، فسافروا إلى أوروبا سنة ١٨٥١ ، ومكث المترجم نحو تسع سنوات مكثا على استكمال العلوم حتى نبع في الرياضيات والفلك .

وكان يواصل الحضور بدار الرصد في باريس ، وزار دور الرصد في مختلف النواحي بأوروبا ، وظهر نبوغه هناك بإدخاله بعض إصلاحات في الآلة السماء بالتيلودوليد ، ونشر بعض مباحث فلكية في المجلات الأوروبية ، ووضع أثناء دراسته بباريس الرسائل الآتية :

١- رسالة عن التقاويم الإسلامية والإسرائيلية طبعت سنة ١٨٥٥ ببروكسل .

٢- رسالة عن التقاويم العربية قبل الإسلام حقق فيها مولد النبي عليه الصلاة والسلام ونشرت في المجلة الأسبوعية ثم عربها الأستاذ أحمد زكي (باشا) بعنوان (نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام) .

٣- رسالة عن فعل « كان » .

٤- رسالة عن المواد المغناطيسية الأرضية قدمها سنة ١٨٥٦ إلى المجمع العلمي بفرنسا . ونال المترجم أعظم الشهادات العلمية ، ثم عاد إلى مصر في عهد سعيد باشا سنة

١٨٥٩ ، فأتم عليه برتبة أميرالاي ، وعهد إليه وضع خريطة مفصلة للفطر المصري . فاضطلع بهذه المهمة وشرع في تخطيط تلك الخريطة بمعاونة بعض المهندسين . ورتب انرسامه وأبرز من جليل صنعه وجميل وضعه لما اتبهرت منه العقول ووقفت على مقدار براعته « (٢٦) » . فأخرج خريطة جامعة للوجه البحرى لم يسبقه إليها أحد من العلماء والمهندسين ، ووضع خريطة أخرى للوجه القبلى ، وأخرى عن مدينة الإسكندرية .

وفي سنة ١٢٧٦ هـ عهد إليه سعيد باشا بالرحلة إلى دنقلة لملاحظة كسوف الشمس الكلى ، فأدى هذه المهمة ، واتبهرت هذه الفرصة فحقق المواقع الفلكية على النيل ، ووضع رسالة مسهبة عن هذا الكسوف قدمها إلى سعيد باشا وإلى أكاديمية العلوم بباريس فالت استحسان العلماء .

وخطط معالم الإسكندرية القديمة ، ونقب في حفائرها ، وهو أول عالم عصرى كشف عن آثار الإسكندرية وموقع سورها القديم ، وله في ذلك رسالة يديعة باللغة الفرنسية عن الإسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وهى رسالة تتضمن نتائج مكشفاتة وما قام به من النقب والحفر ، وما وصل إليه من كشف معالمها القديمة ، كأسوارها ، وشوارعها ، وأقبيتها ، ومراسحها ، ومتحفها ، ومكتبتها الشهيرة ، وقصورها ، ومبانيها ، وضواحيها ، ولم يسبقه إلى هذه المكشفات المؤسسة على عمليات الحفر عالم عصرى من الأفرنج ، لأن مهندسى الحملة الفرنسية لم يكن لديهم الوقت ولا الوسائل الكافية للحفر والتنقيب « (٢٧) » ، وقد بحث اثنان منهم في مواقع الإسكندرية ، أولها المسيو سان جنيس Scinl genis أحد مهندسى الحملة ، وله في الإسكندرية القديمة بحث مستفيض منشور في الجزء الخامس من كتاب (تخطيط مصر) Description de L'Egypte ولكن المسيو سان جنيس لم ينقب ولم يحفر الأرض كما فعل محمود باشا الفلكى . بل اكتفى بذكر نتائج مشاهداته وآرأته التاريخية ، وكذلك كتب المسيو جراتيان لويير Gratiem Lepere بحثاً في وصف الإسكندرية نشر في الجزء الثامن عشر ، اقتصر فيه على تدوين مشاهداته وما نقله عن مؤرخى الأفرنج والعرب ، وللمسيو نورى Norry وللمسيو مارتان Martin وكلاهما من مهندسى الحملة الفرنسية بحثان أقل أهمية من أبحاث

(٢٦) عن ترجمة حياته بقلم إسماعيل بك (باشا) الفلكى والأميرالاي محمد مختار بك (باشا) في محاضرة ألقاها بالجمعية الجغرافية بجلنة ٨ يناير سنة ١٨٨٦ ونشرت في مجلة الجمعية بمجموعة ٢ عدد ١٢ .
(٢٧) عن كتابها تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١٦٦ (طبعة أول) .

سان جنيس وجراتيان لويير ، منشور في الجزء الخامس عشر من كتاب (تخطيط مصر) وكل هذه المباحث لم تكن مقرونة بأعمال الحفر والتنقيب .

فمحمود باشا الفلكى هو أول عالم عصرى خطط معالم الإسكندرية القديمة ، على ما كشفت له أعمال الحفر تحت الأرض ، وقد بذل في مكشفاتة جهوداً كبيرة . وكان تحت إمرته جماعة من المهندسين المصريين ، ونحو مائتى عامل يشتغلون في النقب والحفريات ، ومما أفرد عمله وميزه أنه استثار الأرض في عهد الحديو إسماعيل باشا ، أى قبل أن تغطي بالمباني الحديثة ، وتضيق معالم الآثار ، فهو أول من خطط سور البطالسة القديم تخطيطاً منبياً على الاكتشاف والفحص الدقيق .

ورسالة محمود باشا الفلكى مقرونة بخريطة هى أبداع ما رسمه العلماء والمهندسون عن الإسكندرية القديمة ، وإليها يرجع علماء أوروبا في أبحاثهم .

وقد خالف علماء الحملة الفرنسية في بعض آرائهم ، فعين لمدينة (كانوب) مكاناً غير الذى عينوه ، وكشف أطلال مدينة نابوزيريس (بوصير- غربى الإسكندرية) التى يسمى الفرنسيون برجها برج العرب .

وله رسالة متمعة في التوضيح عن عمر الأهرام والغرض الأصيل من تشييدها ، وتناسبها مع كوكب الشعرى ، وأخذ بنفسه مقياس الأهرام وموقعها من التناسب الفلكى .

قال الأميرالاي محمد مختار بك (باشا) في هذا الصدد : « وكنت موجوداً معه عند شروعه في أخذ مقياس الأهرام وموقعها من التناسب الفلكى ، وأعلم علم اليقين أنه وصل إلى معرفة الغرض من تشييدها ، إذ وجدها محكمة البناء في رسم يقابل كوكب الشعرى عند طلوعه ، فكان الذى بناها قصد أن يجعلها مزولة ليعرف منها يوم شم نسم العلماء ، وكذلك لأجل تعريض جثث المدفونين فيها لموافاة صعود الكوكب المذكور ، فيسبغ عليهم من آياته رحمة وغفرانا ، لأن كوكب الشعرى كان من معبودات المصريين القدماء » .

وله رسالة في التنبؤ بارتفاع النيل قبل وقوعه ، وأخرى عن ضرورة إنشاء دار الرصد بمصر ، وأخرى في توحيد موازين العملة في الديار المصرية ، ورسالة في المقياس والمكاييل في مصر ، وترجم كتاب (حساب التفاضل والتكامل) .

وعين سنة ١٨٧١ ناظراً لمدرسة المهندسخانة ، وتولى نظارة الرصدخانة ، وإذا كان وكيلاً للجمعية الجغرافية ، فقد ناب عن الحكومة المصرية في المؤتمر الجغرافى الذى عقد بباريس سنة

عهد إليه بنظارتها ، وقد عهد إليه دراسة مشروع سكة حديد سواكن - بربر بالسودان .
فبحثه ووضع تصميما له ، ولكنه لم ينفذ ، وناب عن الحكومة سنة ١٨٧٣ في مؤتمر الإحصاء
الدولي بموسكو ، فأصبح العلماء بكنهاته وسعة إطلاعه ، وتولى نظارة الرصدخانة ونظارة
مدرسة الهندساختة .

ومن أعماله أن أصلح مقياس النيل في أسوان سنة ١٨٧٠ ، وله مؤلفات في الفلك

والرياضيات أهمها :

- ١- الآيات الباهرة في النجوم الزاهرة ، طبع ذبلا لجملة روضة المدارس .
- ٢- الدرر التوفيقية .
- ٣- تقويم فلكية كان ينشروها كل عام بالعربية والفرنسية .
- ٤- والنسخة المرصية في المقياس والموازن الثرية معربة عن الفرنسية شاركة في تحريرها
صادق بك شنن .

سلامة باشا

هو سلامة باشا إبراهيم ، مفتش هندسة الوجه البحرى ، ثم مفتش هندسة الوجه القبلى ،
ثم مفتش عموم ديوان (وزارة) الأشغال ، وهو من كبار المهندسين في ذلك العصر ، وأصله
من الإسكندرية . وأبوه السيد إبراهيم شراييه بن صالح شراييه من أهالي النفر^(٢٨) ، وله آثار
تشهد له بالكفاءة في الأعمال الهندسية ، منها أنه أنشأ ترعة الساحل ، وكان وقتئذ وكيلًا لمظهر
باشا مفتش بحر الشرق (فرع دياط) على عهد سعيد باشا ، واشترك مع مصطفى بهجت باشا
في إنشاء الترعة الإبراهيمية ، وهى من أجل أعمال العمران التى انبثت في ذلك العصر ، وفى
إقامة قاطر التقسم على الترعة المذكورة ، وهى من أعظم قاطر الرى في العالم .

محمد ناقيب باشا

من أهالي القرشية بمديرية الغربية ، ومن مشاهير المهندسين في عصر محمد على وإسماعيل ،
حضر بعض المواقع الحربية على عهد محمد على ، وعاون مصطفى بهجت باشا في بناء القناطر
الحربية . وصار مفتش هندسة الوجه القبلى ، توفى سنة ١٨٧٤ .

(٢٨) عن حجة شرعية سرد ما ملأه باشا في يوم الأحد ١٥ المحرم سنة ١٣٠٠ مسجلة بمكتبة مصر الشرقية .

١٨٧٥ ، والمؤتمر الجغرافى الآخر الذى عقد بمدينة البندقية سنة ١٨٨١ .
ومن أعماله إنشاء مدفع الظهور بالقلعة . وأنشأ على سطح منزله (جيدان الفلكى) منزلة تينين
ساعات النهار ، ورفعت من مكانها بعد وفاته .

وقد تولى وزارة الأشغال سنة ١٨٨٢ في عهد وزارة إسماعيل راعب باشا ، وعين وكيلًا
لوزارة المعارف في وزارة شريف باشا سنة ١٨٨٢ - ١٨٨٤ .

ثم عهد إليه بوزارة المعارف في عهد وزارة نوبار باشا الثانية سنة ١٨٨٤ ، وتولى رئاسة
الجمعية الجغرافية الخديوية ، وتولى يتولاها مع الوزارة إلى أن توفى في ١٩ يولييه سنة ١٨٨٥ .
وقد أنبته الجمعية الجغرافية الخديوية في اجتماعها يوم ٨ يناير سنة ١٨٨٦ ، وألقى كل من
إسماعيل بك مصطفى الفلكى والأميراللى محمد مختار بك محاضرة في ترجمة حياته وآثاره ،
واقترح الأميراللى محمد مختار بك اقتناء مكتبة الترجمة ، وما فيها من نفائس الكتب ،
وما خطه وما دونه من ملاحظاته ومعلوماته ، ونتائج اختياراته العلمية ، وكان الترجمة يتكبر في
إعداد قاعة عامة للمطالمة بداره يمرض فيها لمن يرغب من محبى الإطلاع كل ما وصل إليه من
نفائس الكتب والمخطوطات ، وقد تحققت هذه الفكرة سنة ١٩٢٩ ، إذ وهبت
كرميته مكتبة الفقيه إلى الحكومة .

إسماعيل باشا الفلكى

(توفى سنة ١٩٠١)

هو إسماعيل باشا مصطفى الفلكى ، من تلاميذ محمود باشا الفلكى ، ومن تلاميذ علماء
الرياضيات والفلك ، أتم دراسته في مدرسة الهندساختة بيولاك والتحق سنة ١٨٤٥ على عهد
محمد على بالرصدخانة القديمة التى كانت بيولاك ، ثم أوفده عباس الأول سنة ١٨٥٠ ضمن
البعثة التى خصصها لدراسة الفلك ، وكانت مؤلفة من محمود حمدى (باشا) الفلكى ، ومن
الترجم وحسين أفندى إبراهيم ، ومكث إسماعيل أربعة عشر عاما في فرنسا يدرس علوم
الفلك ، ويثقف فيها ، ويأمرسها في دور الرصد ، فحاز ببحر هو ومحمود باشا لقب
(الفلكى) ، ومارس أيضا صناعة الآلات الفلكية ، وأتقنها في باريس ، وعاد إلى مصر في
أوائل عهد إسماعيل ، فقدر كفاءته وأتم عليه بالرتبة الثانية ، ولما أنشأ الرصدخانة بالعباسية

إسماعيل باشا محمد

ناظر قلم الهندسة ورئيس إدارة دروس المدارس الملكية ، ثم مفتش هندسة الوجه القبلي ، واشترك في إتمام ترعة الإبراهيمية وقناطرها ، وهو الذي صار رئيس مجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٩ .

أحمد بك نجيب

أستاذ الرياضة بمدرستى أركان حرب والطوبجية ، وله كتاب (التحفة البهية في الهندسة الوصفية) ، طبع سنة ١٢٩٠ هـ .

حسين أفندى على الديك

مدرس الحساب بمدرسة المحاسبة ، وله كتاب قيم في مسك الدفاتر اسمه (عدة الحاسب وعمدة الكاتب) طبع سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩) وله كتاب (عمل الدواوين المتواتر في بيان رسوم الدفاتر) طبع سنة ١٢٩١ .

على أفندى عزت

أستاذ العلوم الرياضية بالهندسة ، توفي سنة ١٨٧٢ وله كتاب (حسن الصنعة في علم الطبيعة) طبع سنة ١٢٧٠ هـ ، و (النخبة العزية في تهذيب الأصول الهندسية) طبع سنة ١٢٧٤ و (الخلاصة العزية في تهذيب الأصول الحسابية) طبع سنة ١٢٨٥ .

عامر بك سعد

أستاذ الرياضيات بالمدارس الحربية ، وله (المنحة الزهرية في الأعمال الجبرية) طبع سنة ١٢٦٩ هـ ، و (أحسن الوسائل لتصريف السوائل) طبع سنة ١٢٩١ ، وهو ملخص القواعد النظرية في تصريف المياه من البحيرات والجداول .

السيد غمارة

من تلاميذ رفاعة بك ، وله كتاب (تهذيب العبارات في فن أخذ المساحات) عربية عن الفرنسية بإرشاد رفاعة بك .

علماء الطب والجراحة

محمد علي البقل باشا ، أحمد حسن الرشيدى بك ، محمد الشافعى بك ، حسين عوف باشا . وهؤلاء قد ترجمنا لهم في «عصر محمد علي» ص ٥٢١ وما بعدها (طبعة أولى) .

محمد درى باشا

(١٨٤١ - ١٩٠٠)

كبير الجراحين في عصره ، ولد بالقاهرة سنة ١٢٥٧ هـ ، وأبوه السيد عبد الرحمن أحمد من محلة أبى على القنطرة (غربية) ، تلقى التعليم الابتدائى والثانوى ، ثم التحق بمدرسة المهندسخانة في عهد نظارة على باشا مبارك ، لكنه كان ميالا إلى الطب ، فزال يسعى في الانتقال إلى مدرسة قصر العيني حتى وفق إلى غرضه سنة ١٢٦٩ هـ ، والتحق بها ، وأكسب على الدراسة ، ونجح في الامتحان السنوى ، ولكن سعيد باشا أمر بإلغاء مدرسة الطب وأخرج منها تلاميذها ، فكان المترجم ضمن من ألقوا بإحدى الأورط العسكرية في الجيش ، فلم يتسرب اليأس إلى نفسه ، وأخذ يعنى بالإطلاع على المعلومات الطبية ما استطاع إلى ذلك سبيلا . واشتغل ممرضاً في الجيش ، وظل كذلك إلى أن أعاد سعيد باشا فتح مدرسة الطب ، فعاد إليها المترجم ، وأتم دراسته بها ، وظهرت عليه علامت الذكاء والنبوغ ، فعين مساعداً ومعيداً للجراحة بالمدرسة .

وفي سنة ١٢٧٩ هـ أوفد سعيد باشا بعثة من الأطباء لإتمام دراستهم في باريس مؤلفة من الأطباء محمد بك فوزى ، ومحمد بك عامر ، وقاسم بك فتحى ، ومحمد بك القطاوى . وعلى بك رياض ، ومحمد بك زهران ، وعقبابوى أفندى ، والمترجم ، وكان أصغرهم سناً . وقد استدعت الحكومة هؤلاء الأطباء في أوائل عهد إسماعيل ، قبل إتمام دراستهم . لاحتياج

علماء الطب والجراحة في عصر أسماؤنا

الحكومة إليهم ، فرجعوا إلى مصر ، عدا المترجم فقد استثنى منهم لصغر سنه ، فأكمل معارفه الطبية وأتم دروسه على أشهر جراحى العالم وقتئذ ، وبقي يوالى الدرس واتخصص في باريس نحو سبع سنوات ، ونبغ في الجراحة نبوغاً عظيماً ، شهد له به أساتذته ، وفي خلال هذه المدة قابل الخديوي إسماعيل في باريس ، فشمله بعطفه ورعايته ، إذ سمع من أساتذته الثناء المستطاب على كفاءته واجتهاده .

وعاد المترجم إلى مصر ، فتقلد المناصب الطبية ، وأهم ما تقلده منصب كبير الجراحين بمستشفى قصر العيني ، والأستاذ الأول للجراحة بمدرسة الطب ، وأنعم عليه بالرتب إلى أن نال الباشوية سنة ١٣١٥ هـ ، وسطع نجمه في الجراحة ، وذاعت شهرته فيها حتى عمت أرجاء البلاد ، وبلغ ذروة الشهرة بما عرف عنه من النبوغ في فنه ، والمهارة في إجراء العمليات الجراحية الخطيرة ، والدقة في تشخيص الداء والدواء ، والتفاني في الإخلاص لعمله وفنه ، وحب الإنسانية ، والبر بالفقراء والمعوزين ، هذا إلى تعلقه بالعلم والتأليف ، فقد أفتى مكتبة علمية من أنفس المكاتب ، وألف مجموعة تشريحية من أعظم ما جمعه الأطباء ، وأنشأ لنفسه مطبعة لطبع مؤلفاته ورسائله ، سميت المطبعة الدرية ، كان يطبع فيها المؤلفات الطبية التي ظهرت في عصره ، وقد ظل مخلصاً لفنه وللعلم حتى وافته المنية ليلة ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٠ ، وأهم مؤلفاته الطبية « بلوغ المرام في جراحة الأجسام » طبع بالمطبعة الدرية في أربعة مجلدات ، وله « الإسعافات الصحية في الأمراض الوبائية » طبع سنة ١٣٠٠ هـ .

حسن بك عبد الرحمن

(توفى سنة ١٨٧٥)

تخرج من مدرسة الطب بقصر العيني ثم تولى تدريس التشريح فيها ربيع في هذا الفن ، وترجم كتاب (القول الصحيح في علم التشريح) طبع سنة ١٢٨٣ هـ بإرشاد محمد علي باشا البقل إذ كان ناظراً لمدرسة الطب .

احمد
حسن الرشيدى
بك



حسن بك
عبد الرحمن

محمد الشافعى
بك



حسن بك
شامى

عيسى باشا
حمدي

سالم باشا
سالم

جليلة
تمهسان

محمد بك
دبر

ابراهيم باشا
حسن
محمد بك
حافظ

عبد الرحمن
بك
أبروي
خير
عوي
باشا

محمد بك حافظ

(توفي سنة ١٨٨٧)

تخرج في مدرسة قصر العيني ، وأتقن فن الرمد بأوروبا ، ثم تولى تدريسه بقصر العيني ، وله كتاب (مطمح الأنظار في تشخيص أمراض العين بالبحث بالمنظار) طبع سنة ١٢٩٩ هـ .

سالم باشا سالم

(توفي سنة ١٨٩٣)

من القناتيات بمديرية الشرقية ، تعلم في مدرسة الألسن ، ثم في مدرسة الطب ، وأوفدته الحكومة في عهد عباس باشا الأول لإتمام دراسة الطب في مونيخ بألمانيا ، فأكمل دراسته علماً وعملاً ، وعاد إلى مصر ، وارتقى في المناصب الطبية وجعله الخديو توفيق باشا طبيبه الخاص ، وله من المؤلفات :

- ١- وسائل الابتهاج إلى الطب الباطني والعلاج طبع سنة ١٢٩٨ هـ في أربعة مجلدات .
- ٢- دليل المحتاج في الطب والعلاج .
- ٣- اليتامى الشفائية والمياه المعدنية .

جليلة تمرهان

(توفيت سنة ١٨٩٩)

من خريجات مدرسة القابلات (الولادة) ، ثم تولت التدريس فيها ، ولها في فن الولادة كتاب (محكم الدلالة في أعمال القبالة) طبع سنة ١٢٨٦ هـ .

محمد بك بلر

(توفي سنة ١٩٠٢)

من زاوية البقلي بمديرية المنوفية ، ومن خريجي مدرسة الطب بقصر العيني ، وأحد تلاميذ محمد علي باشا البقلي ، أتم دراسته في إنجلترا وعاد منها في عهد سعيد ، فولى مناصب عدة

حتى صار أستاذاً في مدرسة الطب ، ونال منزلة رفيعة لدى اسماعيل ، وله من المؤلفات :

- ١- الفرائد الدرية في علم الشفاء والمادة الطبية طبع ١٣٠٧ هـ .
- ٢- الدرر البديرة النضيدة في شرح الأدوية الجديدة طبع سنة ١٣١٠ هـ .
- ٣- الصحة التامة والمنحة العامة طبع سنة ١٢٩٦ هـ .

أحمد حمدي باشا

(توفي سنة ١٩٠٣)

هو نجل الدكتور محمد علي باشا البقلي ، ومن خريجي مدرسة قصر العيني ، ثم أتم دراسته في باريس وبعد عودته إلى مصر سنة ١٨٦٩ عين أستاذاً للعمليات الجراحية في حياة أبيه ، وحذا حذوه في التأليف .

حسن باشا محمود

(١٨٤٧ - ١٩٠٦)

ولد بقرية الطالبية في طريق الأهرام وتلقى علومه بالمدرسة الحربية ، أوفدته الحكومة سنة ١٨٦٢ ضمن بعثة مدرسية إلى ألمانيا لدراسة الطب ، وعاد ١٨٧٠ ، فعين أستاذاً للتشريح في مدرسة قصر العيني ، وتقلد مناصب عدة ، إلى أن صار ناظراً لمدرسة الطب ، وله مؤلفات قيمة ومباحث طبية كان ينشرها في المجلات العلمية كروضة المدارس ثم المقتطف .

إبراهيم باشا حسن وعيسى باشا حمدي

كلاهما من نوابغ الأطباء ، وللأول كتاب (روضة الآسى في الطب السياسي) ، طبع سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦) ، وتولى الثاني نظارة مدرسة الطب سنة ١٨٨٣ ، وله عدة مؤلفات

طبية

علماء الفقه والقانون



محمد قلدري باشا

(١٨٢١ - ١٨٨٦)

العالم المشرع الكبير ، ولد بملوى حوالى سنة ١٨٢١ ، من أب اناضولى وأم مصرية ، وتلقى التعليم الأول بمكتب ملوى ، ثم التحق بمدرسة الأسن على عهد رفاعه بك رافع الطهطاوى ، فظهر نبوغه وميله إلى العلم والترجمة ، وبعد أن تخرج فيها جعل مترجماً مساعداً لها ، وانتهجه ميله إلى دراسة علوم الفقه ومقارنة الشريعة الإسلامية بالترازين الأوروبية ، فحضر بعض دروس الفقه بالأزهر ، وأقبل على كتب الشرع يدرسها ويفهمها ، وظل يشغل مناصب الترجمة في الحكومة إلى أن قرره الخديو إسماعيل واختاره مرثياً لولى عهده الأمير محمد توفيق ، ثم عين بالعمية ، فالحكمة التجارية بالإسكندرية ، فربما لقلم الترجمة بوزارة الخارجية ، ومشاركه رفاعه بك في تعريب الكود (قانون نابليون) . واختص هو بتعريب قوانين المحاكم المختلطة تمهيداً لوضع قوانين المحاكم الأهلية الجديدة ، وجعل مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة ، وله آثار علمية عدة ، أهمها كتبه الثلاثة الخالدة التي جمع فيها أحكام الشريعة

عبد الرحمن بك المراوى

(توفى سنة ١٩٠٦)

من خريجي مدرسة قصر العيني ، أتم دراسته بأوروبا ، وعين بعد عودته أستاذاً للتكنولوجيا وأمراض الجلد ، ثم صار وكيلاً للمدرسة سنة ١٨٨٠ ، وله كتاب في الفسيولوجيا لم يطبع .

علماء الطبيعيات

أحمد بك ندا ، عبد الهادى إسماعيل ، وقد ترجمنا لها في كتابنا (عصر محمد علي) ص ٥٣٤ (الطبعة الأولى) .

علي بك رياض

(توفى سنة ١٨٨٩)

تلقى علم الصيدلة بمصر ، وأتم دراسته في أوروبا ، وتولى تدريس الأوقاديين والكيمياء في مدرسة الطب ، وجعل كبير صيدالة مستشفى القصر العيني ، وله من المؤلفات :

- ١- النقطة الرياضية في الأعمال الأوقادينية طبع سنة ١٢٨٩ هـ .
- ٢- الأزهار الرياضية في المادة الطبية سنة ١٢٩٨ هـ .
- ٣- التوفيقات الإلهية في التاريخ الطبي ، طبع سنة ١٢٩٨ هـ .

منصور أفندى أحمد

أستاذ الكيمياء بمدرسة المهندسخانة ومؤلف كتاب (عمدة التطبيقين في فن الصيدلة المعروف بالأوقاديين) طبع سنة ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦) .

الإسلامية ، وصاغها في مواد محكمة الوضع على أسلوب القوانين الأوروبية ، وهذه الكتب هي : (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان في المعاملات المدنية الشرعية . وكتاب (الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية) ، وكتاب (قانون العدل والإنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف) ، وهذه الكتب هي مرجع رجال القضاء والقانون في المحاكم الأهلية والشرعية والمختلطة ، وعندئذ كل مشتغل بالعلوم الفقهية والقانونية .

وله أيضاً كتاب لم يطبع في (تطبيق ما وجد في القانون المدني موافقاً لمذهب أبي حنيفة) . وتولى وزارة الحفانية في وزارة شريف باشا الدستورية سنة ١٨٨١ على عهد الحديوي توفيق باشا ، ووضع في هذا العهد مشروع النظام القضائي للمحاكم الأهلية الجديدة ، وفي سنة ١٨٨٣ افتتحت هذه المحاكم وصدرت قوانينها ، وهي القانون المدني وقوانين التجارة والمرافعات والعقوبات ، وكان المترجم وقتئذ وزيراً للمعارف في عهد وزارة شريف باشا الرابعة . وهي الوزارة التي استقالت احتجاجاً على إخلاء السودان .

الشيخ محمد العباسي المهدي

(١٨٢٧ - ١٨٩٧)

شيخ الإسلام ، ومفتي الديار المصرية ، وصاحب الفتاوى المهدية التي تعد مرجع العلماء في الفقه الإسلامي ، وهو ابن الشيخ محمد أمين المهدي مفتي الديار المصرية الأسبق ابن الشيخ محمد المهدي أحد كبار علماء مصر في عهد الحملة الفرنسية وأوائل عهد محمد علي (ترجمنا له في كتابنا الجزء الثاني من تاريخ الحركة القومية ص ٢٩٩ . الطبعة الأولى) .

تلقى العلم بالأزهر ، ونبع في علوم الفقه ، وتولى منصب الفتيا وهو بعد في الحادية والعشرين من عمره ، على عهد إبراهيم باشا . وظهرت مزاياه التي رفعت مكانته ، وأهمها الذكاء ، وسعة العلم ، وقوة الحجج ، وقد وقف من الحكومات المتعاقبة موقف الكرامة والاستمسك بالحق ، حتى استهدف في بعض المواطن لغضب ولاة الأمور ، فلم يكن يبالي غضبهم ، ولم يتحول عن الحق ، وتلك كبرى مزاياه وفضائله ، وقد زاد مقامه علواً في عهد إسماعيل ، إذ جمع بين الإفتاء ومشيخة الأزهر سنة ١٨٧١ ، ونال احترام الحديوي وثقته ،

وكان يرجع إلى رأيه في كل ماله مساس بالشرعية الإسلامية ، وبدأ على يده إصلاح نظام التعليم في الأزهر كما تقدم بيانه ص ٢٠٨ . واستمر محتفظاً بمكانته في عهد الحديوي توفيق ، ولما قامت الثورة العرابية لم يكن من أنصارها . فاستهدف لغضب العرابيين ، وعزل من مشيخة الأزهر ، ولما انتهت الثورة أعيد إلى مشيخة الأزهر واستمر متقلداً الإفتاء والمشيخة حتى عزل عنها لمعارضته الحكومة على عهد توفيق باشا فيما يخالف الشريعة ، ثم عاد إليه الإفتاء وتقلده ، إلى أن وافته منيته ليلة ١٦ رجب سنة ١٣١٥ هـ .

• • •

ومن علماء الفقه المعدودين في هذا العصر : الشيخ محمد عليش ، والشيخ إبراهيم السقا ، والشيخ عبد الرحمن البحراوي ، والشيخ حسونة النواوي إلخ .

علماء الفنون الحربية والبحرية

على باشا إبراهيم ، حاد عبد العاطي باشا ، وقد ترجمنا لها في كتابنا (عصر محمد علي) ص ٥٣٠ (الطبعة الأولى) .

محمود باشا فهمي

(توفي سنة ١٨٩٤)

أحد زعماء الثورة العرابية ، ولد سنة ١٢٥٥ هـ في الشنتور بمركز بيا من مديرية بني سويف ، وتخرج في مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ومهر في الفنون الهندسية والحربية وانتظم في سلك الجيش ، ثم جعل أستاذاً لعلم الاستحكامات والفنون العسكرية في المدارس الحربية ، على عهد سعيد وإسماعيل ، وعهد إليه الحديوي إسماعيل تحصين شواطئ مصر الشمالية من أبو قير إلى البرلس ، فاضطلع بهذه المهمة ، وجدد الحصون القديمة ، وأقام حصونا جديدة ، وارتقى إلى الرتب العسكرية ، واشترك في حرب البلقان سنة ١٨٧٦ - ١٨٧٧ ، وكان رئيس أركان حرب الفرقة المصرية بها .



محمد مختار باشا
(١٨٣٥ - ١٨٩٧)

من رجال السيف والقلم ، ولد في بولاق سنة ١٨٣٥ ، وتلقى التعليم الابتدائي ، ثم تلقى الفنون الحربية ، وانتظم في خدمة الجيش وهو في الثانية والعشرين من عمره ، وارتقى في المناصب العسكرية حتى نال رتبة لواء في سنة ١٨٨٦ ، واشترك في حملة هرركا تقدم بيانه ص ١٤٠ ، ثم جعل رئيس أركان حرب الجيش المصري بالسودان ، وعين مأموراً للخاصة الحديوية في عهد الخديو عباس حلمي الثاني ، وبقى يتولى هذا المنصب إلى أن توفي في ٢٠ نوفمبر ١٨٩٧ .

وقد أسبغت عليه حياته العلمية منزلة ممتازة ، وبحسب من المؤلفين والعلماء أكثر مما يعد من رجال الحرب ، وحسبك أنه صاحب الكتاب القيم (التوقيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الحجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية) من السنة الأولى للهجرة إلى عام ١٥٠٠ هـ طبع سنة ١٣١١ هـ .

وقد ذكر إزاء كل شهر أهم الحوادث التاريخية التي وقعت في مصر والعالم . وله كتاب (المجموعة الشافية في علم الجغرافيا) ورسائل أخرى في الرياضيات والفلك ، ومقالات ممتعة في مجلة الجمعية الجغرافية .



محمود باشا فهمي
(توفي سنة ١٨٩٤)

ولما شبت الثورة العرابية كان من زعمائها كاتباً سيجياً ، بيانه في موضعه من كتاب (الثورة العرابية) ، وتولى وزارة الأشغال في وزارة محمود باشا سامي البارودي سنة ١٨٨٢ ، وأسر قبل واقعة التل الكبير ، فكان أسره من أسباب هزيمة الجيش المصري ، وحوكم ضمن زعماء الثورة ، ونفى إلى سيلان ، وهناك وضع كتابه (البحر الزاخر في تاريخ العام وأخبار الأوائل والأواخر) ، وتوفي في منفاه سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٤) وبعد وفاته طُبع كتابه سنة ١٣١٢ هـ في أربعة مجلدات .

شحاتة عيسى بك

ناظر مدرسة أركان الحرب في عهد الخديو إسماعيل .

محمد صادق باشا

(توفى سنة ١٩٠٢)

من تلاميذ مدرسة الخانكة الحربية المنشأة في عهد محمد علي ، ومن أعضاء البعثة الخامسة ، عاد من البعثة مهندساً وانتظم ضابطاً في سلك الجيش ، وهو الذي وافق سعيد باشا في رحلته بالحجاز ، وعين مفتشاً بمصلحة المساحة برآسة استون باشا ، وله مباحث قيمة في مجلة الجمعية الجغرافية .

سليمان قبودان حلاوه

(توفى سنة ١٨٨٥)

من المتوفية ، ولد سنة ١٢٣٥ هـ وتخرج في مدرسة الطوبجية على عهد محمد علي ، وحذق الفنون الحربية والرياضية ، وجعل أستاذاً للهندسة والحساب بالمدرسة البحرية القديمة ، ومهبر في الفنون البحرية وأتقنها ، وصار رباناً للباخرة سمند ، فأظهر براعة في قيادتها ، وطاف بها حول القارة الإفريقية ، وجعل في عهد إسماعيل سنة ١٨٧٠ مدرساً للفنون البحرية والفلكية ، فأفاد التلاميذ فوائد جمة ، وألف في الملاحة كتاباً اسمه (الكوكب الزاهر في فن البحر الزاخر) وتوفى سنة ١٣٠٣ هـ ١٨٨٥ م .

النهضة الفنية

إن النهضة الفنية تشتمل على الفنون المعروفة بالفنون الجميلة . وهي الفنون التي تستثير في النفس إحساس الجمال ، وتنمي فيها ملكته ، ولا مراة في أنها من عوامل نهضة الأمة ، لما تنتج من تهذيب النفوس ، ونشاط العقول ، وترقية العواطف . وتوسيع المدارك ، وتفتح

الأذهان إلى دقة الملاحظة . وصواب النظر .

والكلام عن الفنون الجميلة يتناول الموسيقى أو الغناء ، والتمثيل . والرسم ، والتصوير ، والنقش والزخرفة والعمارة .

أما الرسم فقد بدأت المدارس الهندسية والصناعية والبعثات تعنى به من عهد محمد علي ، فتخرج فيها طائفة من الرسامين تولوا تدريس الرسم في المدارس العالية والثانوية ، والابتدائية ؛ ولكن نهضة الرسم والتصوير لم تنل حظاً من الازدهار في ذلك العهد . وتخرج في مدرسة المهندسخانة والبعثات مهرة المهندسين في النقش والبناء ، وتقدم فن العمارة بما أقامه أولئك المهندسون من القصور والمساجد والدواوين والعمائر الجميلة التي تشهد لهم بحسن الذوق والحذق في هندسة البناء ، وظهر أيضاً حذقهم فيما شيدوه من القناطر على نيل والرياحات والترع الكبرى ، فإن بعض هذه المنشآت تعد قطعة من الفن .

التمثيل والغناء

كان المجتمع في عصر إسماعيل ميالاً إلى المرح والخبور ، وكان إسماعيل ذاته طروباً ، محباً للتمتع بالماهي والمسرات ، وهذه الميول هي غذاء للنهضة الفنية وخاصة الغناء^(٢٩) (الموسيقى) ، والتمثيل .

أما التمثيل فقد ساعد إسماعيل الناحية الأوروبية منه ، ثم بدت منه التفاتة قليلة الجدوى إلى التمثيل العربي ، فأنشأ أول ما أنشأ بالقاهرة مسرح (الكوميدي) بالأزبكية ، وكان الشروع في بنائه في نوفمبر سنة ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه في ٤ يناير سنة ١٨٦٨^(٣٠) ثم بنى دار الأوبرا سنة ١٨٦٩ بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، وتم بناؤها في خمسة أشهر ، وبلغت تكاليفها ١٦٠ ألف جنيه ، ومثلت فيها مساء ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أول أوبرا واسمها (ريجوليتو) ، وكانت الأميرة أوجيني عقيلة نابليون الثالث في مقدمة من شهدوا التمثيل في تلك الليلة ، وعهد إسماعيل إلى الموسيقى الإيطالي الشهير (فردى) أن يضع أول أوبرا مصرية تمثل بدار الأوبرا ، فقام بهذه المهمة ووضع العلامة الفرنسي مارييت باشا موضوع الرواية ، وهي رواية

(٢٩) الغناء والموسيقى بمعنى واحد .

(٣٠) كتاب (باريس في القاهرة) للسيد بربر ص ١١٧ . un Parisien au Caire par Perrieres

(عابدة) ، ومثلت بالقاهرة لأول مرة في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ ، فنالت نجاحاً عظيماً ، وجلبت الحكومة من ذلك الحين الجوقات الإفريقية وأغدقت عليها الأموال والهبات ، فبلغ ما صرف على أفراد إحدى الجوقات في شتاء سنة من سنة إسماعيل ١٢٠ ألف جنيه ، ولا غرابة في ذلك فإن الممثلة الواحدة كانت تأخذ أحياناً ألف ومائة جنيه في الشهر . وأنشئ في الإسكندرية مسرح (زيزينا) ، ومسرح آخر اسمه Alfieri بشارع انطاسي .

وقد وفد على مصر حوالي سنة ١٨٧٦ جماعة من الأدباء والممثلين السوريين ، منهم يوسف خياط ، فتلوا على مسرح زيزينا بعض الروايات ، ثم انتقل يوسف خياط بجوقه إلى القاهرة سنة ١٨٧٨ ، فلقى تعضيداً من الخديو إسماعيل ، وأذن له أن يمثل رواياته في دار الأوبرا ، فمثل رواية « الظلوم » وحضرها الخديو ، فلم يرقه أسلوبها ، وغضب مما تخللها من ذكر الظلم والتعريض بالظالمين . إذ ظن أنه المقصود بهذا التعريض ، فأمر بإخراج الخياط وجوقه من مصر فعادوا إلى سوريا ، ووقفت النهضة الثبيلية في عهد إسماعيل عند هذا الحد .

الموسيقى (الغناء)

سرت روح النهضة والتجديد إلى الموسيقى والغناء ، فقد كان المغنون يتبعون إلى ذلك العهد الأساليب والتواشيح القديمة ، حتى ظهر (عبده الحسولي) المعنى الشهير ، فألهته عبقريته الموسيقية إصلاح هذه الأساليب وإدخال روح العصر والتجديد فيها .



عبد الحمودي
مجدد الغناء في عصر إسماعيل

ولد عبده الحمودي في طنطا حوالي سنة ١٨٤٥ ، أي أنه استقبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، عصر التجديد الاجتماعي ، فحمل فيه لواء النهضة الغنائية ، وهو ابن تاجر بن في طنطا ، وكان له أخ أكبر منه سناً ، وكان أبوهما يقسو في معاملتها ويسئ إليهما بالضرب والاضطهاد ، فلم يطيقا صبراً على هذه الغلظة ، ففرا من عنده وسارا هائمين في الأرياف ، فساقتهما المصادقة إلى رجل يشتغل بالغناء ويعزف على القانون ، فسمع صوت عبده ، فأطربه وأعجب به إعجاباً كبيراً ، وعاد به إلى طنطا ، وهناك أخذ يغني معه ، ثم جاء به إلى مصر ، فما أن سمعه محو الطرب حتى اجتذبهم بصوته الجميل ، وظهرت عليه علامة النبوغ الموسيقي . فترك صاحبه وأستاذه القديم ، وانتقل إلى مغن مشهور اسمه (الشيخ المقدم) فاشتغل على تحفته ، وأخذت شهرته تزدح في الأوساط الاجتماعية ، وبدأ ينتكر أساليب جديدة في الغناء نالت إعجاب أهل الفن وعشاق الطرب ، وبلغت شهرته الخديو إسماعيل فاجتذبه وألحقه ببعيته ، وكان ذلك فاتحة مجده ، إذ أحب فيه الخديو صوته الجميل ، فاتخذته تديماً في حفلاته وسهراته ، وأغدق عليه الهبات والعطايا ، واصطحبه في رحلاته إلى الاستانة ، وهناك التقى عبده بالموسيقين الترك وسمع ألحانهم ، فاقبب منها ما يلائم الروح المصرية ، وابتكر في الغناء ألحاناً جديدة هي مزيج من الموسيقى العربية والتركية ، فصار زعم المجددين في الموسيقى

المصرية . واستمر يمارس الغناء وينهض بالفن ويطرب الناس طول حياته . ولا غرو فهو البلبل الصداح الذي كان يحرك أوتار القلوب بصوته العذب ، وأحد لبديعة ، وأنغامه الجميلة . وقد ظل ثلاثين سنة ونيفاً مصدر السرور والطرب ، للأفراد ، جمعيات ، وكان رقيق المزاج ، دمث الأخلاق ، كريم الطباع ، عزيز النفس ، مخلصاً لفنه . سولماً به ، وهذا هو سر نبوغه وعبقريته ، وكانت وفاته سنة ١٩٠١ .

واشتهر في عصره بعض السيدات في الغناء ، منهم (ألباس) المغنية المشهورة ، وقد تزوج بها عبده ، ومنعها عن الغناء في مجالس الناس ، وكانت له من أجل ذلك حادثة استهدف فيها لغضب إسماعيل ، إذ طلب يوماً أن تحضر (ألباس) إلى قصره وتغنى فيه ، فرفض عبده أن تذهب ، فغضب الخديو ، وأمر بإحضارها قوة واقتداراً ، فاستعصم عبده ، وأصر على الإبقاء ، ووسط الشيخ على الليثي شاعر الخديو في الأمر ، وانتهت الحادثة بعدول الخديو عن طلبه .

وفي هذا العهد نشأ محمد العقاد ، الموسيقى المشهور ، أقدر من ضرب على « القانون » في العصر الحديث ، وقد أدرك عصر إسماعيل ، وإن كانت شهرته لم تكتمل إلا من بعد ، وصحب عبده الحامولى ، وحاكاه في توقيعه وأنغامه .
وصفوة القول أن عصر إسماعيل كان للنهضة الغنائية عصر الإحياء والتجديد ، وظهر فيه عباقرة الفن الذين رفعوا شأنه ، وأحلوه من النفوس مكاناً علياً .

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى

(وفيه ختام الكلام عن عصر إسماعيل)

راجع هذا الكتاب المستشار

حلمى السباعى شاهين

نائب رئيس قضايا الحكومة

الفهرس

صفحة	صفحة	صورة المؤلف
٧	٣	مقدمة الطبعة الثالثة
٩	٥	مقدمة الطبعة الأولى

الفصل الأول

الرجعية في عهد عباس الأول

٢١	١٥	نشأة عباس
٢٢	١٦	ولايته الحكم
٢٢	١٦	أخلاقه
٢٢	١٧	أعماله
٢٣	١٧	سياسة العامة
٢٤	١٨	إصلاح الطريق بين مصر والسويس
٢٦	٢٠	السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة
	٢١	ضبط الأمن
		المدارس والمصانع
		البيئات
		السودان
		الجيش والبحرية
		اشتراك مصر في حرب القرم
		مقتل عباس
		مبزة عباس

الفصل الثانى

النهضة الوطنية في عهد سعيد باشا

٣٢	٢٩	نظرة عامة
٣٢	٢٩	نشأة سعيد
٣٣	٣٠	أخلاقه
	٣٠	إصلاحاته الزراعية
٣٤	٣٠	اللائحة السعيدية
٣٧	٣٢	لائحة المعاشات للموظفين
		أعمال العمران
		تطهير ترعة المحمودية
		السكك الحديدية والتلفرافات
		إصلاحاته الحربية وبنه
		روح القومية في الجيش
		البحرية

الفصل الثالث عصر إسماعيل

صفحة	صفحة
٨٢	٧٣
٨٢	٧٤
٨٤	٧٦
٨٥	٧٦
٨٥	٧٨
٨٥	٧٨
٨٦	٧٩
٨٧	٧٩
٨٨	٧٩
٩٠	٧٩

الفصل الرابع قناة السويس

٩١	٩٣
٩١	٩٣
٩١	٩٥
٩٤	٩٥
١٠٥	٩٦
١٠٦	٩٦
١٠٧	٩٨

صفحة

٥٣	١
٥٣	١
٥٧	١
٥٧	١
٥٨	١
٥٨	١
٥٩	١
٦٠	١
٦٢	١
٦٢	١
٦٣	١
٦٦	١
٦٦	١
٦٧	١
٦٧	١
٦٩	١
٧٠	١
٧٠	١
٧١	١

صفحة

٣٧	١
٣٩	١
٤٠	١
٤٠	١
٤١	١
٤١	١
٤٣	١
٤٤	١
٤٦	١
٤٨	١
٤٩	١
٤٩	١
٤٩	١
٤٩	١
٥٠	١
٥٠	١
٥٠	١
٥٠	١
٥١	١
٥١	١
٥٢	١
٥٣	١

الفصل الخامس
السودان في عهد إسماعيل

صفحة	صفحة
١٠٩	توسيع نطاق السودان المصري
١٠٩	كلمة إجمالية
١١٠	فتح فاشودة
١١١	ضم سواكن ومصوع
١١٢	فتح إقليم خط الاستواء والوصول إلى منابع النيل
١١٢	مهمة السير صمويل بيكر
١١٢	رحلته في عهد سعيد
١١٣	مهمته في عهد إسماعيل
١١٦	رفع العلم المصري على غندكرو
١١٨	فتح مملكة أوتوبورو
١١٩	ولاء ملك أوغندا لمصر
١٢١	تعيين الكولونل غردون مديرًا لخط الاستواء
١٢١	توسيع نطاق الحكم المصري في مديرية خط الاستواء
١٢٢	بسط حياة مصر على مملكة أوغنده
١٢٤	مذكرة شريف باشا إلى الدول عن امتلاك مصر منطقة البحيرات
١٢٦	موقف غردون
١٢٧	اكتشاف بحيرة إبراهيم
١٢٨	استعفاء غردون من منصبه
١٣٠	مصر مديرية خط الاستواء
١٣٠	مضى باشا حمدي
١٣١	منع تجارة الرقيق
١٣٣	ظهور الزبير باشا رحمت
١٣٤	فتح سلطنة دارفور
١٣٤	معركة منواشي
١٣٦	ضم زليق وبريره
١٣٨	فتح هر
١٤٢	حملة الصومال
١٤٣	اعتراف إنجلترا بسلطة مصرف الصومال
١٤٤	التراع بين مصر والحبيشة
١٤٥	الحرب بين الإنجليز والحبيشة
١٤٦	مترنج باشا
١٤٧	فتح سنيت وضم إقليم البوغوس
١٤٧	حرب الحبيشة
١٤٨	حملة ارندروب بك
١٤٩	هزيمة جونديت
١٤٩	حملة مترنج باشا
١٤٩	مقتل مترنج باشا
١٥٠	الحملة الكبيرة بقيادة رانب باشا
١٥١	هزيمة قورج
١٥١	عقد الصلح مع الحبيشة
١٥٢	نتائج حرب الحبيشة
١٥٣	حكومات السودان في عهد إسماعيل
١٥٣	موسى باشا حمدي

صفحة	صفحة
١٦٤	المواصلات النيلية ودار الصناعة بالخرطوم
١٦٤	الملاحة البحرية والفنارات
١٦٥	مشروع السكة الحديدية
١٦٥	المدارس
١٦٧	التجارة
١٦٨	البريد
١٦٨	التلغرافات
١٦٩	مزايا السودان
١٦٩	الرحلات والبعثات الجغرافية
١٧٤	الحكم المصري في السودان وشهادة الثقات من الأجانب
١٧٦	حدود السودان المصري أمس واليوم
١٥٣	جعفر صادق باشا
١٥٣	إحسان ثورة كسلا
١٥٤	جعفر مظهر باشا
١٥٥	ممتاز باشا
١٥٦	إسماعيل باشا أيوب
١٥٦	غردون باشا
١٥٩	التقسيم الإداري
١٦٠	الجيش المصري في السودان
١٦٢	أعمال العمران
١٦٢	استياب الأمن
١٦٢	الزراعة
١٦٣	طرق المواصلات

الفصل السادس
الجيش

صفحة	صفحة
١٨٣	هبة أركان حرب الجيش
١٨٤	الصحافة الحربية
١٨٥	تجديد السلاح والصلانع الحربية
١٨٦	إنشاء ميدان للرماية
١٨٦	إدخال النظام الألماني
١٨٧	إحصاء الجيش
١٨٧	افتقار الجيش إلى قائد عظيم
١٨١	كلمة إجمالية
١٨١	المدارس الحربية التي أنشأها إسماعيل
١٨٢	مدرسة المشاة
١٨٢	مدرسة الفرسان
١٨٢	مدرسة المدفعية
١٨٣	مدرسة أركان الحرب
١٨٣	المدارس الأخرى

٢١٩	صفحة	٢٠٨	صفحة	٢٥١	صفحة
٢٥١	أبو نضارة	٢٠٨	البيئات	٢٥١	مدرسة الطب والولادة
٢٥٢	المصحف الإريترية	٢٠٩	مدارس الأحياء الأثريوكس	٢٥١	مدرسة دار العلوم
٢٥٣	الطائفة	٢٠٩	المدارس الأوربية	٢٥١	مدرسة الحقوق
٢٥٣	حين حفيق بانبا	٢١٠	وزارة المعارف	٢٥١	مدرسة الهندسة
٢٥٣	مطبعة يولاق	٢١٠	مزاينة التعليم	٢٥١	مدرسة الفنون
٢٥٣	معمل الورق	٢١٢	ترجمة حياة علي بانبا مبارك	٢٥١	مدرسة دار العلوم
٢٥٤	المطابع الأخرى	٢٤٤	الجمعيات العلمية	٢٥١	مدرسة دار العلوم
٢٥٤	الكتب التي طبعت في ذلك العصر	٢٤٤	الجمع العلمي	٢٥١	مدرسة دار العلوم
٢٥٤	مظاهر النهضة العلمية والأدبية	٢٤٥	جمعية المعارف	٢٥١	مدرسة دار العلوم
٢٥٨	أعلام الأدب في عصر إسماعيل	٢٤٧	جمعية المعارف	٢٥١	مدرسة دار العلوم
٢٥٨	رائعة بك	٢٤٧	الجمعية الخيرية الإبراهيمية	٢٥١	مدرسة دار العلوم
٢٥٨	علي بانبا مبارك	٢٤٧	المصحات	٢٥١	مدرسة الطب والولادة
٢٥٨	السيد جمال الدين الأتقني	٢٤٨	المصحف العلمية والأدبية والطبية	٢٥١	
٢٥٨	الشيخ حين الرصق	٢٤٨	العيوب	٢٥١	
٢٥٨	عمود بانبا سالي البارودي	٢٤٨	روضة المدارس	٢٥١	
٢٥٩	عبد الله أبو السعود أفندي	٢٥٠	جريدة أركان حرب الجيش المصري	٢٥١	
٢٦٠	الشيخ عبد عهده	٢٥٠	الجريدة العسكرية المصرية	٢٥١	
٢٦٠	إبراهيم بك الريفي	٢٥٠	المصحف السياسية	٢٥١	
٢٦١	عبد بك عثمان جلال	٢٥٠	وادي النيل	٢٥١	
٢٦٢	عائشة عصمت تيمور	٢٥٠	ترجمة الأناكار	٢٥١	
٢٦٣	عبد الله بانبا فكري	٢٥٠	الوطن	٢٥١	
٢٦٤	الشيخ عبد الماني نجما الأياري	٢٥٠	مصر و(التجارة)	٢٥١	
٢٦٥	السيد عبد الله تديم	٢٥١	روضة الأحبار	٢٥١	
٢٦٥	أديب إسحق	٢٥١	الركب الشرق	٢٥١	
٢٦٦	الشيخ علي البقي	٢٥١	الأهرام	٢٥١	
٢٦٦	علي أبو النصر المنطوي	٢٥١	الإسكندرية	٢٥١	
٢٦٦	الشيخ حسن الطويل	٢٥١	الركب المصري	٢٥١	
٢٦٦	السيد صالح عدي بك	٢٥١	مرآة الشرق	٢٥١	
٢٦٧	إبراهيم بك مرزوق	٢٥١	مرآة الأحوال	٢٥١	

الفصل السابع
البحرية

صفحة	صفحة
١٩٤	١٨٩
١٩٤	١٩٠
١٩٥	١٩١
١٩٥	١٩٢
١٩٥	١٩٢
١٩٥	١٩٣

الفصل الثامن

حروب مصر في عهد إسماعيل	١٩٧	إحصاء ثورة المسم
حرب القلان	١٩٨	حرب الجبل الأسود وكريت
حرب السودان والبحية	٢٠٠	

الفصل التاسع
التعليم والنهضة العلمية والأدبية

٢٠٣	٢٠١	المدارس التي أُنشئت في عهد إسماعيل
٢٠٤	٢٠١	المدارس الخيرية
٢٠٥	٢٠١	المدارس المالية
٢٠٥	٢٠٢	مدرسة الهندسة
٢٠٦	٢٠٢	مدرسة الحقوق
٢٠٧	٢٠٢	مدرسة دار العلوم
٢٠٨	٢٠٣	مدرسة الطب والولادة

صفحة	صفحة
٢٦٧	أبو الوفاء نصر الموريني
٢٦٨	محمود صفوت الساعاتي
٢٦٨	محمد عارف باشا
٢٦٨	أحمد بك عبيد
٢٦٨	خليفة أفندي محمود
٢٦٩	بقية أعلام الأدب
٢٦٩	علماء المثلثة والرياضيات
	على باشا مبارك . بهجت باشا . مظهر باشا . فايد باشا . حسين باشا . فهمي للعمار . أحمد بك السبكي . حسن بك نور الدين . حسن باشا حتى
٢٦٩	محمود باشا الفلكي
٢٧٤	إسماعيل باشا الفلكي
٢٧٥	سلامة باشا
٢٧٥	محمد ثاقب باشا
٢٧٦	إسماعيل باشا محمد
٢٧٦	أحمد بك نجيب
٢٧٦	حسين أفندي على الديك
٢٧٦	على أفندي عزت
٢٧٦	عامر بك سعد
٢٧٧	السيد عمارة
	علماء الطب والجراحة
	محمد على باشا البقل . أحمد حسن الرشيدى بك . محمد الشافعى بك . حسين عوف باشا
٢٧٧	محمد درى باشا
٢٧٨	حسن بك عبد الرحمن
٢٨٠	محمد بك حافظ
٢٨٠	سالم باشا سالم
٢٨٠	جلیلة ترحان
٢٨٠	محمد بك بدر
٢٨١	أحمد حمدى باشا
٢٨١	حسن باشا محمود
٢٨١	إبراهيم باشا حسن
٢٨١	عيسى باشا حمدى
٢٨٢	عبد الرحمن بك المراوى
	علماء الطبيعيات
٢٨٢	أحمد بك ندا
٢٨٢	عبد المادى إسماعيل
٢٨٢	على بك رياض
٢٨٢	متصور أفندي أحمد
	علماء الفقه والقانون
٢٨٣	محمد قلىرى باشا
٢٨٤	الشيخ محمد العباسى المهدي
	علماء الفنون الحربية والبحرية
٢٨٥	على باشا إبراهيم . حماد عبد العاطى
٢٨٥	محمود باشا فهمى
٢٨٧	محمد مختار باشا
٢٨٨	شحاته عيسى بك
٢٨٨	محمد صادق باشا
٢٨٨	سليمان تيردان حلاوة

صفحة	صفحة	النهضة الفنية
٢٩٢	٢٨٩	التثيل والغناء
٢٩٢	٢٩٠	الموسيقى
٢٩٣	٢٩١	عيدة التمول
٣٠٤		
		ألماس
		محمد العقاد
		فهرست الجزء الأول
		فهرست الحرائط والصور

٢٧١ علماء اختلفة في عصر إسماعيل
٢٧٩ علماء الطب والجراحة في عصر إسماعيل
٢٨ محمد قدرى باشا
٢٨٦ محمود فهمى باشا
٢٨٧ محمد مختار باشا
٢٩١ عهد الخمولى

• • •

فهرست الخرائط والصور

صفحة	
١٩ عباس باشا الأول والى مصر
٤٧ سعيد باشا والى مصر
٦٨ ابتداء العمل في حفر القناة
٧٥ إسماعيل باشا خديو مصر
١٠٠ حفلة افتتاح قناة السويس بيورسعيد
١٠١ دخول البواخر المقلدة للملوك والأمراء قناة السويس
١٠٢ ولية العشاء التي أقامها الخديو إسماعيل إبتهاجاً بافتتاح القناة
١٠٣ حفلة الرقص التي أقامها الخديو إسماعيل إبتهاجاً بافتتاح القناة
١٠٧ خريطة قناة السويس
	نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الإبل في صحراء النوبة سنة ١٨٦٩
١١٤ استعداداً لفتح إقليم خط الاستواء
١١٥ الأسطول النيل الذي تحرك من الخرطوم لفتح إقليم خط الاستواء
١١٦ حفلة رفع العلم المصرى على غندكرو (الإسماعيلية) سنة ١٨٧١
١١٧ المعسكر المصرى في غندكرو (الإسماعيلية) سنة ١٨٧٢
١١٨ ريوثجا ملك أونويرو بصافح صمويل بيكر باشا سنة ١٨٧٢
١٢٠ صمويل بيكر باشا مدير خط الاستواء في عهد إسماعيل وأركان حربه
١٢٥ خريطة مديرية خط الاستواء
١٣٥ السودان المصرى في عهد إسماعيل
١٣٩ مدينة هرر سنة ١٨٧٦
١٦١ مديريات السودان المصرى في عهد إسماعيل
١٦٦ رأس جردفون (جردفوى)
١٧١ الرحلات والبعثات الجغرافية في عصر إسماعيل
١٧٧ حدود الدولة المصرية أمس واليوم
٢١١ على باشا مبارك
٢٥٧، ٢٥٦ أعلام الأدب في عصر إسماعيل

فصول الجزء الثاني من الكتاب

الفصل العاشر	: أفعال العمران
الفصل الحادى عشر	: مأساة الديوان
الفصل الثانى عشر	: الحركة الوطنية والحياة النيابية
الفصل الثالث عشر	: ختام النزاع بين الخديو والمدائين
الفصل الرابع عشر	: نظام الحكم
الفصل الخامس عشر	: الحالة المالية والاقتصادية
الفصل السادس عشر	: الحالة الاجتماعية
الفصل السابع عشر	: شخصية إسماعيل والحكم على عصره

• • •

للمؤلف

حقوق الشعب :

يتضمن شرح للمبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان . طبع سنة ١٩١٢ .

نقابات التعاون الزراعية :

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشأته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤ .

الجمعيات الوطنية :

صحيفة من تاريخ النهضات القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢ .

تاريخ الحركة القومية (فى جزأين) :

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر . وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩)

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

عصر محمد على :

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠)

عصر إسماعيل (فى جزأين) :

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢)

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢) .

الثورة العربية والاحتلال الإنجليزى (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧) .

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢) .

مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩) .

محمد فريد : رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١).

ثورة سنة ١٩١٩ في جزئين :

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (في جزئين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ .
الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ويان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة . وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شوب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة في القاهرة والأقاليم .

الجزء الثاني : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاكمات الثورة ولجنة ملتر . والحوادث التي لايتها ومفاوضات ملتر واستشارة الأمة في مشروع ملتر . والتبليغ البريطاني بأن الحماية علاقة غير مرضية . ونتائج الثورة في حياة مصر القومية .

في أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩) : في ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : تاريخ مصر القومي من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧)

الجزء الثاني : تاريخ مصر القومي من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ - سنة ١٩٤٩).

الجزء الثالث : تاريخ مصر القومي من ولاية فاروق عرش مصر في ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١) .

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ :

(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧)

الكفاح في القتال سنة ١٩٥١ - حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ .

وزارات الموظفين - أسباب الثورة - فاروق يمهد للثورة .

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ :

تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة :

من فجر التاريخ إلى الفتح العربي (طبع سنة ١٩٦٣)

مذكراتي (١٨٨٩ - ١٩٥١) :

خواطري ومشاهداتي في الحياة .

شعراء الوطنية في مصر :

تراجمهم . وشعرهم الوطني . والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

مجموعة أقراني وأعمال في البرلمان : (مجلس النواب الأول) طبع ١٩٢٥

أربعة عشر عامًا في البرلمان :

في مجلس النواب سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥

وفي مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١١٥١ (طبع سنة ١٩٥٥) .

كتب مختصرة

مصطفى كامل :

باعت النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)

بطل الكفاح . الشهيد محمد فريد : (طبع سنة ١١٥١)

الزعيم الناصر أحمد عرابي :

(الطبعة الأولى - يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفطاني : (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ :

استقلال أم حياية (طبع سنة ١٩٣٦)

كتب لطلبة المدارس الثانوية :

(طبع سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩)

مصر المجاهدة في العصر الحديث :

في ست حلقات تشتمل على كفاح الشعب في عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه في العهد التالي إلى بداية

ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

تاريخ مصر القومي :

من الفتح العربي حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف

(تحت الطبع)

مختاراتي من دواوين الشعراء في الجاهلية والإسلام .

To:

WWW.AL-MOSTAFA.COM